



مَفْهُومُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ

فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

تأليف

الدكتور الشيخ محمد علي الجوزو



الناري السبائي

دار العلم للملايين

مَفْهُومُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ
فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

مَفْهُومُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ

فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

تأليف

الدكتور الشيخ محمد علي الجوزو

دار العلم للملايين

ص.ب. ١٠٨٥ - بيروت

جميع الحقوق محفوظة



الناري السبائي

الطبعة الأولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الصُّدُورِ﴾

سورة الحج آية ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم العلامة الشيخ محمد فهم أبو عبيه
رئيس بعثة الأزهر الشريف في لبنان

الحمد لله ... والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله وعلى المصطفين
الأخير من عباده...

وبعد

فكلما أتيت لي أن أقرأ بحثاً علمياً جاداً... يخدم الحقيقة ويعرض جديداً
من المعرفة، شعرت بالرضا، وأحسست بكسب يغالي بقيمته ولا يستهان
بقدره....

ذلك أن عمر الإنسان يقاس بعقله ووجدانه، لا بسني حياته وأيام
زمانه، وأنه على مقدار حظ العقل من العلم، ونصيب الوجدان من
مرهفات الحس، تكون الحياة الإنسانية، عرضاً... وعمقاً... وغنى....

ومن هنا: فإن البوارق الفكرية الصادقة؛ واللوامح الذهنية المشرقة
والخوارج الحسية الصافية الدافقة؛ هي المدد النفيس للمعنى الأصيل في
الإنسان، تمنحه غذاءه.. وضياءه.. وأسباب تفوقه.

وعلى أساس ما يمنح النتاج العلمي من ذكيّ اللحاحات، وسريّ النبضات

يكون وضعه في موازين النقد، وموضعه بين ثمار العقول.

نقول هذا ونحن نقدم كتاب الأستاذ الصديق «الدكتور محمد علي الجوزو» مفتي جبل لبنان، - «مفهوم العقل والقلب في الكتاب والسنة» هذا الكتاب الذي يلمس فيه القارئ المنصف، جدية في البحث، واحتراماً للحق، وتوفراً على معالجة الموضوع بروح بعيد عن التعصب، وعقل متحرر من الأسر، ونظر متجاوز للسطحية، والمأم بعناصر البحث، واستيفاء لأدلته وشواهده، وقدرة بارزة على الموازنة بين الأدلة، والمقارنة بين الدلالات وإدراك سليم لمعاني الكلمات، ولظلال هذه المعاني؛ في ضوء سياقها وسباقها واستعمالاتها اللغوية الصحيحة.

هذا... مع الجهد الواضح في إحسان التنظيم والتبويب؛ واتقان التنسيق والترتيب، إلى الحد الذي جعل الموضوعات في الكتاب حبات متناسقة في عقد نظم، لا تنافر بينها ولا فرجة... وإنما هو الوئام الذي يشد القارئ... ويجذب انتباهه... وينتقل به في يسر من صفحة إلى صفحة، ومن باب إلى باب، حتى يصل إلى نهاية المطاف مع الكاتب والكتاب....

في تواضع العلماء يقرر المؤلف الفاضل أنه أفاد من الباحثين قبله في موضوع رسالته، ويسجل بصوت عال، أن كتاباتهم أنارت له الطريق وعبدت له الدرب... هذه... من الحمائد التي تشكر للكاتب؛ والتي نتمنى أن تكون سمة الناس - وبخاصة أهل العلم - «حتى لا تزل بهم الأقدام إلى نكران فضل أولي الفضل... وجحود نعمة أهل النعمة... فإنه لا خير في جحود، ولا أمل في كنود، ولا قيمة لمن يروي ظمأه من غير سواه، ثم يزعم لنفسه ولغيره، أنه قد أوتي نعمته على علم عنده... جاهلاً أن الحقائق

لا تبقى طويلاً وراء الأستار... وأن سدف الظلام لا بد أن يبددها ضوء النهار!!!... وأن الله قد أهلك من قبله من القرون من جحدوا، وكذبوا على الحقيقة والحق، وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا، وأن هؤلاء وأمثالهم ليسوا بمفازة من العذاب، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون....

وفي تواضع العلماء بجاهر المؤلف الفاضل بأنه لا يدّعي لبحثه الكمال، وإنما هو محاولة بذل فيها ولها من الجهد ما بلغت طاقته، وهو يحمد الله على ما قد يكون وفق إليه من صواب، ويعتذر مخلصاً عما قد يكون القلم حاد إليه عن مستقيم النهج، أو وقع فيه من بوادر الزلل....

وهذا درس أخلاقي آخر يجب أن ينصت إليه، ويعمل به من أعماهم الغرور، وأكلتهم الشرور، وانصرف بهم الأهواء، عن إدراك خطورة ما يتورطون فيه من الخطيئة والأخطاء.

قال المؤلف هذه وتلك من منطلق التواضع المحمود، ومن شرفة النجاة من الغطرسة والجحود، ليوقط غافلاً، وينبه ذاهلاً، ويعلم جاهلاً، ويكرم عاقلاً، ويحفز إلى مسيرة في النور، بعد أن تكاثف الظلام، وجهلت الأحلام وسفهمت الألسنة والأقلام، وتناسى الكثير ضعفهم وأسباب ضعفهم، وظن فريق منهم أنه الذي على الحق تستقيم خطواته، وبالحق تهتف كلماته، وأنه لهذا وهذا يجب احترامه ومراعاته.

على أن المؤلف من منطلق احترامه لذاته، واعتداده برأيه، وجديته في بحثه، وعزمه على أن يقدم جديداً لمكتبة الإسلام، بجاهر بأنه لن يترك عقله أسيراً لفكرة سابقة، أو نخلة رائجة، أو مذهب شائع، وأن تكون البيّنة والحجة وسلامة المنطق هي ميزانه فيما يأخذ أو يدع من الرأي، ومعتمده فيما يؤثر أو يرفض من الفكر، يروده حب للحقيقة وإخلاص لها، ورغبة في

تجلية نورها للناس ، وكشف جوهرها للطالبيين ، ويدفعه إيمانه بالإسلام ،
دين الفطرة وسنة الحياة الراشدة ، ونموذج العدالة والنصفة ، ومنهج السلامة
والسلام لبني البشر ..

إن المؤلف يسوق بحوثه ، ويعرض أفكاره في أسلوب يجمع بين أصالة
القدم وسمات العصر ، ويحفظ من التراث ما لا يتجافى والمنطق ، ولا يتنافى
والحق ، ولا يتعارض وحقائق الحياة ، ويناقش ما لا يروقه ولا يستقيم
لديه بالبرهان القوي والدليل الواضح فيأخذ ما يأخذ عن بيّنة ، ويترك ما
يترك عن بيّنة ، وهو في أخذه وتركه وفي قبوله ورفضه ، يعتمد الكلمة
المهذبة ، والتعبير الأحسن ، ترفعاً بأصالة البحث عن الإسفاف والإجحاف
والمهانة ، ورغبة في أن يكون كشف الحقيقة هو الهدف والغاية ..

وهو في ذلك يحكمه المنهج العلمي الحديث ، الذي يتأدى بروية وهوادة
من المقدمات إلى النتائج ، دون تكلف أو اعتساف .

وهذا المنهج تصدى المؤلف بالحكمة وبالفهم وبالتجرد ، وبمحبة الحق
تصدى للمدارس الفلسفية التي تبالغ في تقدير العقل ، وفي رفعه فوق ذاته ،
وفي الباسه من الصفات ما ليس له ، ومنحه من القوة ما ليس فيه ، تصدى
لها ، وبين شططها ، وكشف جنوحها عن الصواب ، وواجهها بموقف الإسلام ،
تجاه تلك الملكة الرفيعة التي خص الله بها الإنسان ، ومازه بها على غيره ،
وفضّله على كثير مما خلق ، فأكد نظرة الإسلام الواقعية ، وحكمه
العدل ، بأن العقل منحة الالهية أعطيها الإنسان ليتأمل بها في الكون
والنفس ، وفي الحياة والأحياء ، وليفرق بنورها بين الحقائق والأباطيل
وبين الثوابت والأوهام ، حتى يصل من خلال نظراته وتأملاته إلى الإيمان
الواثق بوجود الله ، المبدع للكون ، الخالق للأشياء .

تلك هي حقيقة العقل ومهمته وطاقته، وهي - على جلالته - مضبوطة بإطارها محكمة بحدودها، لا تتخطاها ولا تتعداها، ولا تستطيع النفاذ منها إلى الغيب وأسراره، بله خلق الحياة، أو شيء من أشياء الحياة....

العقل بتكوينه وقدرته ومهمته، عاجز عن إدراك الغيب، وعن إمكان الخلق؛ وهو عاجز عن تحديد ماهية الخير والشر، والحسن والقبح، وهو عاجز عن الوصول وحده إلى وضع شرائع للإنسان تكفل سعادته، وتضمن خيره، وتوفر العدالة له، وتجنبه الأخطار والشُرور

ذلك أنه - مع قصوره الفطري - محكوم بعوامل ذاتية، ومؤثرات بيئية؛ تنضح عليه وتؤثر في تحديد وجهته، وتحيد به قليلاً أو كثيراً عن المثالية الكاملة....

وهذا ما يجعل حاجته ضرورية إلى شريعة الله، تملك زمامه، وتثير الطريق له وترشده إلى ما يكفل للإنسان الخير غير مشوب، والعدل غير مكذوب، وإلى ما يؤصل في ضمير الإنسان حب الحق، ويحمله إلى نصرته....

والمؤلف يقف من علماء الكلام والتصوف، مثل موقفه من مدارس الفلسفة يواجههم بالحجة، ويقارعهم بالدليل، ويحاورهم بالمنطق، من غير أن تند من قلمه لفظة جانحة، أو عبارة جارحة، ومن دون أن يغض من قيمة الحق، كرامة لاسم لامع أو حياء من جاه علمي واسع، «فالحق أحق أن يتبع»، وليس في رفع مناره ما ينال من أحد عند العاقلين...

لقد أعطى المؤلف بحثه الكثير من الجهد والعناية، فجاء ثمرة ناضجة لعقل يدين بالحرية، وقلب يمتلىء باليقين، وروح رغب في ألا يعيش

الإنسان أسيراً للتقاليد والأوهام، ولا عبداً للمستوردات من زوائف
الأفكار....

ولو أننا ذهبنا إلى استقصاء مباحث الكتاب، وتفصيل مضمونه، لطال
الكلام وضاق المقام، فلنتركه إلى القارئ يجول في رياضه، ويقطف من
ثمره، ويأنس بما فيه من لمعات ولمحات...

شكر الله لكاتبه ما بذل من جهد مثمر، وما قدم من عمل خير، ونرجو
أن يكون كتابه زيادة مباركة في ذخائر موارثنا الفكرية المباركة.

فهم أبو عبيه

بيروت في ١٩/٦/١٩٧٩

مقدمة

أن نقدم بحثاً فلسفياً حول مفهوم العقل والقلب في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يبدو أمراً غير مأمون العواقب، إن لم يكن غير مستساغ من الناحية الدينية، ذلك أن القرآن ليس كتاباً فلسفياً، ولا يخضع لما تخضع له النظريات الفلسفية من أخذ ورد، لأنه وحيٌّ مُنَزَّل لا جدال فيه ولا مرأى.

لذلك، فإن أي بحث يتناول جزئية من جزئياته إنما يتناولها على أساس التحليل لهذه النصوص وعرضها عرضاً علمياً دقيقاً، لتعميق الفكر الإسلامي المعاصر، وللخروج بنتائج جديدة، تكون مدركة من قبل الإنسان الغربي كما هي مدركة من قبل الإنسان الشرقي على السواء.

ولما كانت المعرفة هدفاً فلسفياً، وكان العقل ركيزة البحث في المعرفة، فإن المدارس الفلسفية المختلفة تناولت هذه الملكة الرئيسية، وبالغت في تقدير إمكاناتها وقدراتها، بل منها ما جاوز الحدود، وحاول اختراق جيب الغيب، والبحث في ما وراء المادة ثقة منها في العقل، واعتماداً عليه، مما دفع بعضها مبالغة في هذه الثقة للقول بالعقل الأول والعقل الثاني، وقادها إلى تأليه هذه الملكة.

وقد تأثر بعض فلاسفة المسلمين بهذه المدارس الفلسفية وقالوا بالعقول

العشرة، كما ذهب إلى ذلك الفارابي، وقالوا بنظرية الفيض والإشراق كما ذهب إلى ذلك ابن سينا وغيره، وكانت «التعددية» مع ما يحيط بها من أفكار اغريقية مدخلاً للالتباس بالتثليث المسيحي الذي كان متأثراً بهذه الفلسفة أيضاً، ولكن دون الإعلان عن ذلك صراحة.

وجاءت مدارس أخرى مادية تقدر العقل وتحيطه بهالة من التقدير كبيرة، إذ جعلته «أرقى ما وصلت إليه المادة في تطورها» كما تذهب إلى ذلك الفلسفة الماركسية، التي تقرر أن المعرفة التي يقوم بها العقل على قواعد منطقية (جدلية) هي أرقى أنواع المعرفة.

ولكن القرآن وهو يتحدث عن العقل لم يقل بما قال به فلاسفة اليونان ولا فلاسفة المسلمين، ولم يذهب إلى ما ذهبت إليه الفلسفة المادية الجدلية، وبعبارة أوضح لم يتجاوز به حجب الغيب، ولم يدع أنه اكتشف أسرار المادة، أو أسرار الوجود.

إن القرآن يقدم العقل في «صورة بسيطة» ليس فيها تعقيد ولا إبهام، يقدمه عقلاً متأملاً في الطبيعة، دارساً لظواهرها، مفكراً فيما هي عليه من دقة ونظام وإحكام، مقارناً في النتيجة بين الحقائق البديهية والأوهام المصطنعة، ليصل إلى يقين ثابت بوجود الخالق المبدع، الذي أوجد الكون على هذه الصورة الرائعة.

هناك ملاحظة أبداها أحد المستشرقين الفرنسيين وهي أن العقل لم يرد بصيغة اسمية في القرآن الكريم، وأراد أن يرتب على ذلك نتائج سلبية، مما دفعنا إلى كتابة هذه الرسالة لاقناع المستشرقين ممن يتجهون هذا الاتجاه، بأن القضايا العقلية لا تتعلق بالصيغة الاسمية قدر تعلقها بعمل العقل ودوره «الفعلي».

فإذا كان العقل قد ورد في القرآن الكريم بالصيغة الفعلية فإنه جاء بصيغة اسمية في المترادفات التي استخدمها القرآن وهي تعني العقل . وما هو أدق تعبيراً من العقل كاللب ، والحجر ، والنهى .

وجاء لفظ القلب أكثر شمولاً واتساعاً وعبر عن معنى العقل وأضاف إليه أبعاداً أخرى تتصل بالوجدان ، والعاطفة والحدس .

وقد ناقش الفلاسفة والعلماء المسلمون هذه الألفاظ ، ولكنهم قدموها في إطار « فضل العقل » ومزاياه ، لا في إطار الجوانب التي ناقشها وتعرض لها ، ولا في إطار التحليل اللغوي أو الفلسفي لأصل الكلمة ومعانيها المتعددة ومترادفاتها ، وما تؤديه كل لفظة من دور أو تعبر عنه من مفهوم ، وقالوا بأن القلب هو العقل واكتفوا بذلك ، دون أن يقارنوا بين اللفظين مقارنة موضوعية تجعلنا ندرك أهمية كل منهما .

ولذا أخذنا على عاتقنا في هذا البحث عرض جميع الآيات التي وردت فيها صيغة الفعل « عَقَلَ » ومشتقاتها والمجالات الفكرية التي تناولتها ، كما عرضنا للمترادفات التي وردت في القرآن ، وربطنا بينها وبين « العقل » وقمنا بالمقارنة بين هذه المترادفات لتبين قيمة كل منها في المعنى والدرجة ، والفوارق الدقيقة التي تحيط بكل لفظ على حدة ، وهذا كشفنا أن كل لفظ يعطي للعقل بعداً جديداً غير البعد الذي يعطيه له لفظ آخر ، وأظهرنا أهمية التعبير القرآني باللفظ الوارد دون غيره .

لقد ناقش الغزالي مثلاً كما ناقش قبله المحاسبي أهمية العقل ودوره ، ولكن الملاحظ أن وجهة النظر الصوفية كانت تطفئ على أسلوب كليهما ، وكان القصد دائماً هو الرد على علماء الكلام كالمعتزلة وغيرهم أو الرد على الفلاسفة ، وإذا كان الجهد الذي بذل جهداً علمياً كبيراً لا يمكن التقليل من

شأنه أو الاستهانة به، لما كان عليه أولئك العلماء الكبار من معرفة واسعة، وصدق نية، وإخلاص للدين، فإن الظن - من الناحية المنهجية - أن أحداً منهم لم يتناول آيات القرآن التي وردت في هذا المجال آية آية، ولم يحاول تحليلها تحليلاً موضوعياً يستند إلى كل نص من النصوص، ومحتواه الفكري، مع تبويب ذلك على أساس الألفاظ المترادفة، كل لفظ مستقل عن الآخر، بل كان الاستشهاد يأتي حسب الاتفاق، واعتماداً على الحجة التي يوردها الباحث.

وقد ظهرت أبحاث جديدة قيمة، تناولت حياة المحاسبي أو كانت ترجمة لأعماله وأفكاره ومواقفه. وقد ناقشت آراءه في العقل، وألقت ضوءاً على فلسفته العميقة في فهمه وإدراك أبعاده، ولكنها لم تخرج عن نطاق فكره ومذهبه.

لقد حاولنا الاستفادة من هذه البحوث المتقدمة جميعها، ولا بد لنا أن نذكر بالتقدير كل فكرة سبقنا إليها من قبل هؤلاء العلماء الأفاضل الذين تناولوا هذا الموضوع، لأنها أنارت الطريق أمامنا، ويسرت لنا السبيل.

ولكن تقريراً منا للواقع، لقد حاولنا أن نتجنب التأثير بأية فكرة مسبقة، وأن نبتعد كل البعد عن السير على نهج غيرنا، لعلنا نخرج بأسلوب جديد وثوب جديد، فيه من القديم معانيه وأغراضه، وفيه من الحديث ما نهدف إليه من تقديم العقل والقلب في صورة عصرية تخضع للمنهج العلمي الحديث أكثر مما تخضع لأقوال السابقين.

ولا ندعي أننا أصبنا الغاية، وبلغنا النهاية، فقد يكون العمل السابق قد حقق ما لم نحققه في ميدانه، ولكننا حاولنا جهدنا أن نأتي بهذا الجديد الذي نظن، ونرجو أن يكون قد تم لنا ذلك، حسب الامكانيات التي

وجدت بين أيدينا .

إن الإحاطة بمثل هذا الموضوع الواسع أمر عسير، وخاصة بالنسبة للحديث النبوي، ولكن المحاولة ألت بأكثر ما يمكن لباحث أن يلم به مع هنات لا بد منها، سببها القصور عن الإلمام الكامل بعظمة القرآن، وعدم التمكن من الإحاطة بكل ما فيه إحاطة دقيقة وشاملة، وكذلك تشعب السنّة، والتردد في الأخذ بالضعيف منها، خشية الوقوع فيما وقع فيه كبار العلماء من أمثال الغزالي رحمه الله عندما أخذ بالحديث الضعيف وكان ذلك حجة عليه وليس حجة له .

وبعد، هل نستطيع القول: إننا جئنا بشيء جديد؟ وأين هو الجديد في هذا البحث أو غيره؟ إن المناطقة عندما يقدمون لنا المقدمات للخروج بنتيجة جديدة، إنما يستخرجون قديماً من قديم لأن النتائج موجودة في المقدمات أصلاً^(١)، ولكن الجديد الذي خرجنا به هو العرض والتحليل والمقارنة ومناقشة الأحاديث وأقوال العلماء، ثم وضع العقل في مكانه ووضع القلب في مكانه دون الخلط بينهما خطأ كاملاً كما فعل السابقون .

أردنا بذلك أن نقدم العقل وأن نقدم القلب في القرآن والسنّة بطريقة يقتنع بها القارئ، فعرضنا وجهة النظر القرآنية ببساطة ودون تعقيد أو إضافة زيادات، أو محاولة اللجوء إلى التزيين والتزويق، فالعرض العلمي البسيط هو أقرب طريق إلى عقول الناس، وسمة الإسلام البساطة، لأنه دين الفطرة، وسمة البحث القرآني البساطة لأنه يخاطب الناس عامة، ونحن لن نحاول فوق ذلك شيئاً .

(١) إرجع إلى المنقذ من الضلال، مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود .

لقد عشنا مع آيات القرآن الكريم ، والسنة النبوية كما لم نعش معها من قبل ، وهذه فضيلة البحث العلمي ، وتمكنا من أن نجوب آفاق بحوث كثيرة ، استمتعنا بها ، وشاركنا أصحابها أفكارهم وأحاسيسهم ، وخرجنا بنتائج تبدو لنا أنها جديدة ، إذ برز العقل أمامها في صور تختلف عن الصورة التي كنا نعرفها عنه من قبل . ولقد كنت طالباً شغوفاً بالمعرفة ، أكثر مما كنت باحثاً يريد أن يظهر سعة معرفته وكثرة إطلاعه .

كل هذا جديد بالنسبة لنا ، أما بالنسبة للعلماء الأفاضل الذين يقرأون هذا البحث ، فأعتقد أنهم سيضيفون إليه الكثير من آرائهم القيمة ، لأنه خطوة على الطريق وليس نهاية له ، وقد يستدركون أموراً فاتتنا أثناء البحث ، وجلّ من لا يخطئ ولا ينسى .

وهذا جهد متواضع أردنا به خدمة الحقيقة العلمية ، وتقديم جانب إسلامي هام بموضوعية وتجرد ، لعلنا نخدم عقيدتنا من ناحية ، ولعلنا نعرف بهذا الدين من لا يعرف عنه إلا القليل من ناحية أخرى .

لقد قسمنا الموضوع إلى عدة أقسام :

- ١ - المقدمة
- ٢ - الفصل الأول : العقل والقلب في الشعر واللغة
- ٣ - الفصل الثاني : العقل في القرآن
- ٤ - الفصل الثالث : العقل في السنة
- ٥ - الفصل الرابع : القلب في القرآن
- ٦ - الفصل الخامس : القلب في السنة
- ٧ - الخاتمة .

ولقد أفردنا أبواباً خاصة لأقوال العلماء وآرائهم عقب مبحث العقل

وعقب مبحث القلب، سواء كان هؤلاء العلماء من المفسرين أو المتصوفة أو علماء الكلام، وكان ذلك باختصار حاولنا ألا يكون مخللاً بالمعنى، خشية الإطالة من غير مبرر للإطالة.

ونرجو الله أن نكون قد وفقنا لما قصدنا إليه، وقدمنا للمكتبة الإسلامية بحثاً جديداً يستحق أن يضاف إلى البحوث الإسلامية السابقة. والله من وراء القصد، والله يهدي إلى سواء السبيل.

بيروت في ١ تموز ١٩٧٦ م.

محمد علي الجوزو

الباب الأول

العقل والقلب في الشعر واللغة

نبدأ بهذا الفصل في تعريف معنى العقل والقلب من الناحية اللغوية من خلال الشعر الجاهلي والإسلامي ومعاجم اللغة العربية، وذلك أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا يمثل الفترة السابقة لنزول القرآن الكريم وهو بالتالي يمثل الخلفية اللغوية لتلك الفترة الزمنية. وأما الشعر الإسلامي فهو الذي يمثل تلك المدرسة الأدبية التي رافقت نزول القرآن وتأثرت به وأكثر أصحابها من المخضرمين الذين جمعوا بين عصري الجاهلية والإسلام.

واكتفينا من الشعر الجاهلي بالمعلقات وديوان الأعشى لأن المعلقة هي أشهر ما روي من الشعر الجاهلي كما أن ديوان الأعشى هو أكبر دواوين الجاهلية ويكاد يحتوي ربع الشعر الجاهلي على وجه التقريب^(١).

ومن شعر صدر الإسلام أخذنا ما ورد في كتاب شعر الدعوة الإسلامية لعبد الله بن حامد الحامد وهو رسالة جامعية جمع فيها كل ما نسب إلى صحابة الرسول ﷺ من شعر في المصادر والمراجع العربية. مع العلم أن

(١) يضم ديوان الأعشى ٢٣٢١ بيتاً وتضم كل دواوين الجاهلية التي بين أيدينا حوالي العشرة آلاف.

أخذنا بهذا الشعر هو من قبيل التقصي العلمي لمرحلة من مراحل التاريخ الأدبي لا يمكن تجاهلها ونحن نبحت في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف على أننا مع ذلك لن نقيّد أنفسنا بما سوف نصل إليه من نتائج توحى بها أبيات هذا الشعر، بل سنخضعها للبحث والتمحيص ونقارنها بما ورد في القرآن والسنة فإذا التقت المعاني أو تكاملت فإن ذلك يضيء أمامنا الطريق ويساعدنا على كشف الجوانب اللغوية والفلسفية التي نحن بصدددها. وإذا صادفنا ما يناقض استنتاجاتنا في القرآن والسنة تركنا هذه الاستنتاجات وأهملناها وذلك لا يخل بالبحث.

وأما استخدامنا للمعاجم رغم تأخرها عن القرآن والسنة فسببه أن هذه المعاجم اعتمدت في شروحاتها على الشعر الجاهلي والآيات والأحاديث النبوية لتكون في خدمة التفسير القرآني خاصة وأن بعض واضعي هذه المعاجم على صلة بالتفسير وأهله.

الفصل الأول

العقل

عندما نتناول لفظ « العقل » في شعر الجاهلية نجد أنه استخدم بمعنى « الدية » كما في قول النابغة الذبياني:

لما رأى واشقَّ إقصاصَ صاحبه

ولا سبيل إلى عقلٍ ولا قودٍ^(١)

واستخدم أيضاً بمعنى « التقييد والربط » كما في قول زهير بن أبي سلمى:

فكلاً أراهم أصبحوا يعقلونهم علالة ألف بعد ألف مصنم

تساق إلى قوم لقوم غرامة صحاحات مالٍ طالعات بمجزم^(٢)

وورد بمعنى « القوة العاقلة » وقد فارقت صاحبها بسبب العشق، كما في قول الأعشى ميمون بن قيس:

(١) معلقة النابغة الذبياني، المعلقة العشر للشنقيطي ص ١٦٣.

(٢) معلقة زهير بن أبي سلمى، المرجع السابق ص ٩٣.

تصابيتَ أم بانَت بعقلك زينبُ

وقد جعلَ الودُّ الذي كان يذهبُ^(١)

وورد أيضاً بهذا المعنى وقد أصابته الدهشة والحيرة أمام جمال المرأة ودلالها، كما في قول الأعشى:

تهالكُ حتَّى تُبطِرَ المرءَ عقلَهُ

وتصبي الحليمَ ذا الحجى بالتقتُّل^(٢)

ويأتي بلفظه ومعناه المتداولين في كل عصر، كما في قول كعب بن زهير:

فلا تَهْجُ إن كنتَ ذا إرْبَةٍ حرباً أخى التجربة العاقل

فإن ذا العقل إذا هَجَتْهُ هَجَتْ به ذا خَبَلٍ خابِل^(٣)

وسوف نرى كيف أن هذه المعاني تلتقي في النهاية لتعبر عن معنى العقل أو تشكل صفة من صفاته أو دوراً من أدواره سلباً أو إيجاباً.

أما في الشعر الإسلامي فإن لفظ «العقل» يرد بمعنى المرجع الذي يعود إليه الإنسان عند تقرير الأمور، أو بمعنى الميزة التي تميّز الكائن المدرك عن سواه مما لا يعقل ولا يعي كالأصنام

قال خزاعي بن عبد نُهمٍ وكان سادناً للصنم نُهم ثم كسره وأسلم:

ذهبت إلى «نُهم» لأذبح عنده

عَتيرة نُسك كالذي كنت أفعلُ

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص ٢٥١ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ .

(٣) كتاب الحيوان ١ / ١٥ . ورسالة في الحلم شارل بلا ص ٥٧ .

فقلت لنفسي حين راجعت عقلها

أهذا إله؟ أبكم ليس يعقل^(١)

وورد أيضاً بمعنى القوة العاقلة التي تدفع الإنسان إلى الحذر والتنبه
وتبعده عن فعل الشر،

قال عمار بن ياسر:

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهل
عشية همّاً في بلال بسوءة ولم يحذرا ما يحذر المرء ذو العقل^(٢)

وفي وصفه لكمال الرجل مقابل النقص في الرأي؛ وذلك في قول حمزة بن
عبد المطلب:

ألا يا لقومي للتحلم والجهل وللنقص من رأي الرجال وللعقل^(٣)
ونسب إليه الضلال، والبعد عن الحق، وذلك في قول حسان بن ثابت:
تَرَحَّلَ عن قوم فضَّلْتُ عقولهم وحلَّ على قوم بنور مجدِّ^(٤)
وقال أيضاً:

أقول ولا يُلْفَى لقولي عائبٌ من الناس إلا عازبُ العقل مُبْعِد^(٥)

(١) شعر الدعوة الإسلامية لحامد ص ٣٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٧٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٥٨ .

(٥) نفس المرجع ص ٤٢١ .

وهذا الشعر الذي يسند إلى صحابة رسول الله ﷺ فيه الصحيح الثابت، وفيه الذي نعتمد فيه على صدق الباحث الذي كتب رسالة « شعر الدعوة الإسلامية » ولا نستطيع أن نجزم بأن ما ورد عنه صحيح كله، وما لا يدرك كله لا يترك جله.

فإذا عدنا إلى العلماء الذين كتبوا في العقل نجدهم يعرفون العقل لغوياً، فيقول الحارث بن أسد المحاسبي على سبيل المثال: « والعرب انما سمت الفهم عقلاً لأن ما فهمته فقد قيّدته وضبطته بعقلك كما البصير قد عُقل (أي) أنك قيدت ساقه إلى فخذه وقالوا: اعتقل لسان فلان، أي استمسك

ويقال: اعقل شاتك إذا حبستها. وهو أن يضع (رجله) بين (نوفها) وفخذه. ويقال اعتقل رجل فلان إذا (صارعه) ^(١) ».

وقال الحكيم الترمذي: « وقد قيل إن العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى كما يمنع العقال الدابة من مرتعها ومرعاها. والعقل اسم (غير) متبدل، وهو اسم عام، ولا يستعمل تصريف هذه الأسماء إلا منه، يقال عقل يعقل عقلاً فهو عاقل وذلك معقول عنه ^(٢) ».

أما في المعاجم، فقد ورد في « لسان العرب »: « العقلُ: الحجر والنهى، ضد الحمق... عَقَلَ يَعْقِلُ عقلاً ومعقولاً، وهو مصدر سماعي وقال سيبويه: هو صفة... »

(١) الحارث بن أسد المحاسبي كتاب العقل وفهم القرآن تحقيق حسين قوتلي، بيروت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) الحكيم الترمذي، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ص ٧٦.

قال ابن الانباري: رجل عاقل وهو الجامع أمره ورأيه، مأخوذ من عقلتُ البعير إذا جمعت قوائمه.

وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حُبسَ ومنع الكلام.

والمعقول: ما تعقله بقلبك، والمعقول: العقل، يقال: ما له معقول أي عقل، وهو أحد المصادر التي جاءت على مفعول كالميسور والمعسور.

وعاقله فعقله يعقله، بالضم: كان أعقل منه.

والعقل: التثبت في الأمور.

والعقل: القلب،

وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أو يحبسه.

وقيل: العقل: هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، ويقال: لفلان قلب عقول، ولسان مسؤول، وقلب عقول: فهم.

وعقل الشيء يعقله عقلاً: فهمه.

وعقيلة القوم: سيدهم. وعقيلة كل شيء: أكرمه، قال ابن بري: العقيلة: الدرة في صدفتها، وقال الأزهري: العقيلة الكريمة من النساء والإبل وغيرهما^(١).

وجاء في «القاموس المحيط»:

العقل: العلم أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، أو

(١) معجم لسان العرب لابن منظور ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

العلم بخير الخيرين وشر الشرّين أو مطلق لأُمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ولمعان مجتمعة في الذهن يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح لهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه .

والحق أنه نور روحانيّ به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ ج عقول .

وعقل القتل وداهُ وعنه أدّى جنايته .

والظبي عقلاً وعقولا صعد .

والعقل : الدية والحصن والملجأ والقلب .

والعقال : زكاةُ عام من الإبل والغنم ومنه قول أبي بكر رضي الله عنه : لو منعوني عقلاً^(١) »

كذلك أورد « مختار الصحاح » نفس المعاني التي أوردها « لسان العرب » وعرف العقل بأنه الحجر والنهى^(٢) . الخ ..

وفي « المنجد » وهو معجم عصري وجدنا بعض المصطلحات الحديثة :

« عقل الغلام : أدرك .

عقل فلان بعد الصبا : عرف الخطأ الذي كان عليه

(١) قاموس المحيط للفيروز بادي ص ١٨ ج ٤ .

(٢) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ص ٤٤٦ دار الكتاب العربي لبنان .

عَقَلَ الوعل: صعد وامتنع في الجبل العالي .

اعتقل لسانه: حبس عن الكلام

العقل: مصدر: نور روحاني به تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس .

العقلي: نسبة إلى العقل: ما لا يكون للحس الباطن فيه مدخل .

العاقل: المدرك ، الفاهم ، الحكيم .

المعقول: مصدر ما يُعقل: العقل ، يقولون: « ما له حول ولا معقول » أي

عقل ج معقولات . وعلم المعقولات: علم يبحث فيه عما اختص العقل بادراكه من المدركات^(١) .

أما الألفاظ المرادفة للفظ العقل فهي بالإضافة إلى حِجر ونهى ، اللب والحلم والحجر .

اللب

اللب: وقد وردت هذه اللفظة في الشعر الجاهلي في المعلقة بمعنى العقل الذي يرافق صاحبه في جميع أموره فيكون حازماً صارماً عندما تواجهه الأمور الجسام ، يقول عنتره بن شداد:

ذُلُّ رَكابي حيث شئتُ مشاعي
لُبِّي وأحفزه بأمر ————— برم^(٢)

(١) معجم « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوعي ظهر ١٩٠٨ ، المطبعة الكاثوليكية في بيروت .

(٢) المعلقة العشر ص ١٣٣ .

ووردت بصيغة «التليب» أي محاولة منح المحروم من العقل صفة العاقل، وحمله على مثل عمله من غير طبع ولا غريزة، يقول عبید بن الأبرص:

لا يعظ الناس من لا يعظُ الدهرُ ولا ينفع التليب^(١)

وقد وردت لفظة «اللب» بمعنى القلب، وذلك في قول الأعشى بن ميمون:

أرى سفهاً بالمرء تعليقاً لُبّه بغانيةٍ خودٍ متى تدنُ تبعد^(٢)

ثم إنها وردت كثيراً بمعنى العقل، ومنها قول قيس بن عاصم:

فوالله لا أحسود الدهر خمرَةً ولا شربة تزري بذي اللب والفخر^(٣)

أما في الشعر الإسلامي الذي روي عن صحابة رسول الله ﷺ فقد ورد اللب بمعنى العقل، والجمع أولو الألباب أو ذوو الألباب، بمعنى أصحاب العقول الراجحة الذكية.

قال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

إذا تليت رسائله علينا تهدر دمعُ ذي اللب الحصيف^(٤)

(١) نفس المرجع ص ١٧٤ .

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٣٩ .

(٣) رسالة في الحلم، شارل بلا ص ٩٢ .

(٤) شعر الدعوة لحامد ص ٥٧ .

وقال كعب بن مالك:

حِكْمًا يراها المجرمون بزعمهم حَرَجًا ويفهمها أولو الألباب^(١)

وقال أيضاً:

أبلغ قریشاً وخير القول أصدقُهُ

والصدق عند ذوي الألباب مقبول^(٢)

وجاء في «القاموس المحيط»:

«اللب بالضم: خالص كل شيء، ومن النخل والجوز ونحوها: قلبها، والعقل ج ألباب وألب وألبب.... ورجل لبٌ ولبيب؛ لازم للأمر، ومحبوب: موصوف بالعقل، واللبيب: العاقل».

وهذا يؤيد ما ذكره الحكيم الترمذي حيث يقول: «وأما عند عامة أهل الأدب ومن لهم معرفة بشيء من اللغة فإن اللب هو العقل، ولكن بينهما فرق كما بين نور الشمس ونور السراج، فكلاهما نور... والعقل يعبر به عن العلم على وجه المجاز في سعة اللغة، ولكن «أولو الألباب» هم العلماء بالله»^(٣).

الحلم

وأما الحلم فقد شاع في الشعر الجاهلي، واستخدم في مجال الفخر والمديح،

(١) نفس المرجع ص ٥٩.

(٢) شعر الدعوة ص ٢٨٥.

(٣) بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، للحكيم الترمذي ص ٧٣ -

باعتباره صفة يتميز بها العقلاء والحكماء من الناس، الذين لا تخضع أفعالهم
للأهواء، ولا تميل عقولهم مع الرغبات،

قال لبيد بن ربيعة:

لا يطبعون ولا يبورُ فعألهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها^(١)
وقال الشنقيطي في شرح معنى لا يطبعون هنا أي يطمعون كذلك ورد
الحلم في مقابل السفه فدل على أنه نقيض الجهل والطيش.

قال زهير بن أبي سلمى:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم^(٢)
وهذا امرؤ القيس يقول:

إلى مثلها يرنو الحليم صباةً إذا ما اسبكرت بين درع ومجول^(٣)
والحليم هنا، هو العاقل الراجع العقل، والبيت يصف فيه افتتانه
بفرسه التي تتبختر في الميدان.
أما كعب بن زهير فيقول:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والحنأ أصبتَ حليماً أو أصابك جاهل^(٤)

(١) المعلقات، ص ١٠٥ .

(٢) المعلقات ص ٩٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٦٩ .

(٤) المستطرف ١٠ / ٢٦٢ انظر رسالة في الحلم .

وقد وردت هذه اللفظة بصيغة الجمع « حُلُوم » و« أحلام » وإلى جانبها صفات مكملة لها تدل على الوثوق والثبات والرجحان والتأني في الأمور، والصمت الوقور.

قال الأعشى بن ميمون:

وابيُّون ما يسامون ضيًّا ومكيثونَ والحلُومُ وثاقُ^(١)
وقال أيضاً:

رُجِحُ الأحلام في مجلسهم كلما كلبٌ من الناس نبَحُ^(٢)
وقال في مكان آخر:

إذا ما هم جلسوا بالعشي فأحلام عاد وأيدي هُضمُ^(٣)
وقال:

أخذوا مجالسهم على أحلامهم صُمتَ العشيِّ مُجانبي الإفناد^(٤)
وقد وردت هذه اللفظة وإلى جانبها صفات تدل على الصبوة والتأفن والجهل، فدلَّ ذلك على أن المقصود بالأحلام هو العقول.

قال الأعشى بن ميمون:

(١) ديوان الأعشى ص ٢٦٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٩١ .

(٤) نفس المرجع ص ١٨٣ .

وكم دون بيتك من معشر صُباةِ الحلوم عُدَاةُ غُشم^(١)
وقال أيضاً:

فعاش بذلك ما ضرّه صباةُ الحلوم وأقوالها^(٢)
وله أيضاً:

يا بني المنذر بن عبدان والبط نةُ يوماً قد تأفِنُ الأحلاما^(٣)
وهذا مصداق الحديث «البطنة تذهب الفطنة»

أما معن بن أوس المزني وهو من الشعراء المخضرمين الذين شهدوا
عصري الجاهلية وضر الإسلام فإنه يقول:

وذي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ
بجلمي عنه وهو ليس له حِلْمٌ
إذا سمته وصل القرابة سامني
قطيعتها، تلك السفاهة والظلم
إلى أن يقول:

فما زلت في لينٍ له وتعطفٍ
عليه كما تحنو على الولد الأمُّ

(١) ديوان الأعشى ص ٨٧.

(٢) نفس المرجع ص ٢١٩.

(٣) نفس المرجع ص ٢٩٧.

لأستل منه الضغن حتى سللته

وإن كان ذا ضغن يضيق به الحلم^(١)

فإذا ما انتقلنا إلى الشعر الإسلامي وجدنا «الحلم» من الصفات الحميدة، فالصمت في المجالس من غير عيٍّ أو بلادة مظهر من مظاهره الكريمة، التي تدل على الحكمة والتعقل، وهو زين لأهله، وهو ضد السفه والجهل والطيش.

قال شاعر يرثي رجلاً:

لقد وارى المقابر من شريكٍ كثير تحلمٍ وقليل عاب
صموتاً في المجالس غير عيٍّ جديراً حين ينطق بالصواب^(٢)

وقال علي بن هشام:

لعمرك إن الحلم زين لأهله وما الحلم إلا عادةٌ وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى من بلادة وعي فإن الصمت أهدى وأسلم^(٣)

وقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

ألا يا لقومي للتحلم والجهل وللنقص من رأي الرجال وللعقل^(٤)

وقالت عاتكة بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

(١) الأغاني للأصفهاني ١٢ : ٥٠ - ٥٩ . انظر رسالة في الحلم ص ٦١ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٢ / ١٩٠ .

(٣) رسالة في الحلم ص ٥٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٣٢ .

على الطاهر الميمون ذي الحلم والندی

وذي الفضل والداعي لخبر التراحم^(١)

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً عشيّة علَّوه الثرى لا يُوسد^(٢)

وقال رجل من ليث:

وما ذنبنا في عامرٍ لا أباً لهم لأن سفهت أحلامهم ثم ضلت^(٣)

وقال كعب بن مالك في مدح الرسول ﷺ:

رئيسهم النبي وكان صلباً نقي القلب مصطبراً عزوفا
رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم، لم يكن نزقاً خفيفاً^(٤)

وقال في مكان آخر:

فضلوا المعاصر عزة وتكرماً وتغمدت أحلامهم من يجهل^(٥)

وجاء في «لسان العرب» لابن منظور: «الحلم بالكسر: الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم، وفي التنزيل العزيز ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. ثم قال: «وفي حديث النبي ﷺ في صلاة الجماعة: ليليني

(١) نفس المرجع ص ٣٩٣.

(٢) نفس المرجع ص ٤١٧.

(٣) نفس المرجع ص ٣٧.

(٤) شعر الدعوة ص ٢٠.

(٥) نفس المرجع ٤٦٦.

منكم أولو الأحلام والنهى، أي ذوو الأبواب والعقول، واحدهم حلم (بالكسر)، وكأنه من الحلم: الأناة والتثبت في الأمور، وذلك من شعار العقلاء». «والحليم في صفة الله عز وجل معناه: الصبور، وقال: معناه أنه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزّه الغضب عليهم ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منته إليه، وقوله تعالى^(١): ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. قال الأزهري: جاء في التفسير أنه كناية عن أنهم قالوا: «إِنَّكَ لَأَنْتَ السَّفِيهِ الْجَاهِلُ». وقيل إنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قال ابن عَرَفَة: هذا من أشد سباب العرب أن يقول الرجل لصاحبه إذا استجهله: «يا حليم!» أي أنت عند نفسك حليم وعند الناس سفيه».

أما في «القاموس المحيط» فقد ورد أن «الحلم بالكسر: الأناة والعقل، جمعه أحلام وحلوم، ومنه ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ وهو حليم جمعه حلماء وأحلام، وقد حلم بالضم حليماً، وتحلّم تكلفه... وحلّمه تحليماً وحلاماً ككذاب جعله حليماً أو أمره بالحلم، وأحلمت: ولدت الحلماء، وذو الحلم عامر بن الظرب».

وجاء في «الباستان»: «الحليم نقيض السفه، والعقل والأناة والتثبت في الأمور وضبط النفس والطبع عن هيجان، جمعه أحلام وحلوم، وليس الحلم في الحقيقة العقل لكن فسّروه بذلك لكونه من مسببات العقل، ومن الأمثال: إن العصا قرعت لذي الحلم، وهو يُضرب لمن نُبّه فانتبه»، أما «أقرب الموارد» فقد ورد فيه أن الحلم: الأناة وضدها الطيش، والعقل^(٢).

(١) سورة هود ١١ / ٨٧.

(٢) أنظر «رسالة في الحلم» شارل بلا ص ١٤ - ١٥.

هذا، وقد كتب المستشرق الفرنسي شارل بلا وهو رئيس قسم المعهد الإسلامي في جامعة السوربون كتاباً عنوانه «رسالة في الحلم» جمع فيه بعض أقوال العرب قديماً وحديثاً وما جاء في القرآن والسنة حول الحلم، وعدد ميزاته وصفاته والخصال التي تتصل به من قريب أو بعيد، وقد جاء في خاتمة كتابه: «أما النتيجة الثانية فهي أن اشتراك كلمة الحلم يثير مشكلات عويصة الحل معضلة تنجم أولاً عن ازدواج معناها إذ وجدنا لها معنيين يختلفان وإن تقارب بعض أوجهها، أحدها: «العقل» فيقال: «ذوو الأحلام» أو «ذوو الحلوم». كما يقال: «ذوو العقول» أو «ذوو الألباب». فلا ترد هذه اللفظة بهذا المعنى إلا في صيغة الجمع في القرآن والحديث والأمثال والأشعار، مع أنني أظن أن عامر بن الظرب لُقّب بذِي الحلم لكونه ذا عقل وذكاء.

ثم يقترب الحلم إلى الرُّشد فيعني (Maturité d'esprit) ولما كان الرشد موصولاً بالاحتلام أو الحُلُم تساءلنا عن قرابة الحِلْم (بالكسر) والحلم (بالضم) وإنما اعترفنا بعجزنا عن حلّ القضية الناتجة من تلاقيهما الظاهر عند هذا الحد.

وإلى جانب ذلك واجهنا مشكلة الجمع بل مشكلتيه: كما أن كلمة «العقل» لا تستعمل إلا في المفرد إذا دلّت على صفة ذهنية معيّنة ويقابلها عندئذ في اللغة الفرنسية (Raison) و (Jugement sain) وما إلى ذلك من المفردات والعبارات، وتستعمل في المفرد أو الجمع إذا دلّت على الذهن (Esprit) فكذلك يظهر لأول وهلة أنه يقال: «أحلام» أو «حلوم» للدلالة على «العقول»، و«حلم» في المفرد فقط للدلالة على «العقل» بالمعنى المذكور أعلاه، ولكننا لم نصادف المفرد بهذا المعنى اللهم إلا في «ذِي الحلم» وربما يكون هذا المثال الوحيد موضع الشك.

ومما يعقّد القضية أن كلمة « حلم » تجمع أيضاً على « أحلام » أو « حلوم »، ولقد أتى حديث نبوي واضح بحجة قاطعة على أن « الأحلام » في « تسفيه الأحلام » هم الحلماء، فلا ريب أن وحدة الجمع يؤدي إلى الاشتباه والخطأ.

وعلى كل حال فإني أميل إلى تصديق صاحب « البستان » حيث قال: إن الحلم ليس « في الحقيقة العقل ولكن فسّروه بذلك لكونه من مسببات العقل »^(١)

ونحن لا يسعنا أن نسير مع الأستاذ بلا في موافقته صاحب البستان على أن الحلم ليس هو العقل بل من مسبباته لأن الشواهد الكثيرة التي أوردناها تدل على أنه العقل ذاته، حيث أضيفت إليه صفات كثيرة تضاف للعقل عادة.

ولا يسعنا وقد أوردنا هذا الكلام من « رسالة في الحلم » إلا أن نورد رواية وردت في الكتاب عن الغزالي حيث يقول: « قال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل - قيل له: ولم ذلك؟ - قال: لأن الله تعالى تسمّى بالحلم ولم يتسمّ بالعقل »^(٢). وهذا التفسير يعتبر أن صفات الله هي أسماؤه الحسنی.

النُّهى:

أما لفظ « النُّهى » فقد ورد في الشعر الجاهلي بمعنى العقول، ونسب العلم إلى ذوي النهى من الناس، قال الأعشى بن ميمون:

(١) « رسالة في الحلم ». شارل بلا، ص ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١.

(٢) نفس المصدر ص ٢٧.

تعالوا فإن العلم عند ذوي النُّهى
من الناس كالبلقاء بادٍ حُجُولُهَا^(١)
وجاء في «مختار الصحاح»: النُّهى: وهي العقول لأنها تنهى عن القبيح
و(النُّهْيَةُ) بالضم واحدة النُّهى.
وقد رأينا كيف أوردت المعاجم الأخرى تفسير لفظ العقل بالنُّهى، فدل
ذلك على أنهما من المترادفات.

الحِجر:

الحِجر: العقل. قال الله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾^(٢). ورد
هذا التفسير في مختار الصحاح، كما ورد في القاموس المحيط وذكر أن حجر
بالكسر العقل، وما حواه الحطيم المدار بالكعبة شرفها الله تعالى من جانب
الشَّمال، وقال: (الحَجْرُ) مثلثة المنع كالحِجْران بالضم والكسر.

الحِجى:

وردت لفظة الحِجى في الشعر الجاهلي بمعنى العقل، ونسبت إلى الحليم
لتعبر عن العقل المتَّصف بالاتزان والنضج، بقول الأعشى بن ميمون:
تهالك حتى تبطر المرء عقله وتصبي الحليم ذا الحِجى بالتَّقَلُّ^(٣)

(١) ديوان الأعشى ص ٢٢٥

(٢) سورة الفجر آية ٥.

(٣) ديوان الأعشى ص ٤٠٣.

وجاء في القاموس المحيط للفيروزبادي أن (الحِجَا) كَالَى العقل والفتنة والمقدار جمعه أحجاء، وكذلك ورد في مختار الصحاح أن الحِجَا: العقل.



هذه هي الألفاظ التي وردت بمعنى العقل، وهذه الألفاظ استخدمت في العصر الجاهلي كما استخدمت في العصر الإسلامي، ولا شك أن القرآن الكريم أضفى على هذه الألفاظ ثوباً جديداً، وأعطاه أبعاداً جديدة، لأن المجال الفكري كان قد تغير تغيراً كاملاً، لذلك نجد أن المعاني تتطور تاريخياً فتنتقل من البساطة اللغوية إلى المنهج العلمي القائم على القواعد الفلسفية والمنطقية، لذلك رأينا المعاجم اللغوية تتأثر بالمدارس الدينية والفلسفية المختلفة، وتقدم لنا التعريفات الكثيرة التي تعبر عن وجهات النظر هذه، فكانت حصيلة ذلك تلك الثروة من المعاني الفنية المتعددة الوجوه، والتي كانت وليدة العوامل الثقافية للعصور التي كتبت فيها. ففي حين نجد في الشعر الجاهلي وعند المحاسبي أن الأصل في كلمة عقل التقييد والربط والذهن وإمساك الشيء أو حبسه والدية، وهي تعقل الإنسان عن الشر لقريبه وكأنه رجح جانب العقل على القود أي الشر، إذا صح التعبير، ثم نرى ابن الأنباري وقد تأثر بالإسلام إذ يستنتج من هذه المعاني أن العقل هو جمع الأمر والرأي، ونرى في «اللسان» أنه قد سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه، وهو يوافق الترمذي في ذلك التفسير إذ يقول الترمذي: إن العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى، ولكن «اللسان» لا يلبث أن يظهر متأثراً بالأفكار الفلسفية عندما يقول: إن العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان.

وتظهر النزعة الفلسفية بشكل أقوى عند صاحب القاموس مع أنه معجم

أسبق من اللسان إذ يأتي بتعريفات يغلب عليها طابع الفلسفة إذ يقول: «إن العقل هو العلم أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكما لها ونقصانها أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين أو مطلق لأمر أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ولعان مجتمعة في الذهن يكون بمقدمات يستتب بها الأغراض والمصالح وهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه». وهكذا تداخلت الروح الدينية الإسلامية مع الأسلوب الفلسفي في هذه التعاريف لتؤكد مدى التفاعل مع التطور الثقافي في تلك العصور، غير أن صاحب القاموس يعود فينهج نهجاً صوفياً غزالياً فيقول: «والحق أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية». وهو بهذا يوافق المحاسبي الذي يجعل العقل نوراً في القلب كما البصر نور في العين^(١)، وقد تابع القاموس «المنجد» في هذا المذهب غير أنه جرى مجرى الفلسفة المثالية إلى حد ما فجعل العقل نوراً ولكي تدرك به النفس ما لا تدركه بالحواس.

هذا إلى جانب تفسيرات للعقل كثيرة منها أنه المرجع في تقرير الأمور، وأنه الحصن والملجأ والعقل، والفهم والحكمة، وبه تتبين الأشياء، وبه يبتعد الإنسان عن الحمق والضلال والشرود.

أما مرادفاته من الألفاظ الأخرى كاللب والحلم والنهي والحجر والحجى، فقد رأينا اللب يأتي بمعنى العقل الحازم، والعقل الحصيف، ووردت بصيغة الجمع «أولو الألباب» وكأنهم على ما يبدو أصحاب العقول الكبيرة، وفسرها الحكيم الترمذي على أنها العلماء بالله. ووردت بمعنيين العقل والقلب في آن واحد، لأن اللب هو خالص كل شيء في اللغة.

(١) المحاسبي «العقل وفهم القرآن» ص ٢٠٤ - ٢٠٥ تحقيق القوتلي

غير أن الحلم يأتي كميزة متفوقة، ميزة خلقية عليا، تدل على الحكمة والتسامح وسعة الصدر، فهي عقل ضابط للنفس وأهوائها وثوراتها في حال الغضب، يُبعد الإنسان عن النزق والطيش والجهل، وقد جاءت وكأنها صفة عربية يتحلى بها شيوخ القبائل وعُقَّالها، وكانت كذلك في الإسلام من صفات الله وصفات المؤمنين، وهذا مصداق حديث رسول الله: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

ثم تأتي بقية الألفاظ المرادفة لتؤكد نفس المعاني للعقل مع فروق بسيطة لا تذكر.

الفصل الثاني

القلب

نستطيع القول إن القلب هو اللفظ الذي كان أكثر أهمية في اللغة العربية من العقل منذ الجاهلية حتى الإسلام ، وها نحن نراه يتردد على ألسنة الشعراء في الجاهلية ليعبر عن مكانة رئيسية في حياة الإنسان ، لأنه موطن الحب والكراهة ، ومكان السر والعلن ، ومحل الفرح والحزن .

يقول امرؤ القيس :

أغرَّك مني أن حبك قاتلي وأنتك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مُقتل^(١)

فالقلب هنا تأمره الحبيبة فيستجيب لأمرها ويتعلق بحبها ، وهو قلب شاعر تصيبه سهام عيونها الجميلة ليقع قتيل غرامها .

وفي هذا المعنى ، معنى تعلق القلب بالحبيبة يقول زهير بن أبي سلمى :

إن الحليط أجدَّ البين فانفرقا وعُلّقَ القلب من أسماء ما علقا^(٢)

(١) المعلقات ص ٦٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٢ . وهذا البيت ليس من المعلقات .

ويقول الأعشى بن ميمون:

أَسْهُوْ لَهْمِيْ وَدَائِيْ فَهِيَ تَسْهَرُنِيْ بَانَتْ بِقَلْبِيْ وَأَمْسَى عِنْدَهَا غَلَقَا^(١)
وفي هذا المعنى أيضاً يقول:

فَتَلَكَ الَّتِي حَرَمْتَكَ الْمَتَاعَ وَأَوْرَدْتَ بِقَلْبِكَ إِلَّا شَقِيصَا^(٢)

فإذا انتقلنا إلى معاني أخرى من المعاني التي تتصل بالقلب، وجدنا أن عبيد بن الأبرص يستخدم تعبير « ما أخفت القلوب » على أنه مكان الأسرار، فيقول:

وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ عَلَامٌ مَا أَخْفَتِ الْقُلُوبُ^(٣)

أما زهير بن أبي سلمى، فيقول:

وَمَنْ يُوْفٍ لَا يَذْمُومَنْ يُهْدَقَلْبُهُ إِلَى مَطْمَئِنِّ الْبَرِّ لَا يَتَجَمِّمُ^(٤)

فدل على أن القلب الذي يتوجه بصاحبه إلى العمل الصالح، والمعاني الخيرة، يطمئن ولا يضطرب.

وفي مكان آخر، نرى القلب يسمع وييصر، فيقول الأعشى بن ميمون:

مَعِيَ مِنْ كَفَانِيْ غَلَاءُ السَّبَا وَسَمَعَ الْقُلُوبَ وَإِبْصَارَهَا^(٥)

(١) ديوان الأعشى ص ٤١٥ .

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٥٥ .

(٣) المعلقات ١٧٤ .

(٤) المعلقات ص ٩٤ .

(٥) ديوان الأعشى ص ٣٦٩ .

والقلب يملؤه الشجن، أو تعلوه غمرة، أو يخاف ويضطرب، يقول
الأعشى بن ميمون:

وعاصبتُ قلبي بعد الصُّبى وأمسى وما إن له من شجن^(١)
ويقول أيضاً:

وما إن على قلبه غمرة وما إن بعظم له من وهن^(٢)
ويقول:

رأيت الكريم ذا الجلالة رانياً وقد طار قلبُ المستخفِّ المُعذَّل^(٣)
ويقول عبید بن الأبرص:

ريش الحمام على أرجائه للقلب من خوفه وجيب^(٤)

أما في الشعر الإسلامي فإن القلب يكتسب معاني جديدة، فهو مكان
الحب، وموطن الطهر والشهادة والإيمان، ومحل الأسرار والإعلان، والنقاء
والزينة، وطاعة الله أو الشقاء، وهو موطن اليقين والذكر، والفرح والحزن.

قال كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيمٌ إثرها لم يفد مكبول^(٥)

(١) نفس المرجع ص ٦٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ .

(٣) ديوان الأعشى ص ٤٠٥ .

(٤) المعلقات ص ١٧٥ .

(٥) سيرة ابن هشام .

وقال مجير بن زهير:

إلى الله! لا العُزَّى ولا اللات وحده
فتخبو إذا كان النجاء وتَسَلَّمُ
لدى يوم لا ينجو وليس بُفِلت
من النار إلا طاهر القلب مسلم^(١)

وقال عبد الله الزبعرى:

آمن اللحم والعظامُ لرَبِّي ثم قلبي الشهيد: أنت النذير^(٢)
ويقول حسان بن ثابت:

يناديه رسول الله لَمَّا
ألم تجدوا حديثي كان حقاً؟
قذفناهم كباكب في القليب:
وأمر الله يأخذ بالقلوب^(٣)
ويقول أيضاً:

عَلِقَ الشقاء بقلبه فأرانه
وقال عبد الله بن رواحة:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع^(٥)

(١) شعر الدعوة الإسلامية ص ٢٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٢ .

(٣) شعر الدعوة الإسلامية ص ٢٣٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٧ .

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٥ .

وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ:

فاليوم آمن بالنبيِّ محمدٍ قلبي . ومخطيء هذه محروم^(١)

وقال عمرو بن الجموح:

واثني عليه بآلائه بإعلان قلبي وإسراره^(٢)

وقال محقبة بن النعمان العتكي الأزدي:

وقلوبنا قرحى وماء عيوننا جارٍ وأعناق البرية خضع^(٣)

وقالت صفية بنت عبد المطلب:

واندبي المصطفى بحزن شديد خالط القلب فهو كالمعمود^(٤).

هذه الأبيات إن صحت نسبتها إلى أصحابها، تعبر عن المعاني الجديدة التي أدخلها الإسلام على القلب، فأعطته أبعاداً مختلفة عن العصر الجاهلي، خاصة بالنسبة لارتباط القلب بالإيمان وما يتصل بالإيمان من معان أخلاقية وروحية وإنسانية.

فإذا رجعنا إلى المعاجم وجدناها تتناول لفظ القلب على الوجه التالي:

جاء في «القاموس المحيط»: القلب: الفؤاد أو أخص منه، والعقل، ومحض كل شيء.

(١) نفس المرجع ص ٩٤.

(٢) نفس المرجع ص ١٣٠.

(٣) نفس المرجع ص ٣٩٩.

(٤) نفس المرجع ص ٤٠٥.

وجاء في «اللسان»: القلب: تحويل الشيء عن وجهه، قَلْبَهُ يَقْلِبُهُ قَلْبًا..

والقلب: مضغَةٌ من الفؤاد معلقة بالنياط.

ابن سيده: القلب: الفؤاد، مذكر، صرح بذلك اللحياني، والجمع، أَلْقَبٌ وقلوبٌ.

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾^(١) قال الزجاج: معناه نزل به جبريل، عليه السلام عليك ووعاه قلبك، وثبت فلا تنساه أبداً.

وقد يعبر بالقلب عن العقل، قال الفراء في قوله تعالى^(٢): ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. أي عقل، قال الفراء: وجائز في العربية أن تقول: ما لك قلبٌ، وما قلبك معك، ما عقلك معك، وأين ذهب قلبك؟ أين ذهب عقلك؟.

وقال غيره: لمن كان له قلبٌ أي تفهم وتدبر.

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوباً وألين أفئدة، فوصف القلوب بالركة والأفئدة باللين، وكأن القلب أخص من الفؤاد في الاستعمال، ولذلك قالوا: أصبتُ حبةً قلبه، وسويداء قلبه.

وقيل: القلوب والأفئدة قريبان في السواء، وكرّر ذكرهما، لاختلاف اللفظين تأكيداً.

وقال بعضهم: سُمي القلب قلباً لتقلبه، وأنشد:

(١) سورة الشعراء آية ١٩٣.

(٢) سورة ق آية ٣٧.

ما سُمِّيَ القلب إلا من تَقَلُّبِهِ والرأي يصرفُ بالإنسان أطوارا
وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «سبحان مقلب القلوب!». وقال تعالى^(١):
﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾.

قال الأزهري: ورأيت بعض العرب يسمي لحمه القلب كلها، شَحْمَهَا
وحجابها: قلباً وفؤاداً، قال: ولم أرهم يفرقون بينهما، قال: ولا أنكر أن
يكون القلب هو العلقة السوداء في جوفه.

وورد في «مختار الصحاح» القلب: الفؤاد. وقد يعبر به عن العقل.
... (وَقُلْبُ) النخلة بفتح القاف وضمها وكسرهما لُبُّها، وفلانٌ حَوْلُ
(قُلْبٍ) بوزن سُكَّرٍ، أي محال بصير بتقليب الأمور.

أما الألفاظ المرادفة للفظ القلب فهي الفؤاد والروع والجنان، وأهم هذه
الألفاظ وأكثرها استعمالاً في اللغة.

الفؤاد

ورد هذا اللفظ في الشعر الجاهلي بمعنى القلب الذي يهوى ويحب، وورد
بمعنى العقل، وهو كالقلب محل الألم والشجن، يتصدع من هجر الحبيب،
وتصيبه سهام العيون فيقع فريسة الحب، وهو يشف ويرق تحت تأثير آلام
الهوى والشوق.

ومن أجل الأبيات التي تبين أهمية دور القلب في حياة الإنسان

(١) سورة الأنعام آية ١١٠.

وسلوكة ، قول زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه

فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم^(١)

أما تلك التي تعبر عن مختلف أحوال الحب فمنها قول امرئ القيس :

تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرِّجَالِ عَنِ الصَّبَا

وليس فؤادي عن هواك مُنْسَلِ^(٢)

أما الأعشى بن ميمون فيقول :

وريعَ الفؤادُ لعرفانها وهاجت على النفس أذكارها^(٣)

ويقول :

فبانت وقد أورثت في الفؤاد د صدعاً يخالط عثارها^(٤)

فإذا انتقلنا إلى صدر الإسلام وجدنا المعاني التي ترتبط بالفؤاد تتغير وتتسع كما تغيرت واتسعت تلك المعاني التي تتصل بالقلب ، فالأبعاد الجديدة ، هي أبعاد الإيمان كما أسلفنا ، وهذه لها جوانب تتعلق بالهداية والرشد ، والشهادة ، والمسؤولية ..

قال طفيل بن عمرو الدوسي الذي أسلم وأحرق صنم ذي الكفَّين ، معلناً قضاءه على رمز الوثنية والكفر :

(١) المعلقة ص ٩٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ .

(٣) ديوان الأعشى ص ٣٦٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦٧ .

يا ذا الكَفَّينَ لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا^(١)
إني حشوت النار في فؤادكا

وقال الجارود بن المعلّى وكان نصرانياً فأسلم سنة عشر هجرية:

شهدت بأن الله حق وسامحت بناتُ فؤادي بالشهادة والنَّهْضِ^(٢)
وقال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في الهداية:

حمِدْتُ الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيفِ^(٣)
وقال سواد بن قارب مصوراً حزنه على فقد النبي ﷺ:

حزنا لعمرك في الفؤاد مخامرا

وهل لمن فقد النبي فؤادُ^(٤).

وقال عبد قيس بن خفاف:

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرّةً أمران فاعمدُ للأعف الأجلِ^(٥)

ولقد أجمعت معاجم اللغة على أن الفؤاد هو القلب وجمعه أفئدة.

وإذن فإن القلب تتراوح معانيه بين الجانب العاطفي في الإنسان الذي
يمثل المشاعر الوجدانية من حب وكره، وشجاعة وخوف، وألم وفرح، ولين

(١) شعر الدعوة الإسلامية ص ٤٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٢٨ .

(٥) نفس المرجع ص ٥٣٠ .

وقسوة، وسعادة وشقاء، وبين الجانب العقلافي الذي يمثّل الهداية والضلال، والإسرار والإعلان، والاستقامة والزيف، وإطاعة أوامر الله أو عصيانها، وتلقي الوحي، والتذكّر، والتفهّم، والتدبّر.

وكذلك الفؤاد يتأثر بالجانب العاطفي فيهوى، ويصاب بسهام الغرام، ويتألم، ثم يهتدي إلى الدين الحنيف، وتصطرع فيه قوى الخير والشر.

كل ذلك يشعرنا بذلك التداخل في المعاني بين العقل والقلب واللب والفؤاد والروع والجنان، وكأنها تعبر عن شيء واحد من الناحية اللغوية.. فهل سلك القرآن والحديث نفس المسلك؟ وهل استخدمت الألفاظ بهذا المعنى كما فسر أصحاب المعاجم ذلك في استشهداهم بالآيات؟

هذا ما نودّ معرفته من خلال دراستنا للقرآن الكريم ولللسنة النبوية في الفصول التالية.

إننا دائماً نقسم الطبيعة الإنسانية إلى قسمين: عاطفي وعقلي، ويسند إلى القلب الجانب العاطفي في الإنسان ويسند إلى العقل الجانب العقلي، أما في اللغة العربية فإن الأمر يبدو مختلفاً إلى حدّ ما، لأن التداخل بين المعاني العاطفية والمعاني العقلية بالنسبة للقلب يضعنا أمام قضية جديدة، وهي تتلخص بالسؤال التالي: هل نستطيع التمييز بين الجانب العاطفي والجانب العقلي في الإنسان على أساس عضوي، فنسند إلى كل عضو من هذه الأعضاء دوراً يستقل به عن الآخر؟.

الباب الثاني

الفصل الأول

العقل في القرآن

إن أول سؤال يطرح نفسه علينا بعد استعراض آيات العقل في القرآن الكريم ، وعددها تسع وأربعون آية ، هو : لماذا استخدم القرآن مادة « عقل » بصيغة الفعل ولم يستخدمها بصيغة الاسم ؟ وهل انعدام وجود لفظ العقل بصيغته الاسمية دليل على عدم استخدام القرآن للفظ العقل بمفهومه الحديث وأن المقصود من استخدام الصيغة الفعلية هو مفهوم آخر غير مفهوم العقل ؟ .

إننا لكي نجيب على هذا السؤال ، لا بد من طرح السؤال التالي : « هل يوجد فعل من غير مصدر ؟ » .

إذا كان الاشتقاق أصلاً من أصول اللغة ، وهو ظاهرة تنتشر في أكثر اللغات الحية ، فإن الإجابة تصبح سهلة يسيرة ، إننا هنا لا بد أن نُشير إلى ملاحظة هامة ، يجدر الانتباه إليها ، وهي أن الآيات التي وردت فيها مادة « عقل » كان أكثرها بصيغة فعل المضارع على سبيل الاستفهام « أفلا تعقلون » أو الترجي « لعلكم تعقلون » أو التقرير « لقوم يعقلون » أو النفي « لا يعقلون » .

إن القرآن في كل آية من هذه الآيات التي تنتهي بهذه الصيغة الفعلية

يطرح قضية فكرية معينة تقتضي مخاطبة العقل في ظاهر سياقها لأنها تتعرض لأمر في الطبيعة تدعو إلى التأمل والنظر، والصيغة الفعلية تدل على حدث + زمن، فإذا كان الفعل مشتقاً من الاسم الجامد الذي هو المصدر أو مما اشتق من المصدر كاسم الفاعل أو اسم المفعول على قول آخر، فإننا نفهم من ذلك أن المصدر هو حدث لا زمن له، وأن الفعل هو الحدث أضيف إليه مضمون زمني يُحدد فترة وقوعه، سواء كان الزمن يدل على الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

ولكن ظاهرة استخدام القرآن للصيغة الفعلية وحدها دون الصيغة الاسمية أمر يحتاج إلى بحث أعمق لأنه على ما يبدو هناك سر في اللغة القرآنية يمكن أن يطلعنا عليه هذا البحث بعد أن نستوفي جوانبه تماماً.

العقل والطبيعة

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . سورة البقرة آية ١٦٤ .

ويقول عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . سورة المؤمنون آية ٨٠ .

﴿ويقول عز وجل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . سورة النحل الآية ١٢ .

وقال تعالى :

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . سورة الشعراء
آية ٢٨ .

﴿وَاخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . سورة الجاثية آية
٥ .

لنقف أمام آيات القرآن الكريم، نستعرض منها ما ورد في ختامها هذه
الصبغة الفعلية « يعقلون » فماذا نرى ؟ .

السموات والأرض .

الليل والنهار .

يحي ويميت .

الشمس والقمر .

المشرق والمغرب .

نحن أمام حركة في الطبيعة، تثير النفس، وتدفعها إلى التأمل،
والتصور، والتخيل، وهذه الحركة تبدو في ثنائية الطبيعة، في الليل
والنهار، في الشروق والغروب، في الحياة والموت، فالقرآن يشد الإنسان إلى
هذه الحركة، ويدعوه إلى تتبعها، وفهم ما تنطوي عليه من أسرار الخلق
والإبداع ..

إنه يبدأ بعض الآيات بقوله^(١): ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والخلق هو الإيجاد، وإيجاد السموات التي تحيط بالأرض على هذا الشكل الرائع من الجمال الفني والدقة المتناهية أمر جدير بالتأمل والدراسة العميقة، ثم وجود الأرض وما عليها وارتباطها بما حولها من كواكب أيضاً قضية تدفع الذهن إلى التفكير العميق..

تأتي بعد ذلك ظاهرة أخرى وهي^(٢): ﴿اِخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ واختلاف تعبر عن تلك الحركة الدورية اليومية، حيث يجيء الليل خلف النهار، ويجيء النهار خلف الليل، ليقف الإنسان أمام عملية رياضية بالغة الدقة والنظام، على مدار العام لا يكاد الفلك في دورته يخطئ أو يخل، بل هو منضبط كل الانضباط، ملتزم كل الالتزام، منسق كل التنسيق، مستمر لا يتوقف.

حقاً إن القرآن ليس كتاباً علمياً يبحث في الكيمياء والفيزياء ويحلل نظريات العلم، ولكنه يطرح القضايا الكلية، ويجعل منها منطلقاً للبحث والتقصي، لذلك انتشرت فيه بكثرة تلك الآيات التي تتحدث عن ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وعن ﴿اِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. وبتعابير مختلفة وصور متعددة، لأن الإنسان كل إنسان يستطيع أن يتأمل هذه الظواهر لأنه يعيش معها وتعيش معه، فأسلوب القرآن يتفق مع الفطرة الإنسانية.

يبدو لنا إذن، أن هذا التضاد الثنائي في الطبيعة، أو هذا التقابل بين الظواهر الطبيعية كان القاعدة الأولى التي استند إليها القرآن في البرهنة

(١) البقرة، آية ١٦٤.

(٢) نفس السورة والآية، الجاثية آية ٥، المؤمنون آية ٨٠.

على وجود قوة أو قانون يدل على «الخلق والإبداع»، ولكن هل نستطيع القول إنه قصد باستخدام التعبير القرآني^(١): ﴿لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى العقل ذاته أم إلى معنى الفهم بصفة عامة؟ بتعبير أصح هل يخاطب العقل على أنه أداة التفكير والبحث وعرض المقدمات للوصول إلى النتائج؟ أم أن «يعقلون» كيهتدون ويتقون ويؤمنون بمعنى الهداية والتقوى والإيمان دون إرادة الفعل أو القصد إليه؟ فما قيمة الفعل إذن؟ وهل هو فعل لا إرادي؟.

هذا ما سنحاول الكشف عنه في أثناء تحليلنا للآيات التي تتناول هذه القضية، لأن القضية لو كانت مسلّمة، لما احتاج القرآن إلى عرضها والتأكيد عليها مرات ومرات في أماكن مختلفة من سوره الكثيرة.. فلننظر إذن في هذه الآيات ومباحثها.

فماذا بعد خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار من براهين؟

الحياة والموت: قصة المعادلة التي تجري أحداثها فوق كوكبنا الأرضي منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا، يولد الإنسان ويموت، وبين مولده وموته تاريخ الحياة الإنسانية على هذه الأرض، إننا أمام التضاد الثنائي مرة أخرى، إننا أمام حركة الحياة وحركة الموت إذا صح التعبير وأجزنا لأنفسنا أن نضفي على الموت صفة الحركة لأنه السكون النهائي، فالحياة ظاهرة تستحق التأمل والموت ظاهرة تستحق التأمل ولكن وجودهما معاً هما أعظم معجزة تتحقق بالنسبة لاستمرار الجنس البشري، ونموه وتكاثره، وهذه

(١) البقرة، آية ١٦٤.

المعجزة هي في المعادلة نفسها، هي أن الإنسان يحيا ويموت، وخياته ضرورة حتمية وموته ضرورة حتمية، وكلاهما حكمة وغاية في نفس الوقت..

هاتان ظاهرتان جديرتان بالتأمل والدرس، فما هي الحكمة من وجودهما على هذا الشكل؟ وما هي الغاية؟ وما هي القوة التي تقف وراء ذلك؟ القرآن يجيب^(١): ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾. ويختم الآية بهذا التساؤل^(٢): ﴿أفلا تعقلون؟﴾.

أيضاً يستخدم مادة «عَقَلَ» بصيغة الفعل المضارع يسبقها ذلك الاستفهام الإنكاري، الذي يحمل معنى التنديد والتعجب!

ولماذا يستنكر القرآن؟ ولماذا يستغرب ويتعجب؟ ولماذا يسوق الاستفهام قبل «تعقلون؟» لا شك أن رفض الإقرار بوجود إله خالق هو السبب.

إن القرآن يقدم لنا صوراً من صور الإحياء والإماتة أو الإحياء بعد الإماتة، لأن الظاهرتين غير قاصرتين على الإنسان وحده، بل هما القاعدة التي يندرج تحتها كل جنس من أجناس الأحياء وكل نوع من أنواعه، سواء كان حيواناً أو نباتاً، ويمكننا أن نستعرض بعض الآيات التي تتحدث عن ذلك، وتختتم بالفعل «يعقلون».

الحياة النباتية

لو أحصينا العناصر التي يذكرها القرآن في مجال الحديث عن الحياة النباتية لوجدناها تتألف مما يلي:

(١)، و (٢) المؤمنون آية ٨٠.

الأرض، الماء، الرياح، السحاب، القطع المتجاورات، الجنات، الزرع، ثمرات النخيل والأعناب، اختلاف الطعم والذوق مع اختلاف الأطعمة.

والملاحظة الأولى أنه ينسب الحياة والموت إلى الأرض. قال تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وهو يريد التنبيه إلى ظاهرة إنبات الزرع الأخضر من الأرض الجامدة، فإذا الحياة تتمثل في أروع مظاهرها وأجمل صورها في تلك الألوان المختلفة من الشجر والثمر والخضرة.

لوحة جديدة، يقف الإنسان أمامها ويتأمل ويبحث ويدقق، لوحة تظهر فيها صورة التقابل بين الحياة والموت في إطار جديد، أو مختلف عن حياة الإنسان وموته، لأن التقابل هنا بين شيئين مختلفين في الظاهر مترابطين في الحقيقة والواقع هما الزرع والأرض، والحكمة التي ربما يريد القرآن أن يدفعنا للبحث عنها هي كيف أنبت الجهاد نباتاً حياً، فالأرض هي أم النبات تحمله في بطنها بذرة ضئيلة أو نبتة صغيرة، ثم تخرجه بعد ذلك زرعاً مختلفاً ألوانه، أو شجراً باسماً ذا أشكال متغايرة وثمار متعددة، وفوائد كثيرة.

إنما أصل الحياة في الأرض، ليس تربة الأرض وحدها، بل هناك الماء، والماء يكون بخاراً، ثم يتحول إلى سحاب، ثم تسير به الرياح، ليسقط مطراً يسقي الأرض، يسقي القطع المتجاورات، والجنات.

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة الرعد آية ٤.

فالماء واحد، ورغم ذلك تتعدد الثمار والفواكه وأطعمتها، فما هو سر الإعجاز في هذا التعدد، مع أن الماء واحد؟.

العرض القرآني يبدو بسيطاً وعميقاً في آن واحد، إنه لا يعتمد إلى التحليل الكيميائي، ولكنه يراقب الظاهرة كما هي في شكلها الطبيعي، وكما يراها كل إنسان عالماً كان أو جاهلاً، ذلك أن تأمل الطبيعة فطرياً لا يحتاج إلى علم وتخصص.

ويختم القرآن هذه الآيات بنفس التعبير ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وقال عز وجل: ﴿وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفُ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة الجاثية آية ٥.

أو يضيف القرآن إلى آيات جرف اللام «لآيات» للتأكيد، فيقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْضِئُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة الروم آية ٢٤.

أو يأتي بها في صيغة المفرد «لآية». أو يأتي بتعبير فيه صيغة التنديد والتقرير ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أو صيغة الاستفهام الإنكاري ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة النحل آية ٦٧.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. سورة العنكبوت آية

﴿وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .
سورة المؤمن آية ٨٠ .

وبين التأكيد والتنديد والاستفهام الإنكاري، نشعر أننا أمام حركة
نكرية تريد أن تشير إلى شيء ما ..

إن القرآن يضع كتاب الطبيعة أمام الإنسان، ليقرأ صفحاته، فهل
تكون القراءة قراءة « عقلية » أم مجرد تأملات عامة لا أكثر ولا أقل؟ .

إن حياة الأرض وموتها، والماء الواحد، واختلاف الألوان والثمرات،
كلها توحى لنا بأن القضية تطرح بأسلوب يقتضي الكثير من البحث
والتقصي، فكيف يكون البحث والتقصي؟ .

إن اعتبارها « آيات » أي أدلة وبراهين، يقتضي أن تكون البرهنة
« عقلية » لأنها تساق إلى قوم يعقلون. فإذا كان تأمل الطبيعة ودراسة
أسرارها ودقائقها، ودراسة مظاهر الحياة والموت والإنسان والحيوان
والنبات، يلقي ضوءاً كاشفاً على الحقيقة، فإن الفعل « يعقلون » يوحى لنا
أنه واسطة هذا الكشف، والفاعل هو العقل لأن الذين لا يعقلون هم الذين
لا يدركون هذه الحقائق، فالعقل هنا هو أداة الفعل يعقل، ودوره هو تتبع
الظواهر وإدراك العلائق التي تربط بينها، واستنباط الحقائق .

إنه يسلط الأضواء عليها ليعقلها ويعرفها حق المعرفة .

يقول الطبري: « فأما معنى قوله [لآيات] فإنه علامات ودلالات على
أن خالق ذلك كله ومنشئه إله واحد . (لقوم يعقلون) لمن عقل مواضع الحجج
وفهم عن الله أدلته على وحدانيته فأعلم تعالى ذكره عباده بأن الأدلة
والحجج إنما وضعت معتبراً لذوي العقول والتمييز دون غيرهم من الخلق إذ

كانوا هم المخصوصين بالأمر والنهي والمكلفين بالطاعة والعبادة ولهم الثواب وعليهم العقاب... إلى أن يقول: - مخاطباً المشركين - فأخبرهم أن إلههم هو الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم وتفرد لهم بها ثم قال: هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ففي الذي عدت عليكم من نعمتي وتفردت لكم بأيادي دلالات إن كنتم تعقلون مواقع الحق والباطل والجور والانصاف وذلك أني لكم بالإحسان إليكم متفرد دون غيري وأنتم تجعلون لي في عبادتكم إياي أنداداً»^(١).

والدليل بعد ذلك هو مجيء الآية التي تقول: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله»^(٢).

إذن فالطبري يعتبر ذلك رداً على المشركين، الذين يرفضون الإيمان بالإله الواحد، ويؤمنون بالأوثان والأصنام، فالقرآن يبين لهم أن الأوثان لا تستطيع أن تخلق هذا الخلق المعجز، وأنها أعجز من أن تقدم للإنسان هذه النعم المختلفة التي يحتاج إليها في حياته، ولا يعقل ذلك إلا من أدرك حقيقة هذه الأدلة والبراهين، فترك الشرك بالله. وآمن بالله الخالق وحده دون غيره.

ندرك ذلك طبعاً عندما نطالع الآية السابقة لطرح موضوع التفكير في خلق السموات والأرض وغيرها... وهي قول الله ﴿وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾^(٣).

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى ٣١٠ هـ، تفسير

الطبري ٢ / ٣٩.

(٢) البقرة آية ١٦٥.

(٣) البقرة آية ١٦٣.

وما دام الحديث عن الحياة والموت، ومظاهر الحياة الطبيعية، فإن أعظم موجود على الأرض هو الإنسان، وظاهرة وجوده جديرة بالاهتمام، ذلك أن مراحل تطور وجوده بالغة التعقيد والتركيب، ومن هنا فإن القرآن يركز تركيزاً كبيراً على تتبع ظاهرة وجود الإنسان..

إنه يبدأ بأصل الخليقة - ومن وجهة النظر القرآنية - وهي خلق آدم من تراب، وبعد آدم حواء، ثم كانت النطفة هي الوسيلة لاستمرار النوع الإنساني..

ويسترسل القرآن في ذكر الأطوار التي تجتازها النطفة منذ بدء وجودها حتى الموت، فهي تتحول إلى علقة، والعلقة تتحول إلى مضغة، ثم تخرج إلى الوجود طفلاً ينمو مع الأيام ليشتد عوده، فيدخل في طور الرجولة، ثم ينتقل إلى الشيخوخة، ومنها إلى الموت، وبين هذه المراحل التي تقطعها النطفة، أحداث، فمن النطف ما لا يستطيع أن يشق طريقه إلى الحياة، ومنها ما لا يكمل طريق الحياة فيسقط في منتصفها، ومنها ما يبلغ أجله الذي كتب له.

وهنا يستخدم القرآن بعد هذا العرض التعبير التالي: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتساءل لماذا هذا التعليل؟ وهل هناك من يعقل ومن لا يعقل عند تتبع هذه الحقيقة ومراحلها؟.

يقول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ، وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة غافر آية

إن سياق الآيات في سورة « غافر » التي تعالج قضية الإنسان وخلقها تقرر بعد هذه الآية ، أن الله هو الذي يحيي ويميت ، وأن قضية الخلق عنده لا تحتاج إلا إلى كلمة واحدة هي أن يقول للشيء « كُنْ » فيكون .

ثم تذكر بعد ذلك أن هناك أقواماً يجادلون في هذه الأدلة والبراهين وأنهم يتعدون عن الإيمان في جدلهم هذا . يقول الله عز وجل : « هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ » سورة غافر ٦٨ - ٦٩ .

إن ذكر الجدل في هذه الآيات يوحي أن القضية تطرح بهذا الأسلوب للرد على هؤلاء المجادلين ، لإقناعهم ، وإفحامهم في نفس الوقت ، ولا يكون الإقناع إلا بأدلة « عقلية » تثبت وجهة النظر التي يريد الذي يعرضها أن يثبتها ويؤكددها .. فأصل الإنسان وتطور مراحل نموه وحياته وموته ، كلها تساق للبرهنة على وجهة النظر القرآنية بالنسبة للحياة والموت ، وهي أن الله هو الذي يحيي ويميت ، وهذه الأدلة يحتاج بها أمام قوم يجادلون في وجهة النظر هذه ، أي يرفضونها ولا يقرون بها ، وهؤلاء لا يمكن مخاطبتهم عن طريق التسليم بالإيمان المطلق ، بل لا بد أن تقدم إليهم الأدلة والبراهين التي قد تقنعهم عقلياً .

من أجل ذلك كان ختام الآية الأولى هو ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لعلمكم تدركون أسرار وجود الإنسان وتعرفون عظمة تركيبه فتشوبوا إلى الرشد وتؤمنوا بالله .

الإنسان .. ومراحل تطوره

العناصر التي يتكون منها تاريخ نشوء الإنسان وتطوره هي من وجهة

التراب، آدم، حواء، النطفة، العلقة، المضغة، الجنين، الطفل،
الرجل، الشيخوخة، الموت، البعث بعد الموت.

إن كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى برهان أو دليل، والقرآن
يسوق ذلك في آيات متفرقة مستخدماً الفعل « يعقلون » أو ما في معناه،
وإليك الأمثلة:

١ - خلق آدم من تراب، والدليل على ذلك في القرآن أنه يتحول بعد
الموت إلى تراب، فهو من الأرض خلق، وإلى الأرض يعود، أي يتحول إلى
العنصر الأساسي الذي وجد منه.

يقول الله عز وجل: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَفِيهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
أُخْرَى ﴾ سورة طه آية ٥٤ - ٥٥ .

ويقول جلّ وعلا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ. بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ سورة المؤمنون الآيات ٨٠ - ٨١ - ٨٢ .

٢ - والإعجاز كله في الخلق الأول، من التراب، فإذا انتقلنا إلى
النطفة بدا ذلك واضحاً في مظاهر الحياة الإنسانية، وفي العلاقة الطبيعية
بين الرجل والمرأة، ثم في تطور مراحل العمر لدى الإنسان عامة، وأدلة
ذلك في القرآن لا تختلف عن المشاهد الحسية، وتساق الأدلة فقط للكشف
عن جوانب « المعجزة اليومية » التي نحيها جميعاً، وهي معجزة وجود
الإنسان وطريقة نشوئه وارتقائه وتطوره.

يقول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿سورة النساء آية ١﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ سورة النحل آية ٧٠.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون آية ١٢ - ١٣ - ١٤.

هناك من يعترض باسم العلم على وجهة النظر القرآنية وهي خلق آدم من تراب فيقول: إن أصل الإنسان «مادة» وأنه وليد التفاعل الكيميائي، ثم يستند قوم إلى النظرية التي نسبت إلى «داروين» في النشوء والارتقاء، وخاصة أصحاب الفلسفة الماركسية الذين ينفون قضية الخلق الأول.

وهؤلاء يتولى العلم نفسه الرد عليهم. ذلك بأن العلم لم يتعد المرحلة الوصفية بعد، وأن الماركسيين أنفسهم تساءلوا عن أصل المادة أو ماهيتها، وكان الجواب: من العبث التساؤل عما هي^(١).

يقول الكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»^(٢): وملاحظة الأشياء، تمدنا فقط بأقل صور العلم شأنًا، ونعني بها الصورة الوصفية؛ فالعلم الوصفي يرتب الظواهر، بيد أن العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير

(١) الماركسية في الفلسفة ناتان ص ٣٣.

(٢) الإنسان ذلك المجهول ص ١٥ منشورات مؤسسة المعارف ببيروت.

القابلة للتغيير - أي القوانين الطبيعية - تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية.

ويقول بعد ذلك: «... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة.. فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة على أسئلة كثيرة مثل: كيف تتحد جزئيات المواد الكيماوية لكي تكوّن المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ كيف تقرر الجينس الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟ كيف تنتظم الخلايا من تلقاء نفسها، مثل الأنسجة والأعضاء؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع، وتساعدنا العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته..»

وينتهي الكسيس كاريل إلى القول: «فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب»^(١).

ليس هذا العرض لما جاء في كتاب «الإنسان ذلك المجهول» محاولة للدفاع عن وجهة النظر القرآنية في قضية الخلق الأول، ولكن لنثبت أن العلم لا يستطيع أن يؤكد وجهة نظره في أية نظرية افترضها عن وجود الإنسان، وبالتالي لا يستطيع أن ينفي ما جاء به القرآن. فلا النفي ولا الإثبات في هذا الجانب عن بدء الخليقة يملكه العلم حتى يومنا هذا. وعليه

(١) نفس المصدر السابق ص ١٧ - ١٨ - ١٩.

فالعقل البشري مستنداً إلى الإيمان لا يجد في وجهة النظر القرآنية ما يريب .

٣ - تأتي قضية أخرى وهي الموت ، والبعث بعد الموت ، وهي قضية كانت ولا تزال موضع تساؤل: هل يبعث الإنسان بعد الموت؟ وبعد أن يتحول إلى تراب؟

كان هذا السؤال مطروحاً في عهد النبي العربي ﷺ ، إذ جاءه العاصي ابن وائل وهو يحمل عظماً حائلاً ففته ، فقال: يا محمد أيبعث هذا بعدما أرم؟ قال الرسول « نعم ، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » فنزلت الآيات ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة﴾ إلى آخر السورة .

يقول الله عز وجل: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ سورة يس من الآية ٧٧ إلى الآية ٨٣ .

وخلاصة الموضوع: أن العاصي بن وائل هذا تناسى أصل وجوده وهو النطفة ، وجاء يتساءل: من يحيي العظام وهي بالية مهترئة؟

والجواب في القرآن: يحييها الذي أوجدها أول مرة ، لأنه عليم بسر خلقها وإيجادها ، والذي خلق أولاً يخلق ثانياً .

ثم يبرهن القرآن على ذلك في صورة من صور الطبيعة المشاهدة ، فيقول: الذي خلق لكم شجراً أخضر ، تقطعون ، فيتحول إلى خشب يابس ،

فتوقدون منه ناراً، وهي مراحل متعددة للتحول والتغير، من الحضرة إلى اليباس، إلى طاقة جديدة وهي النار.

ثم إن الذي خلق هذه الأرض وخلق السموات من حولها قادر على أن يخلق مثل ما خلق في المرة الأولى.

إن قدرته لا حدود لها: إنه يقول للشيء: كن فيكون^(١).

فالقُرآن يريد أن يؤكد للإنسان أنه إذا اعترف بعظمة الوجود، اعترف بعظمة المسبب والموجد، فإذا اعترف بذلك سهل عليه الإيمان بالإيجاد مرة ثانية وهو البعث بعد الموت.

وقد ذكر الإرادة في سياق الآيات، ليدل على أن كينونة الوجود جاءت عن قصد وإرادة من الله وهي تتلخص بأمره: كن.

وخلاصة ذلك أن المنطق القرآني يلجأ إلى الإقناع عن طريق المقارنة والمقابلة ليؤكد أن الشيء الذي حدث في الوجود « يمكن » حدوثه على نفس الصورة مرة أخرى، ولو قلنا بالاستحالة لوجب استحالة وجوده الأول.

« يقول الأستاذ أبو ريدة عن تفسير الكندي لهذه الآيات: « إن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى، وهي:

(١) سورة يس الآيات ٧٧ - ٨٣ أخرج الحاكم هذه الرواية في أسباب النزول وصححه عن ابن عباس قال جاء العاصي.. الخ وأخرج ابن أبي حاتم عن طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي ونحوه وسموا الإنسان أبي بن خلف.

أولاً - وجود الشيء من جديد، بعد كونه وتحلله السابقين ممكن،
بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة، لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاد
وإبداعه من عدم، وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء هو أسهل وشيء هو
أصعب - هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة: ﴿قل يحييها الذي
أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم﴾.

ثانياً - ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر،
ممكن، وواقع تحت الحس. وإذاً يمكن أن تدبّ الحياة في الجسد المتحلل
الهامد مرة أخرى، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر، وهو أن الشيء
يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق - هذا الدليل موجود
في آية: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون﴾
وقد انتفع به الأشعري في إثبات إمكان البعث.

ثالثاً - خلق الإنسان أو أحياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر
بعد أن لم يكن، وهذا هو مضمون آية ﴿أوليس الذي خلق السموات
والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم؟! بلى وهو الخلاق العليم﴾.

رابعاً - الخلق، والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق، لا يحتاج من جانب
الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان - خلافاً لفعل البشر الذي لا يتم إلا في
زمان، ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل، وهذا هو معنى آية: ﴿إنما
أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾...

«فأي بشر - كما يقول الكندي - يقدر بفلسفة البشر أن يجمع، في
قولٍ بقدر حروف هذه الآيات، ما جمع الله، جلّ وتعالى إلى رسوله ﷺ فيها
من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رمياً، وأن قدرته تخلق مثل
السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضه!!؟ كلت عن ذلك الألسن

المنطقية المتحايلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية» اهـ^(١).

رابعاً - إنه يستخدم أسلوباً جدلياً في بعض الأحيان ليفهم معارضيه في طرح القضية بالشكل التالي: كيف وجد الإنسان؟ هل وجد من لا شيء، أم أوجد نفسه بنفسه؟.

يقول الله عز وجل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ سورة الطور آية ٣٥.

فإذا كان وجود الإنسان من عدم مستحيلًا وكذلك إيجاد نفسه بنفسه.. كان هناك فرض ثالث لا رابع له هو: أن الإنسان لم يوجد من الفراغ أو من غير قصد ولا إرادة، ولم يوجد نفسه بنفسه، بل أوجدته قدرة فائقة وإرادة خلاقة هي إرادة الله تبارك وتعالى.

فالمقدمات والنتيجة هي كما يلي:

أ - الإنسان حادث - وكل حادث لا بد له من محدث = الإنسان لا بد له من محدث.

ب - الإنسان لا يخلق نفسه - وكل من لا يخلق نفسه لا بد له من خالق = النتيجة الإنسان لا بد له من خالق.

هذه الطريقة في طرح البراهين، وسبقها بآية: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام تأليف الدكتور عبد الحليم محمود ص ٦٩ - ٧٠. أنظر رسائل الكندي ص ٥٧ - ٥٨.

بهذا أم هم قوم طاغون؟^(١) وتفسير الأحلام بالعقول كما رأينا في المعاجم اللغوية، يضيء الطريق أمام الحقيقة التي نبحث عنها في هذا الموضوع.

القصص القرآني..

الحوار الذي يدور في القصص القرآني بين الأنبياء والرسل من ناحية وبين المنكرين لوجود الله من ناحية ثانية يستحق أن نقف أمامه لأنه يساعدنا على توضيح الصورة أكثر فأكثر.

من ذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع نمرود الملك، وقصة إبراهيم مع قومه، ثم قصة موسى عليه السلام مع فرعون.

١ - الحوار بين إبراهيم والنمرود يدور بالشكل التالي:

قال الملك المغرور بقوته وسلطانه لإبراهيم: من ربك الذي تدعونا إليه؟

فيجيب إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت.

فيقول الملك النمرود: أنا أحيي وأميت.

ثم دعا الملك برجلين فقتل أحدهما وعفا عن الآخر.

قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب!

فبهت الملك ولم يستطع الرد.

يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ

(١) الطور آية ٣٢.

إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿سورة البقرة آية ٢٥٨﴾

هذا الحوار يضرب فيه القرآن المثل ليبين الفرق بين قدرة الله و قدرة الإنسان، وعجز الإنسان أمام نواميس الطبيعة وقوانينها، فإذا كان ظهور الشمس بالنسبة للأرض يأتي من جهة معينة فإن الإنسان مهما بلغت قدرته لا يستطيع تغيير هذا القانون الطبيعي، وهذا دليل على وجود قدرة فوق قدرته تسير الكون.

٢ - القصة الثانية بين إبراهيم وقومه يدور فيها الحوار التالي:

إبراهيم يسأل: ما هذه التماثيل التي تعكفون على عبادتها؟

فيجيبه قومه: وجدنا آباءنا لها عابدين، ونحن قلدناهم.

فيقول إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين.

ثم يهدد بتهديم الأصنام، وينفذ تهديده.

وعندما يسأله قومه: أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم؟

يجيب: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون!؟

قالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟

قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، أف لكم وما

تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون؟

الحوار يكشف لنا كيف واجه إبراهيم عبادة الأوثان والأصنام، فسفه

الذين يعبدونها عندما احتجوا بتقليد آبائهم، وهذا رفض للتقليد الأعمى،

ثم أخرجهم عندما هدم الأوثان وادعى بأن الصنم الأكبر هو الذي فعل ذلك، وطلب منهم سؤاله، فلما أجابوا بأنه لا ينطق فكيف يسألونه، سخر منهم ومن عبادتهم لجماد لا ينفع ولا يضر.. وهذه قصة إبراهيم مع قومه كما أوردها القرآن الكريم:

قال تعالى:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ فِي ضِلَالٍ مُبِينٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ . قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ سورة الأنبياء الآيات من ٥٢ إلى ٦٧ .

واستخدم إبراهيم في خاتمة الحوار الفعل «تعقلون» مسبوقاً بالاستفهام الإنكاري فقال: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ والظاهر من سياق الآيات هو التنديد بعبادة الأوثان، ورفض التقليد الأعمى، والسخرية من الأصنام بأنها لا تنطق وبالتالي لا تضر ولا تنفع، كل ذلك يضعنا أمام قضايا لا بد للإنسان أن يتخذ منها موقفاً عقلياً وفكرياً، والاستفهام الإنكاري المقرون بالنفي

يدل على عدم اتخاذ هذا الموقف من قبل قوم إبراهيم ، وهذا يدفعنا إلى التساؤل ما هو مفهوم هذا التعبير إذن ، وماذا يريد إبراهيم من طرحه على هذه الصورة ، بل ماذا يريد القرآن في الحقيقة ؟

سنحاول أيضاً أن نسير مع هذا السؤال حتى آخر الشوط .

٣ - أما قصة موسى عليه السلام مع فرعون فيدور الحوار على الشكل التالي :

يسأله فرعون : من ربُّكَ ؟

فيجيب : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ الشعراء آية

٢٨ .

إجابة مختصرة ولكنها تضم كل شيء ، فالظاهرتان المشرق والمغرب من ظواهر الطبيعة البالغة الإعجاز ، وهما من الدلائل القوية على وجود قوة قادرة وراءهما ، ثم ما بين المشرق والمغرب من موجودات ومخلوقات كلها دلائل على وجود هذه القوة ، والجملة الشرطية هنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يبدو منها أن موسى يرتب الجواب على الشرط ، لأنه في حال وقوع الفعل « تعقلون » يمكن إدراك هذه الحقيقة التي طرحها موسى على فرعون ، ولما كان الشرط غير متحقق فإن الجواب بالتالي لم يكن محققاً عند صاحب السؤال وهو فرعون .

وخلاصة هذه القصص الثلاث تفيدنا أن القرآن استخدم الفعل « تعقلون » مسبقاً باستفهام إنكاري مقروناً بالنفي على لسان إبراهيم ، وكذلك استخدم الفعل نفسه مسبقاً بالشرط على لسان موسى ، وكلاهما تعرض لقضايا جدلية منطقية ، لأن الحجج والبراهين التي تخللت الحوار

دلت على ذلك، فمعناه أن السؤال المقرون بالنفي انصبَّ على فعل العقل ليبين أنهم لم يستخدموا أداة الفهم والإدراك، ولو فعلوا لتغير الموقف، فنفي الفعل نفي لاستخدام الوسيلة الحقيقية للمعرفة، وكذا إذا انتفى وقوع جواب الشرط انتفى فعل الشرط، وثبت أنهم لم يستخدموا عقولهم في الوصول إلى الحقيقة، أو ثبت أنهم لا يفهمون.

فإذا ربطنا بين حوار إبراهيم والنتيجة التي وصل إليها أدركنا أن الحقائق التي أوردها ترتبط بوقوع الفعل «ت عقلون» ووقوعه يعني استنباط كل الأدلة التي توصل إليها، وكذلك لو ربطنا بين سؤال فرعون وجواب موسى، لأدركنا أن جواب الشرط يتضمن إدراك الأمور البديهية التي عرضها في رده، والتي يعتقد أنها كفيلة بإثبات وجهة نظره.

الحواس .. والعقل

هل هناك علاقة بين الحواس والعقل في القرآن؟.

سؤال طرحه على أنفسنا ونحن نستعرض الآيات التي يرد فيها ذكر الحواس مع الفعل «يعقلون» وكأن هناك ترابطاً بينها وبين وقوع الفعل أو عدم وقوعه.

١ - الظاهرة الأولى هي تنديد القرآن بالتقليد الأعمى والسير وراء ما ورثه الأبناء عن الآباء دون تفكير إرادي، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾^(١) حتى ولو كان هؤلاء الآباء على جهل فيما يعتقدون.

(١) البقرة آية ١٧٠ .

والقرآن يأتي بالاستفهام الذي يحمل معنى الاستغراب والتعجب: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١)؟! فنفي الفعل هنا معناه الجهل المطبق، لأن «شيئاً» يدل الجهل بها على الجهل بالحقائق كلها.

ثم يضرب القرآن المثل على حال هؤلاء بأنهم كالبهائم تسمع صوت الراعي ولا تدري ما يقول لها.. وأن هؤلاء الكفار يسمعون دعوة الحق ولا يدركون ما يقال لهم من هذه الدعوة شيئاً، فهم «صُمُّ» عن سماع الحق «بُكْمٌ» لا يستطيعون النطق به «عُميٌّ» عن رؤية نوره والاهتداء بهديه.

إذن «فهم لا يعقلون».

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً، صُمُّ بُكْمٌ عُميٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة آية ١٧١.

فإذا كانت «الفاء» سببية، فإنها تفسر معنى «صُمُّ بكم عميٌّ» بأنه إغلاق لجميع نوافذ المعرفة، وهذا هو «الجهل».

وهؤلاء الكفار الذين يقلدون آباءهم - على جهالتهم - قد عطلوا وسائل المعرفة كلها، ورفضوا أن تكون لهم إرادة الاختيار والتمييز، فألغوا بذلك عقولهم. كناية عن التبعية التامة لما ورثوه عن الآباء.

فإذا كان التقليد يفيد «التبعية» كما رأينا وهو إلغاء للاختيار الشخصي، فإن عدم التقليد يفيد «تحرر الإرادة» وإثبات الرأي عن طريق الاختيار البعيد عن الإكراه، وهذا المفهوم الأخير لا يتحقق إلا إذا مارس

(١) البقرة آية ١٧٠.

الإنسان دوره في البحث عن المعرفة ، وأدرك حقيقة ما يريد أن يصل إليه ، وهذا دور العقل ، ودور العقلاء .

٢ - إن القرآن يسقط عن هؤلاء المعطلين لحواسهم وعقولهم صفة « الإنسانية » ويشبههم « بالحيوانات » كالذّواب والأنعام ، ذلك أن الميزة التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان هي « العقل » وإلى هذا ذهب الفلاسفة حين عرفوا الإنسان أنه « حيوان عاقل » . فإذا ألغى هذه الميزة أو عطل أدواتها وهي الحواس استوى مع الحيوان غير العاقل وغير المدرك .

وهذه المقابلة بين « الإنسان » وبين « الحيوان » تؤكد أن الفعل « يعقلون » وضع إشارة لعمل « العقل » الذي يفرق بين الاثنين .

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأنفال آية ٢٢ .

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سورة الفرقان آية ٤٤ .

إن الحيوان كما نعلم يملك حاسة السمع والبصر ولكن ما قيمة وجودها وهي لا تستخدم في المعرفة العقلية ، كذلك الإنسان الذي لا يستخدم حواسه في الوصول إلى المعرفة كالحيوان في عدم الاستفادة من هذه الحواس .

٣ - إضافة إلى هذا التصوير القرآني لمن ألغوا حواسهم وعقولهم ، يضيف إليهم صفة أخرى ويشبههم بالموتى ، فيجعل الفرق بين الحياة والموت هو عمل العقل وعمل الحواس كما يبدو لنا من قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ الروم آية ٥٢ .

فالحياة الحقيقية هي سماع صوت الإيمان ، وهذا ما يدل عليه في الظاهر

وصف الكفار بالموتى الذين لا يسمعون الدعاء ، يؤكد ذلك قول الله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ، وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ سورة فاطر آية ٢٢ .

وتظهر أهمية عمل العقل وعمل الحواس من قول الكفار أثناء العذاب في الآخرة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك آية ١٠ . فربط السمع هنا بفعل العقل دل على أن سماع دعوة الإيمان يقتضي فهم هذه الدعوة ، فإذا كان هناك سمع من غير تعقل فإنه لا قيمة له ، فقيمة عمل الحواس هو من قيمة ارتباطها بالعقل .

٤ - أما إذا انتقلنا إلى المجال الأوسع للنظر والبصر رأينا القرآن يستخدمها بمعنى التأمل الفكري ، والدرس والبحث والتعمق في فهم ظواهر الطبيعة ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١) ؟ ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ﴾^(٢) و﴿سُرِيرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فصلت آية ٥٣ .

كل ذلك يشعرنا أن القرآن استند إلى المشاهدة الحسية ، وإلى تتبع ظواهر الطبيعة في المعرفة ، وخاصة أن الرؤية تكون رؤية بالبصر والبصيرة معاً ، وسوف نتبين ذلك عند معالجتنا لإحدى الآيات الهامة في القرآن والتي يركز عليها جزء كبير من موضوعنا هذا لأنها تكشف لنا إلى حد ما عن الجانب المضيء الذي سيجيبنا عن السؤال الهام الذي سنتعرض له فيما بعد ، وهو : ما هي علاقة القلب بالعقل ؟ وهل هناك ترابط بينهما ؟

(١) الذاريات آية ٢١ .

(٢) يونس آية ١٠١ .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال إجابة كاملة ووافية يمكننا الآن أن نقرر أن البصر في القرآن غير البصيرة^(١)، وسوف نعالج ذلك عندما نتطرق إلى مبحث القلب.

آفاق أخرى لفعل العقل

المنطق العقلي

لا بد للكشف عن مضمون الفعل « يعقلون » في القرآن أكثر فأكثر من أن نتابع بقية الآيات التي وردت فيها مادة « عَقَلَ » والتي جاءت في معرض تقرير أمر من الأمور « اللسانية » المتعلقة بالقرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف آية ٢ . أو تقرير أن القرآن نزل وفيه ذكرُ العرب أي لغتهم ، ثم التنديد بهم لعدم استجابتهم لدعوة القرآن ، يقول جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة الأنبياء آية ١٠ .

وفي مكان آخر ، يتحدى القرآن العرب بأن يأتوا بمثله ، أو بآية من مثله ، مع أنه من جنس لغتهم ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة البقرة آية ٢٣ .

وتلتقي مشيئة الله مع المنطق العقلي ، المستفاد ، من الواقع ، فيأتي التذكير

(١) الحج آية ٤٦ .

للعرب، أنه كان بالإمكان أن لا ينزل القرآن على محمد، ولا يتلوه على العرب، ولا يعلمون عنه شيئاً، خاصة وأنه عاش بينهم أربعين سنة قبل نزول الوحي وهم يعرفون حياته وسيرته واستقامته وصدقه، ثم يندد بهم لمواقفهم التي تميل إلى الشك، فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة يونس آية ١٦.

أولاً - نرى الربط بين اللسان العربي وبين فهم القرآن، ذلك أن التقرير بأن القرآن عربي ليس المقصود منه أن لغة القرآن عربية فهذا أمر بديهي، وليس المقصود منه الفخر والاعتزاز، بل المقصود منه هو الفهم وإدراك معاني القرآن، والدليل على ذلك هو ختام الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك أن اللسان هو وسيلة التعبير، وها هو موسى عليه السلام يدعو ربه فيقول: ﴿وَاحْضُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾^(١) أي يفهموا قولي، والعروبة في القرآن هي اللسان.

ثانياً - التنديد بهم، والإنكار عليهم، كيف يكون القرآن بلغة العرب ثم لا يدركون ما فيه من دعوة للحق.. أفلا تعقلون؟ أي هل أنتم تجهلون ما يُتلى عليكم ولا تفهمونه؟

يؤكد ذلك التحدي الذي طرحه القرآن في أكثر من آية لأن يأتوا بمثله أو بآية من مثله مع العلم أنه بلغتهم وكلامهم.

ثالثاً - طرح المنطق العقلي بالنسبة لحياة الرسول وكيف أنه عاش أربعين سنة بينهم وكان مثال الصدق والاستقامة وما عرفوا عليه كذباً

(١) سورة طه آية ٢٧/٢٨.

قط ، ولماذا يدعي نزول القرآن عليه إذن؟ إنها المشيئة الإلهية فقط ، وهذه المشيئة كان يمكن أن تحرم العرب من نعمة نزول القرآن على واحد منهم فلا يعرفون طريق الحق ولا يهتدون .

هذا ما يخيل إلينا هو المنطق العقلي الذي لجأ إليه القرآن للرد على التشكيك ، فالثقة في حياة محمد وسيرة محمد يجب أن تنساق على ما يشر به من القرآن أيضاً ، وقد كان موضع ثقة طوال أربعين سنة فكيف لا يكون موضع ثقة وقد أنزل القرآن عليه؟ أفلا تعقلون؟ أي ألا تحكمون عقولكم في إدراك هذا المنطق؟ .

رابعاً - سيتغربون أن ينزل القرآن على بشر ، فيذكروهم بأن الله أرسل جميع الرسل السابقين من البشر ، وأن الميزة التي يمتاز بها هؤلاء الرجال هي أنهم يتلقون الوحي من ربهم ، وهذا ما يمتاز به محمد أيضاً ، فعلام الاستغراب ، وعلام الإنكار ، ثم ينذرهم بأحوال الأمم السابقة وما جرى لها عندما كذبت رسلها وما أصيبت به من محن وتجارب ، لأن الله ينتقم من المكذبين ، بينما يثيب المؤمنين خيراً ويدخلهم الجنة جزاء إيمانهم ، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة يوسف آية ١٠٩ .

دروس التاريخ ، والتذكير بأحداث الماضي ، والاعتبار بما حدث للأمم ، والمقارنة بين الرسل السابقين ومحمد .. كل ذلك يُطرح على الناس ليتخذوا موقفاً حكيماً ورشيداً من الدعوة الجديدة .. فإذا لم يفعلوا قال لهم: أين عقولكم؟ وأين تفكيركم السليم إذن؟ وتقديركم للأمر؟ .

إن الأمثال التي يضرها القرآن للناس أمثال بليغة وما « يعقلها »

ويدرك أبعادها ويفهمها فهماً جيداً بمغازيها ومراميها وأهدافها إلا
« العالمون » .

وهذا ربط قوي بين فعل العقل والعلم والعلماء ، فإذا ارتبط الفعل
بالفهم والإدراك كما رأينا في الآيات الأولى المتعلقة باللسان العربي ، وإذا
ارتبط بالعلم في الآية الأخيرة يمكننا أن نذهب إلى القول: إن آلة الفهم
والإدراك والعلم هنا هي العقل .

يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَالِمُونَ﴾ سورة العنكبوت آية ٤٣ .

أي أن تصور المعنى أو المضمون اللغوي للفظ « يعقل » بدأ يتضح لنا
أكثر فأكثر في هذه الآيات إنه الفهم والإدراك والعلم والمعرفة .

خامساً - يخاطب اليهود فيقول لهم مندداً ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ سورة البقرة آية ٤٤ .

هذا مثال على الإنسان الذي يقول ما لا يفعل ، أو يأمر بالخير ويفعل
الشر ، فيتناقض مع نفسه ، وهذا دليل الجهل وعدم الإدراك ، والفعل « أفلا
تعقلون » يشير إلى ذلك .

وعندما يدعي اليهود أن إبراهيم كان يهودياً ويدعي النصارى أن
إبراهيم كان نصرانياً يقول لهم القرآن: ﴿لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ
التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١) سورة آل عمران آية ٦٥ .

(١) أنظر تفسير الطبري ٢١٥/٣ والجلالين .

وهذا موقف أيضاً يدل على التناقض، وبطلان الادعاء ظاهر، والتعبير بالسؤال الانكاري يشير إلى ذلك أيضاً. فإبراهيم أبو الأنبياء جاء قبل موسى وعيسى، أي جاء قبل اليهودية والمسيحية فلا ينسب إلى هذه ولا إلى تلك عقلاً وحقيقة!.

وهذا أيضاً ربط بين منطق التاريخ والواقع العقلي.

الزهد.. ومنطق القرآن

من أجل الحث على الإيمان لا بد أن يعرف الإنسان حقيقة الدنيا، إنها سراب خداع، إنها عرض زائل، إنها فترة زمنية يقضيها الإنسان على هذه الأرض ثم تنتهي بالموت. فمن أدرك ذلك يجدر به أن يبحث عن الحقيقة المطلقة، وهي الحياة الأبدية بعد الموت.

والأسلوب الذي يتبعه القرآن في عرض هذه الحقيقة أسلوب متنوع، رأينا شيئاً منه سابقاً عندما طرحنا قضية الإحياء بعد الموت وكيف يدل عليها القرآن بمنطقه الخاص الفريد الذي يقرب فيه الصورة من أذهان الناس حتى تبدو - وهي التي يستحيل تحققها من وجهة نظرهم - ممكنة الحدوث ولا يمكن للعقل أن يفرضها، والأمثلة كلها من الطبيعة، فالذي أخرج الإنسان إلى حيّز الوجود أول مرة يمكنه أن يحياه مرة ثانية بعد الموت، وكما أعطاه الأرض دار إقامة في الدنيا يمكن أن يعطيه الجنة أو النار دار إقامة في الآخرة، فالجزاء على قدر العمل.

وهنا يهمنا أن نضيف إلى هذه الصورة بعض الآيات التي تقارن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ثم تختم بالصيغة القرآنية «أفلا تعقلون».

أولاً - يصوّر القرآن الحياة الدنيا على أنها لهُو ولعب، أي أنها زائفة وزائلة وخداعة ومحدودة، ذلك أن كل إنسان يمارس حياة اللهُو واللعب ويقبل على الملذات والشهوات يكتشف في النهاية أنها سراب خدّاع، يبهر النفس ثم ينطفئ بريقه، فصورة اللهُو واللعب هو نوع من كبح الغرائز والانقياد وراء الرغبات الحسية والمادية.

ثم يصوّر القرآن في المقابل الحياة الآخرة بأنها «الدار» ليشير بذلك إلى الإقامة الدائمة المستمرة، ويصفها بأنه «خير» للذين يتقون . ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقُلُونَ﴾ سورة الأنعام آية ٣٢ .

وفي آية أخرى يصوّر الأشياء التي يحصل عليها الإنسان على أنها «متاع» تترين له بألوان الشهوة والرغبة المادية، ثم يقول عن الحياة الآخرة «وما عند الله خير وأبقى» وكأن المقصود هنا هو أن النعيم الذي ينتظر الإنسان المؤمن «عند الله» في الجنة هو «خير وأبقى» مما في الدنيا .

«والخيرية» في الآيتين للتفضيل، و«الدار» في الأولى، و«أبقى» في الثانية للمقارنة الزمنية .

فالحياة الأولى حياة قصيرة ومحدودة، والحياة الثانية حياة طويلة وأزلية لا تنتهي .

فالمطلوب إذن هو المقارنة والمفاضلة والاختيار، لذلك وجه إليهم الخطاب بهذا الاستفهام الإنكاري «أفلا تعقلون»؟ في ختام الآيتين معاً . فما الهدف يا ترى؟ وهل تفي هذه الصيغة بالتعبير عن القصد والغاية وهو المقارنة والمفاضلة والاختيار؟ هذا ما يوحي لنا به النص في الآيتين

لأن الثنائية أو التقابل أو التضاد يدل على وجوب اتخاذ موقف . فمن يتخذ هذا الموقف غير العقل المفكر ذي الإرادة؟ قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة القصص آية ٦٠ .

ثانياً - يساعدنا على فهم النص السابق ذلك اللوم الذي يوجهه القرآن لبني آدم ، من الذين ضلوا عن الطريق المستقيم وكفروا ولم يستجيبوا لداعي الإيمان ، فيقول لهم ربهم عند إدخالهم النار: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾؟ سورة يس آية ٦٢ .

والصيغة القرآنية واضحة هنا ، إذ يقول لهم: أفلم تكونوا في الدنيا تستخدمون عقولكم وتفكرون في النهاية حتى استطاع الشيطان أن يخدعكم ويضلكم عن سبيل الله؟ .

إنهم يحملون مسؤولية أعمالهم ، والمسؤولية هنا منوطة بفعل العقل ، وإلا فما معنى سؤالهم هذا السؤال عند توقيع العقوبة ، وهي العذاب في النار؟ أليس هذا ربطاً للنتائج بالمقدمات أو ربطاً للجزاء بالأعمال؟ .

ثالثاً - يعود القرآن إلى التاريخ إلى الأجيال السابقة ، فيذكر الناس بآثارهم ، وقد ذمّت مساكنهم وبيوتهم وقصورهم ، وأنتم تمرون عليهم كل صباح ومساء ، أفلا تعتبرون وتتعضون من أخبار الأمم الماضية؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة الصافات آيات ١٣٦ - ١٣٧ .

دراسة تاريخ الأمم السابقة للاعتبار والاتعاظ يقتضي تحريك النفس بواسطة فعل العقل ، فالتاريخ مرآة الماضي بحسناته وسيئاته ، وآثاره آيات

ودلائل على أعمال الأمم السابقة .

هذا ما يؤكد القرآن عندما يذكر توقيع العقوبة على الأمم السابقة التي فسقت وعصت ربها ، فيقول : ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١) فأثارها دليل واضح على تاريخ أعمالها ، وهو دليل اعتبار وتعلم من تجارب الآخرين واتعاظ بها ، لأن تجارب الأمم السابقة دروس لمن بعدها ، يمر بها أصحاب العقول الواعية فيدركون حقائق الحياة ، ويعلمون أن الدنيا ماضية إلى زوال ، وأنها ستصبح أثراً بعد عين ، كما أصبحت آثار الأمم التي يمرون بها .

مواقف مناقضة للعقل

في سياق الحديث عن اليهود ، يذكر القرآن كيف أنهم حرقوا التوراة ، وابتدعوا لأنفسهم أحكاماً حسب رغباتهم وأغراضهم وادعوا أنها من الله ، فكذبوا بذلك عليه ، والكذب على الله جهل به ، بل هو جهل مركب ، لأن الذي يكذب على الله يكذب على نفسه في الواقع والدليل قول الله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) .

وقد ورد فعل العقل بالنسبة إليهم بصيغة الماضي في مجال التحريف والتبديل وذلك في الآية : ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) فدل هنا على الفهم والإدراك ، أي من بعد ما فهموا

(١) العنكبوت آية ٣٤ - ٣٥ .

(٢) البقرة آية ٩ .

(٣) نفس السورة آية ٧٥ .

التوراة حرفوها وبدلوا أحكامها ، وهم يعلمون ذلك ، فهنا فعل العقل يدل على الفهم والإدراك ، لأنهم حرّفوا وهم يعلمون أن هذا التحريف مناقض لأحكام الله فكان فعلهم عن تصميم وإرادة .

وأما ابتداع الأحكام للتجارة بها ، ثم الادعاء أن الله سيغفر لهم لأنهم شعبه المختار ، فقد تساءل القرآن في صددتها : ﴿ أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ ﴾ ؟ ثم ختم الآية مستنكراً ما يفعلون فقال : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) فكشف بذلك التناقض بين أقوالهم وأفعالهم ! .

من ذلك أيضاً ما ذكرناه سابقاً ، عندما ندّد القرآن بهم ، لأنهم يدعون الناس للالتزام بمبادئ الأخلاق ويأمرونهم بالبر ، وينسون أنفسهم فلا يلتزمون بهذه المبادئ التي يدعون إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة آية ٤٤ .

ولما كانوا يلقون المؤمنين فيتظاهرون بالإيمان ، فإذا خلا بعضهم إلى بعض ، لاموا أنفسهم وندموا على الاعتراف بحقيقة الإيمان أمام المؤمنين ، خوفاً من اتخاذه حجة عليهم بعد ذلك .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسُهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة آية ٧٦ .

كل هذه المواقف اليهودية تتناقض مع العقل ، لأنها خداع ونفاق ، لأنها

(١) الأعراف آية ١٦٩ .

تبدیل لکلام الله، لأنها كذب على الله، ومن هنا يأتي التنديد بأصحاب
المواقف، لجهلهم وعدم التزامهم بمبدأ التعقل والهداية والصدق فيقول الله لهم
مؤنباً: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ»؟!.

فإذا كان هذا حالهم مع المؤمنين، فإن القرآن يحذرهم من الثقة بهم
والركون إليهم، مبيناً خداعهم ومكرهم، وتآمرهم وحقدهم، كاشفاً
مكنونات صدورهم من البغضاء والكراهية.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ لَا
يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة آل عمران آية
. ١١٨

جملة شرطية «إن كنتم تعقلون» يساق فيها فعل تعقلون بعد «إن»
زيادة في التحذير والحيلة، لأن الجواب يقتضي الوعي الكامل بهذه القضية
فلا يتخذ المؤمنون أعداءهم ومبغضيتهم أولياء وأنصاراً مع علمهم بحقيقة
مشاعرهم نحوهم.

يأتي هذا التحذير في مكان آخر، فيبين كيف أن دوافع الحقد تجعلهم
يسخرون من الدين الإسلامي وشعائره وعباداته كالصلاة وغيرها، فإذا نادى
المسلمون إلى الصلاة هزئوا منها، وهذا ما يفعله أعداء الإسلام من الملاحدة
والمتعصبين من اليهود والنصارى على السواء إلى أيامنا هذه «ذلك بأنهم
قوم لا يعقلون».

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ
هُزُوءًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ المائدة آية ٥٧ - ٥٨ .

ونفي العقل عنهم لأنهم يجهلون حقيقة الإسلام ويصرون على الكفر والاستهزاء به بدافع جهلهم هذا ، لأن الإنسان عدو ما جهل ، وهؤلاء لا يجوز الإطمئنان إليهم والثقة بهم وموالاتهم ، لتناقض مواقفهم من الإسلام ، ولأن كراهيتهم لهذا الدين وأهله تبدو ظاهرة للعيان من خلال سخريتهم بالمسلمين ، واتخاذهم شعائر الدين مادة للهو واللعب ..

وعندما تحالف بعض المنافقين من آل قريظة مع اليهود من بني النضير ، فأعلنوا إسلامهم من ناحية ووعدوا اليهود بالخروج معهم ومناصرتهم ضد المسلمين من ناحية أخرى ، بيّن القرآن للمسلمين ضعف هذا التحالف لأنه قائم على النفاق ، فأظهر لهم أنهم يحاربونهم وقلوبهم متفرقة خوفاً وجزعاً من المسلمين ، لأن الله ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فهم لا يقابلون المسلمين وجهاً لوجه إنما يقاتلونهم وهم يحتبئون في الحصون خلف جدران تحميهم من بأس المسلمين وقوتهم ، ويقرر القرآن في النهاية « بأنهم قوم لا يعقلون » .

قال الله تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ سورة الحشر آية ١٣ - ١٤ .

ونلاحظ في الآيتين السابقتين أن ختام الآية الأولى هو قوله تعالى في وصف الكفار « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » وفي الآية الثانية ، لا يعقلون بمعنى الإدراك والفهم ، والمترادفات يفسر بعضها بعضاً .. ونفي الإدراك

والفهم عن اليهود والمنافقين تأكيد للتناقض الذي يعيشونه ويمارسونه .

فإذا انتقلنا إلى فئة أخرى، وهم أهل الجاهلية وعقائدهم الوثنية، وجدنا القرآن يذكر ما كانوا يوقفونه من الأنعام على آلهتهم من الأصنام التي لا تدرك أي معنى لهذا الذي يتقربون به إليها، ثم يؤكد أن الذي يفعلونه هو من البدع والخرافات، فيختم القرآن الآية التي تعالج هذه المشكلة بقوله « وأكثروهم لا يعقلون » .

يقول الله عز وجل: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة آية ١٠٣ .

فادعائهم أن الآلهة تطلب منهم هذه الأنعام هو افتراء على الله لأن الأصنام ليست بآلهة، ثم إنها جماد لا تطلب ذلك، وهذا كذب واضح، وهذا تناقض بين مواقفهم وبين التصرف العقلي السليم .

فالتحريف عند اليهود، وابتداع الأحكام لمصلحتهم، وتناقض أقوالهم مع أفعالهم، وخداع المؤمنين، والسخرية من عبادتهم وصلاتهم، كل ذلك يدخل في إطار « الجهل » فكان التعبير بلا « يعقلون » وكذلك القول لمن تمسكوا بتقاليد الجاهلية وخرافاتا ورفضوا النزول عند حكم العقل، والإيمان بالله الخالق .

فإذا سرنا مع بقية الآيات التي تنتهي بهذا التعبير القرآني وجدنا الحديث ينتقل إلى المشيئة الإلهية، والاختيار المنوط بإرادة الإنسان، ذلك أن مشيئة الله اقتضت أن يؤمن من آمن وأن يكفر من كفر، لأن الله بعلمه الأزلي يدرك أن من الناس من سيدفعه جهله إلى رفض الإيمان والإصرار على الكفر فكتب عليه ذلك، وقرره في محكم كتابه « ويجعل الرجس - أي

الكفر - على الذين لا يعقلون».

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة يونس آية ٩٩ - ١٠٠.

فإنكار إكراه الناس على الإيمان، دلّ على حرية الاختيار، وحرية الاختيار تقتضي المفاضلة بين شيئين وهما الإيمان والكفر، وهذه إرادة الله ومشئته أن يخلق النقيضين، وأن يترك للإنسان حرية التمييز بينهما، فيختار الإيمان بإذنه تعالى، وإرادته، أو يختار الكفر، فيكتبه عليه بإرادته ومشئته أيضاً، والتمييز أداته العقل، فإذا اختار الإنسان الكفر على الإيمان دلّ ذلك على جهله وإلغائه لدور العقل، الذي يفترض فيه أن يهدي إلى الإيمان لا إلى الكفر. إلى الخير لا إلى الشر.

أما في مجال أدب السلوك الاجتماعي، واحترام مقام النبوة، فإن القرآن يعلم أتباع النبي ﷺ بأن يكونوا مهذبين عند مناداتهم له، فلا يطلقون أصواتهم عالية من وراء جدار بيته، لأن ذلك دليل جهالة، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحجرات آية ٤.

أحكام الشريعة والعقل

بقيت تلك الآيات التي تتضمن أحكاماً شرعية، فيذكر القرآن أن الله عز وجل أباح كذا أو حرم كذا، ويختم الآيات بقوله «لعلكم تعقلون».

الآيات الأولى تخاطب المؤمنين فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتْ أَدِينُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ويستمر ذكر الأحكام الشرعية حكماً بعد حكم إلى أن تنتهي بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة النور الآيات ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١.

أما الآية التالية فإنها تذكر بعض ما حرم الله على المؤمنين، من أمور تتعلق بالعقيدة، أو بشؤون الحياة عامة، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة الأنعام آية ١٥١.

فإذا بين أو فصل أحكام الشريعة وأدلتها فذلك حتى يدرك الناس أمور دينهم ويعرفوا الحلال من الحرام، فهذه وصايا الله لعل المؤمنين يفهمونها ويطبقونها في حياتهم.

وأحكام الشريعة في الإسلام منوطة بالعقل، لأن التكليف يسقط عن غير العاقل. وهي تساق للعقلاء فقط، لأنهم المخاطبون بالتكليف وتطبيق الأحكام، يفسر ذلك الآية التي تنص على التكليف في حدود الطاقة البشرية «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» وغير العاقل لا يسعه أن يؤدي ما

يتوجب عليه من أحكام الشريعة فكان التكليف من شأن العقلاء وحدهم .

ذلك يسوقنا طبعاً إلى البحث في مسؤولية الإنسان لأنه بالعقل يستطيع أن يميز بين الخير والشر، وبالتالي فإن اختياره أي الطريقين هو الذي يحدد مسؤوليته عن العمل الذي يقوم به، وذلك منهج القرآن « وهديناه النجدين »^(١) ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾^(٢) .

الخطاب دائماً للإنسان العاقل إذن، فإذا تحدث عن الجهاد من الأوثان والأصنام نفى عنها العقل، وذلك عندما يقول لهم: ﴿ أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟ سورة الزمر آية ٤٣ .

فماذا يملك الجهاد من القدرة وماذا يملك من العقل حتى يكون شافعياً للذين يؤمنون به ؟

السؤال نفسه، وهذه الصيغة يستند إلى المنطق العقلي كما نرى، أو كما يبدو على الأقل .

فالطريقة التي تساق فيها الأسئلة طريقة جدلية عقلية، فهو يضرب للكفار مثلاً من واقع حياتهم، فيسألهم:

إذا كان لأحدكم عبد يملكه، فهل يعتبر هذا العبد شريكاً فيما يملك السيد

(١) البلد آية ١٠ .

(٢) الزلزلة آية ٧ - ٨ .

من رزق؟ فكيف تعتبرون أن من خلق الله من العباد هم شركاء له فيما يملك من قدرة؟.

الحديث يقول: ﴿خاطبوا الناس على قدر عقولهم﴾ والخطاب هنا بمقدار ما تعي عقول المخاطبين.

لذلك جاءت الآية تخاطبهم بهذا الأسلوب المنطقي، الذي يوضح الفرق بين الخالق والمخلوق، وأن المخلوق لا يمكن أن يكون شريكاً للخالق في ملكه، وبالتالي لا يجوز للإنسان أن يُسوي بين العبد وربّه ..

قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ، هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة الروم آية ٢٨.

فالتفصيل هنا، أو التبيين، لمن يستطيع إدراك المفصل أو المبيّن سواء كان ذلك من أحكام الشريعة أو العقيدة.

خلاصة

بهذا ينتهي عرض الآيات التي استخدم فيها فعل « يعقلون » ومن خلال هذا العرض نستطيع أن نخرج بنتيجة أولية، إذ يبدو لنا فعل « عَقَلَ » مواكباً للطبيعة يحدثنا عن ظواهرها المختلفة، ويطلعنا على حركتها الدائبة التي تقوم عليها الحياة، حياة الإنسان وحياة الأرض، وأعني بها حياة النبات.

وكذلك يبدو الفعل مواكباً لتطور نشوء الإنسان منذ بداية الإنسان الأول « آدم » حتى نهاية الحياة، يناقش كل فترة من فترات وجوده، وكل مرحلة من مراحل تطوره.

ولما كان الإنسان - في القرآن الكريم - مخلوقاً لله فإن موته ليس نهاية، إنه بداية جديدة، يتحقق فيها حساب ما قدم من خير أو شر في حياته الأولى، لذلك كان لا بد من إيجاد الدليل على أن عودة الإنسان إلى الحياة مرة ثانية بعد الموت قضية ممكنة لأن الله الذي خلق الإنسان أول مرة يمكنه أن يعيده إلى الحياة كما خلقه أول مرة.

ويأتي حوار الأنبياء مع الذين ادعوا أنهم آلهة كفرعون أو الذين عبدوا الأوثان، لإظهار تفرد الله بالقدرة على الخلق والإحياء والإماتة، وتسيير الكون بإرادته.

ثم تبدو الحواس وكأنها نوافذ نطل بها على المعرفة، تشارك في الفعل العقلي، فإذا عجزت حواسه عن العمل عجز عقله، فالإنسان قد يعطل حواسه فلا يرى ولا يسمع ولا يعقل، وهنا يبدو أشبه بالحيوان الذي لا يستفيد من حواسه في معرفة حقائق الكون لأنه لا يعقل، فالفرق بين الإنسان والحيوان، هو العقل الذي يتميز به الأول عن الثاني، فإذا فقد الإنسان التمييز استوى مع الحيوان.

ورُب قائل يقول: ما هو دور العقل إذن؟ هل هو استعراض الطبيعة؟ هل هو تتبع مراحل وجود الإنسان؟.

فنقول: القرآن وهو يربط فعل العقل بهذه الظواهر، إنما يريد من الإنسان أن يمارس دوره الحقيقي عن طريق الفعل «يعقل» أي أن يسلط أضواء ذلك المصباح الكاشف في داخل نفسه على أشياء الطبيعة، وعلى أشياء الإنسان، وأن يكون ذلك بكل ما يملكه من أدوات الكشف والمعرفة بحسه ببصره بسمعه.. بل ببصيرته النفاذة لكي يدرك أسرار الكون والقوانين العلوية التي تقف وراء نظام الطبيعة المدهش، والنواميس التي

تحكم حياة الإنسان ووجوده .

ونعتقد أن الهدف الأول هو الإيمان بأن وراء هذه القوانين والنواميس قدرة خارقة ذات إرادة فعالة تصنع المعجزات ومنها الكون والإنسان والطبيعة .

فعل العقل - كما يبدو لنا - غير منفصل عن العقل ، والعقل هو أداة المعرفة أداة الفهم والإدراك واستنباط الحقائق الكونية .

من أجل هذا ربط القرآن أسباب نزوله بلسان عربي بفعل العقل ، وذلك لكي تفهمه بادية ذي بدء الأمة العربية التي نزل بلسانها القرآن ولأنها هي التي ستحمل عبء نشر هذه الرسالة ، فطلب منها أن تعقل وأن تفقه وأن تعلم وأن تقرأ .

فإذا وقف الإنسان موقف التشكيك ، استخدم القرآن كافة الأمثلة العقلية التي توضح له الحقيقة ، فالتاريخ مليء بالأحداث الكبيرة وهي بدورها مليئة بالمواعظ والعبر ، ودروس التاريخ تقتضي وجود العقل الدارس والعقل الفاهم المدرك لما تنطوي عليه من حكم تفيد الإنسان في حياته ، لأن الماضي لا ينفصل عن الحاضر والمستقبل والربط الزمني واستخلاص التجارب هو دور العقل

وتجارب الماضي مرآة لفعل الخير أو فعل الشر ، ومن خلال هذه التجارب يستطيع الإنسان أن يتخذ موقفاً ، أي يقارن ثم يختار ، والمقارنة والاختيار هما فعل العقل .

الأمثلة كثيرة كما قدمنا ، والأنبياء السابقون كانوا يحاجون خصومهم بالحجج العقلية ، وكانوا يحاربون الوثنية في شتى صورها ، لأن الأوثان ما

هي إلاّ جماد لا ينطق ولا يعقل ولا يقدر على شيء ، وهناك مقارنة بين الإله العاقل والجماد الذي لا يعقل ، وبين الإنسان العاقل والحيوان الذي لا يعقل ، كل ذلك من أجل أن لا يعبد الإنسان أصناماً يصنعها بيديه ، ويكفر بالإله الذي يسيّر الكون كله ، ومن أجل أن لا يهبط الإنسان إلى مستوى الحيوان في إلغاء عقله وعدم الاستفادة من هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه .

العقل في القرآن إذن هو اسمى ما في الإنسان ، لأنه هو الذي يميزه عن الحيوان ، وهو الذي يصله بالكون وخالق الكون ، فهو حقيقة النور الذي يكشف له أسرار المعرفة ، ليؤمن إيماناً يقينياً مدركاً واعياً .

الفصل الثاني

الألفاظ المرادفة للفظ العقل

اللب، الفكر، الحلم، النهى، الحجر، كل هذه الألفاظ مرادفة للفظ العقل، يشاركها في المعنى أفعال تتصدر الكثير من الآيات مثل «أنظروا» و «تبصرون» و «ألم تر» وهي تؤدي إلى معنى التأمل والتفكير، ولا بد لنا من أن نستعرض هذه الألفاظ لفظة لفظة حتى نتبين مدى تعبيرها عن معنى العقل، خاصة وأن بعضها كاللب والنهى والحلم والحجر يأتي بصيغة الاسم، فإذا كان اللفظ هو الشكل والمضمون هو الجوهر فإنه يخيل إلينا أن مشكلة ورود مادة «عَقَلَ» بصيغة الفعل فقط في القرآن الكريم تنحل بأن ورود العقل بصيغة الاسم جاء بألفاظ أخرى قد لا تقل قوة في التعبير عن المعنى نفسه، خاصة وأن اللغة العربية من اللغات الغنية بالمترادفات التي تلتقي عند معنى رئيسي واحد وتتفاوت في إيجاءاتها وإشارتها إلى معان أخرى، دقيقة الفروق، تثري اللغة وتساعد على التوسع والحركة اللفظية والمعنوية الحرة.

اللب

وأول الآيات التي تحدد معنى اللب وتبين أبعاده هي آية ترد فيها صفة

« أولى الألباب » بأنهم « يذكرون » و « يتفكرون » والذكر والتفكر عملان من أعمال العقل .

فإذا قارنا بين آيتين أولاهما في سورة البقرة ، وتبدأ بقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ وتنتهي بقوله : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . وثانيتها تبدأ أيضاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ تبين لنا أن القوم الذين يعقلون هم أولو الألباب أنفسهم ، أي أصحاب العقول .

وها نحن نضع الآيتين أمامنا لنجري المقارنة بينهما ..

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة آية ١٦٤ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ سورة آل عمران آية ١٩٠ - ١٩١ .

نلاحظ أن الآية الثانية أضافت بعداً جديداً إلى موضوع العقل الذي نحن في صدد دراسته .. فإذا حلّ « أولو الألباب » مكان « قوم يعقلون » وتبين لنا أن المجال الفكري الذي يجمع بينهما في الآيتين واحد .. فمن هم أولو الألباب هؤلاء ؟ .

أولاً ، هم الذين « يذكرون » الله في جميع الحالات سواء كانوا قائمين أو قاعدين أو راقدين على جنوبهم ، أي أنهم لا ينسون الله أبداً ، بل يشعرون أنه معهم في كل زمان ومكان لا ينقطعون عن تذكره والاستغراق فيه حيثما كانوا وأنى وجدوا .

ثانياً ، هم الذين « يتفكرون » في خلق السموات والأرض ، والتفكر هو دور العقل الدارس الباحث ، الذي لا ينفك عن التأمل والمراقبة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة الحقيقة .

والدليل على ذلك أن هؤلاء بعد تأملهم في السموات والأرض ، ووقوفهم على دقة النظام الكوني يعترفون بمعجزة الخلق ويقولون بعظمة الخالق ، فيقولون : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ » أي ما خلقت الوجود إلا لغاية وهدف وأنت منزّه عن اللهو والتسلية والعبث .

لا مرأى هنا ، أمامنا عقل ذاك لا ينسى ، مفكر لا يفتر عن التفكير . فإذا انتقلنا إلى آية أخرى وجدنا أولى الألباب يتصفون بصفات جديدة هي التفهم العميق الواعي ، والاهتداء إلى المفيد النافع من القول الذي يستمعون إليه ، واتباع الرسول ﷺ فيما يتلو عليهم من الوحي السماوي .

قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ سورة الزمر آية ١٨ .

فإذا كان الموقف يتصل بآيات القرآن « المحكمات » أو « المتشابهات » وجدنا أمامنا فريقين فريقاً راسخاً في العلم ، متشبثاً من المعرفة ، يدرك معاني الآيات إدراكاً يقينياً .. وهم « أولوا الألباب » . وفريقاً آخر يتشكك

ويستريب لأن في قلبه زيفاً وضلالاً يبعده عن الفهم الصحيح والإدراك السليم فيلجأ إلى « المتشابه » من الآيات يؤولها حسب ما يشتهي رغبة في إثارة الفتن وبعث الشك .

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ، آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران آية ٧ .

« فأولوا الأبواب » هنا « علماء » « راسخون في العلم » يتذكرون ويتدبرون في آيات الله ، ويقولون آمنا بهذا القرآن وآياته المحكمات والمتشابهات ، كل من عند ربنا ، فلا يتطرق الشك إلى عقولهم ، ولا يتسرب الريب إلى قلوبهم .

إنهم مؤمنون قانتون اتقياء ، يعبدون الله آناء الليل ، ويتبتلون إليه في الركوع والسجود ، يحذرون عذاب الآخرة ، ويرجون رحمة الله ، وهذا العمل الدائم الدائب هو نتيجة من نتائج علمهم بالله وإيمانهم بجلاله وقدرته وعظمته .

« أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . سورة الزمر آية ٩ .

فإذا انتقلنا إلى « الحكمة » وهي خير ما يتصف به إنسان ، وخير هبة من الله لعباده المؤمنين ، نجدها تذكر أثناء الحديث عنهم ، وكأنها صفة من صفاتهم الخاصة ، التي يمتازون بها عن سائر الناس .

يقول الله عز وجل: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ». سورة البقرة آية ٢٦٩.

فورود «إنما» وهي للحصر في الآية الأولى، وورود «ما» وبعدها «إلا» في الآية الثانية للدلالة على الحصر أيضاً، يؤكد أن التذكر هو صفة الحكماء والعلماء، وأنهم أولو الأبواب، يأتي ذلك في صيغة أخرى، عندما يسند إليهم القرآن صفة الإيمان بالوحي، وأنه حق من عند الله.. وأن ذلك الإيمان دليل العلم.. والدليل هو المقابلة بين معنيين «أفمن يعلم» «كمن هو أعمى» فدل العلم على رؤية الحق واتباعه، ودلت العمية على الجهل به والتنكر له..

يقول الله عز وجل: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ». سورة الرعد آية ١٩.

ويأتي تدبر الآيات مع التذكر مؤكداً هذا المعنى عندما يكون الحديث عن القرآن وأنه بلاغ للناس، يعرفهم أوامر الله ونواهيه، وينذرهم ويحذرهم من الوقوع في الشرك والمعاصي، ويرشدهم إلى وحدانية الله وتفرده بالخلق.

يقول الله عز وجل: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ». سورة ص آية ٢٩.

ويقول تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ». سورة إبراهيم آية ٥٢.

وينتقل القرآن إلى الحديث عن الطبيعة، وما فيها من دقائق واسرار، وكيف ينزل الله الماء من السماء، فينسب في باطن الأرض، ويتحول إلى ينابيع صافية يشرب منها الناس، وكيف أن الله ينبت بهذا الماء زرعاً مختلفاً

ألوانه وأنواعه، ثم ينضج هذا الزرع فتراه مصفراً بلون الذهب وذلك كالقمح وغيره، ثم ينتقل تدريجياً إلى يباس، ويتحول إلى حطام.

إنها قصة التحول والتغير، والانتقال من مرحلة إلى مرحلة في الحياة والطبيعة، بقانون مرسوم، وناموس محكم.

يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلَفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . سورة الزمر آية ٢١ .

لماذا التركيز على «التذكر» و«الذكرى» بالنسبة لأولي الألباب وحدهم؟ لأنهم أصحاب العقول الناضجة المفكرة كما يبدو من سياق الآيات، وهم الذين يستفيدون من التأمل والبحث في ظواهر الطبيعة المختلفة أكثر من غيرهم.

وهم كذلك يعرفون الحكمة من ذكر القرآن لقصة موسى عليه السلام وبني اسرائيل، إنها عظة وعبرة للمؤمنين «أولي الألباب».

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ. هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . سورة غافر آيات ٥٣ - ٥٤ .

وأما قصة يوسف مع إخوته وأبيه، فهي تساق أيضاً للهداية والإرشاد، حتى يتعظ بأحداثها أصحاب العقول السوية السليمة، لأنهم وحدهم الذين يستفيدون من قصص الأمم السابقة يأخذون عنها العبر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . سورة يوسف آية ١١١ .

فإذا انتقل القرآن إلى الحديث عن الحلال والحرام نراه يصف الحلال بالطيب، والحرام بالخبيث، ويقرر أن الخبيث وإن أغرى الإنسان بانتشاره وذيوعه وأثار الرغبات والشهوات وكان موضع إعجاب البشر لما فيه من متعة عابرة، فإن الخبيث لا يستوي مع الطيب، والحلال لا يستوي مع الحرام من الناحية الشرعية والأخلاقية.

وهذه المقارنة تساق إلى أولى الأبواب كي يتقوا الله ويلتزموا بالحلال ويتعدوا عن الحرام.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. سورة المائدة آية ١٠٠.

ولأن الأمر بالتقوى يدرك قيمته أصحاب العقول المؤمنة الذكية، فإنه يساق مع تبيان بعض أحكام الحج الأخلاقية والدينية، وأن الالتزام بهذه الأخلاق هو الخير كل الخير للإنسان المؤمن في الدنيا والآخرة.

«الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ، وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. سورة البقرة آية ١٩٧.

وبعد ذلك تأتي آية اعتبرها العلماء من أجل الآيات التي تتحدث عن الحكمة من «القصاص» وتشريع أحكامه في معاقبة المجرمين، وذلك بإيجاز واختصار وعمق وشمول.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة آية ١٧٩.

قالوا:

- أولاً - لأن العقوبة فيها زجر لكل مجرم وفيها إنقاذ له من الجريمة .
 - ثانياً - تقرير أن القصاص فيه حياة المجتمع لأنه يحميه من الاعتداء .
 - ثالثاً - فيه الأمن والطمأنينة لأولى الألباب من المؤمنين .
 - رابعاً - أن القصاص من جنس العمل .
 - خامساً - أن العدل يقتضي عدم الاشفاق على المجرم لما في عمله من اعتداء على الحياة نفسها ، ومن أجل انقاذ الحياة شرع القصاص .
- فإذا كان أولو الألباب هنا هم القضاة وأولو الأمر ، فمن باب أولى أن تكون الدعوة لهم بتطبيق العدالة وزجر المجرمين حماية لكل إنسان وحياة كل إنسان .

مختصر

هنا صورة واضحة للعقل المؤمن في القرآن ، فهو في حالة تأمل دائمة للكون تجعله يذكر الله أمام كل مظهر من مظاهر الحياة ، ويتفكر في خلق السموات والأرض ، ويقر بوجود الخالق العظيم .

وهو عقل يميز بين الخير والشر ويختار الأفضل والأحسن .

وهو عقل عالم ، راسخ في العلم ، هُدي إلى الحكمة ، وهو ثابت اليقين ، قوي الإيمان ، ينجح إلى التقوى في جميع أموره ، ويعتبر من قصص الأمم الماضية ، ويفرق بين الحلال والحرام فيختار الحلال ، ثم هو عقل يطبق العدالة فيقتص من المجرم لأن في القصاص حياة الناس جميعاً .

فإذا كان « اللب » في اللغة خالص كل شيء ، فيمكننا القول إنه في

القرآن ذروة التفكير، ومناط الحكمة، وأساس التمييز، وينبوع الإيمان والعلم واليقين.

هو عقل متميز إذن، وليس عقلاً عادياً، بل هو عقل الصفوة من الناس، والنخبة من المفكرين، والذين وهبوا الحكمة.

فإذا ذكر فعل العقل في الآيات السابقة التي وردت فيها مادة «عَقَلَ» على أساس الاثبات أو النفي، والتنديد والانكار، والعلم والجهل. فهنا في مادة «لَبَّ» يأتي ذكر العقل في مجال المديح والتكريم والثناء.

هناك قد يعقل الإنسان وقد لا يعقل، قد يؤمن وقد يكفر، قد تفيده الآيات وقد لا تفيده، يفهم أو لا يفهم، أما هنا فهو يعقل ويفهم ويفكر ويتذكر ويعلم ويختار الأفضل ويهتدي إلى الأحسن ويؤمن ولا يرتاب أو يشك في آيات الله.

«فاولو الألباب» إذن هم أصحاب العقول الذكية من العلماء المؤمنين. هكذا يبدو لنا المعنى الذي ساقته إلينا الآيات، وهكذا يحس المتابع لها وهو يقرأها ويحاول تحليل ما تنطوي عليه من مضامين.

(في المصطلح الفلسفي، العقل هو ملكة بالقوة؛ اللب هو دائماً ملكة بالفعل أو هو سمة).

الفكر

التفكير عملية عقلية مجتة، تستلزم البحث والدرس والتقصي، وكما سبق لنا ورأينا للفعل «يعقلون» يرد في نفس المكان الذي يرد فيه وصف أولي الألباب، في الحديث عن خلق السموات والأرض، رأينا كذلك كيف ورد

الفعل « يتفكرون » في وصف أولي الألباب وهم يتفكرون في خلق السموات والأرض، إذن فهناك علاقة ظاهرة بين الفعل « يعقلون » والفعل « يتفكرون » و« أولي الألباب » لأن هناك تلازماً بين الثلاثة، لأن الوظيفة العقلية واحدة تقريباً.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. سورة آل عمران آيات ١٩٠ - ١٩١.

والتفكر في الإسلام عبادة، بل هو يساوي عبادة سبعين سنة كما ورد في حديث قيل إنه ضعيف، وهذا الحديث يقول: « فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة ».

وهذا يساق في معنى التأمل والتفكر في ملكوت الله، وما فيه من دلائل على وجوده وقدرته، لأن عمل الفكر هو الوصول إلى الحقيقة، وذلك يحصل في الإسلام عن طريق التفكير فيما خلق الله من آيات.

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله، فإنكم لن تقدروه قدره ».

ومع آيات التفكير نعيش قضايا الإنسان والطبيعة، ونتأمل في أعماق النفس البشرية، وفي عظمة هذا المخلوق الذي وجد على نسق فريد دقيق يجعله آية من آيات هذا الكون.. ثم ننتقل من الإنسان إلى الوجود من حوله، إلى السموات والأرض، وما بينهما من دلائل وبراهين تؤكد أن كل شيء في هذا الكون يوحى بقدره الخالق المبدع، وأنه وجد بإرادته، وأن

هذه الإرادة هي التي تتحكم في الزمان والمكان، وهي التي قدرت لهذا الكون غايته.

ورغم نعمة العقل التي أنعم بها الله على عباده للوصول إلى هذه الحقائق فإن كثيراً من الناس ينكرون الخالق وينكرون يوم الحساب ولا يقرون بهما. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾. سورة الروم آية ٨.

والتأمل في الظواهر التي تطرأ على النفس البشرية من حياة أو موت ومن نوم أو يقظة، وكيف أن الله يسلب الإنسان روحه في الموت فينام نومة لا صحوة منها، بينما تظل الروح في جسده في النومة الصغرى، حيث تبقى إلى أجل مسمى، وهو نهاية عمر الإنسان.

إن في هذه الظواهر التي تثبت أن الإنسان لا يملك من أمره وأمر حياته شيئاً، دلائل وبراهين يدرك حقائقها أولئك الذين وهبوا عقلاً مفكراً، وتفكيراً سليماً.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة الزمر آية ٤٢.

إن الإنسان يعتبر أعظم مخلوقات الله، ولذلك سخر له كل ما حوله من موجودات في السموات والأرض، من أجل أن تستقيم له شؤون حياته، فهو يحتاج إلى الشمس تعطيه الضوء والحرارة والحياة، وهو يحتاج إلى النجوم والكواكب لارتباطها بالأرض التي يعيش فوقها، ويحتاج إلى الماء والشجر

والشمر والزرع، ويحتاج إلى الهواء، فخلق له كل شيء بقدر، مما جعل حياته تتكامل مع هذا الوجود.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة الجاثية آية ١٣.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة الرعد آية ٣.

هنا أيضاً تبدو ظاهرة الثنائية آية من آيات الله، فالشمرات نتيجة من نتائج التلقيح الذي يتم بين الشجر، وكأن هذا الزواج في الطبيعة يتم بين «الأشياء» أيضاً، فيأتي التعبير «بيغشي» الليل النهار للدلالة على ارتباط المخلوقات جميعاً من حياة وجماد بقانون واحد وناموس واحد، يعتمد الثنائية كقاعدة في الطبيعة.

والماء ينزل من السماء فيكون شراباً، ويكون نباتاً، ويكون حياة، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة النحل آية ١٠ - ١١.

ولما كان النحل وخلاياه مثالاً للعمل الفطري المنظم الذي ينتج بالغريزة غذاء للإنسان، تجتمع فيه روعة الأداء مع روعة الطعم وعظمة الفائدة الصحية، فقد أشار القرآن الكريم إلى الإرادة الإلهية، وراء هذه الظاهرة الكونية المدهشة فقال:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ. ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة النحل آية ٦٩.

هنا مصنع إلهي للغذاء تقوم بأداء العمل فيه حشرة، هذه الحشرة يبلغ عملها حداً من الدقة يثير الفكر ويدفعه إلى التأمل أكثر فأكثر في خفايا الكون واهرارها، إنها إرادة الله تقف وراء هذا العمل، وليست إرادة النحل التي تقوم بكل هذه المهمة الصعبة المعقدة.

فإذا انتقلنا إلى الحياة الإنسانية، ودرسنا سر استمرارها، وجدناها تقوم أيضاً على قاعدة ثنائية، ولكنها ليست مادية بحتة، فهي تضيف إلى الناحية الطبيعية التي تربط الرجل بالمرأة قضية عاطفية، هي أن الرجل يسكن إلى زوجته ويشعر بطمأنينة نفسية وود عميق يشده إليها، وكذلك المرأة يشدها إلى الرجل، ذلك الإحساس العاطفي الذي يجعل كلا منهما جزءاً لا يتجزأ من الآخر، وهذا معنى يحتاج إلى التفكير والتأمل لأنه يدل على وجود إرادة وراء المادة، وراء الطبيعة، تحرك المادة وتحرك الطبيعة، وتجعل لها عواطف ومشاعر وأحاسيس، فإذا كان الإنسان مادة من ناحية فهو عاطفة وإحساس ومشاعر من ناحية أخرى.. فأى تفسير لهذه الظاهرة لا يمكن أن يخضع لما تخضع له المادة الجامدة من التجارب العلمية التي يقوم بها المختبر، لأنها فوق قدرة كل مختبر على التفسير والتحليل.

يصور القرآن ذلك بكل بساطة فيقول:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة الروم آية

لماذا البحث في هذه القضية الصغيرة وهي تلقيح الثمار؟

لماذا البحث في قضية النحلة وكيف تصنع العسل؟ لماذا البحث في العلاقة العاطفية التي تربط الرجل بالمرأة؟

إن أسرار الحياة تقف وراء الكثير من هذه القضايا، ولمحات القرآن، أو إشارات، أشبه بالضوء القوي يسلطه عليها ليفكر الإنسان فيها تفكيراً عميقاً، ولا يمر بها مروراً سطحياً كما اعتاد الناس أن يفعلوا.

إنه ليس كتاب علم من علوم الطبيعة كما قدمنا ولكنه كتاب يضع أمام الفكر الإنساني صوراً من الحياة ويدعوهم إلى التأمل فيها، لعلهم يدركون عظمة خالق الحياة من مظاهر الحياة نفسها.

ولكي لا يصيب الإنسان الغرور بما حققه من مكاسب في الحياة الدنيا، ولكي لا يغتر بقدرته وتفوقه، يصوّر له الحياة الدنيا بصورة من الطبيعة وأنها ليست خالدة.. إنه يقدم هذه اللوحة:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . سورة يونس آية ٢٤ .

لماذا هذه اللوحة الفنية الناطقة بالعظة والعبرة؟ لماذا هذا التصوير للحياة الدنيا ومصيرها؟

يجيب القرآن: «كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون» .

إنه محاربة للاغترار بما بين يدي الإنسان من ماديّات أو مظاهر غنى وثروة وقوة وسلطان، إنه تعريف بحقيقة الحياة الدنيا وأنها فانية، ولذلك إذا فكّر الإنسان تفكيراً سليماً فإنه لا يطمئن إليها، بل يعمل للآخرة. التفكير دائماً - كما يبدو لنا - هو في خدمة الإيمان، في خدمة العقيدة الدينية وأهدافها، وهو يهدف إلى انتصار الروحانيات على الماديّات، وذلك عن طريق كشف الحقائق المادية وتقريب صورها إلى الأذهان.

لنتأمل تأملاً سريعاً بعض الصور القرآنية التي ختمت بالدعوة إلى التفكير:

١ - صورة المنافق الذي يعمل العمل الخير أو يتصدق ويذهب ذلك بالرياء أو بالمن والأذى، يمثله أو يمثل عمله بصخرة يعلوها التراب هبط عليها المطر فأزال طبقة التراب من فوقها فإذا هي ملساء لا شيء عليها، وهكذا يذهب عمله كما يذهب التراب من فوق الصخرة.

٢ - أما صورة المؤمن الذي ينفق في سبيل الله فعمله كمثل بستان يعطي ثماره مضاعفة، حتى ولو لم يصبه إلا المطر القليل.

٣ - ويعود إلى عمل المنافق فيشبهه بأنه كمن يملك بستاناً من نخيل واعناب تجري من تحته الأنهار، وفيه من كل الثمرات، وقد أصبح صاحبه كبيراً في السن وله ذرية صغار وينتظرون ما ينتجه هذا البستان، فأصابه إعصار فيه نار فاحترق، «كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون». وبعد توصية المؤمنين بالإنفاق من المال الحلال الذي يكسبونه، وأن الشيطان يعدهم الفقر ويخوفهم من الانفاق، وأن الله يزيدهم من فضله، تأتي الآية التي تقول: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. سورة البقرة آية ٢٦٩.

العلاقة واضحة هنا بين تلك الصور المتتابعة التي يعرضها القرآن وبين التفكير والحكمة وأولي الأبواب كما سبق وقدمنا.

إنها دعوة للمقارنة بين الكرم والبخل بين الخير والشر بين الإخلاص والرياء لاختيار الطريق الأفضل والأحسن.

إن الآيات التي تقدم لنا هذه الصور، تأتي على نسق بديع من التتابع والمقارنة والتشبيه البليغ، الذي يمس وجدان الإنسان، ويحرك مشاعره الإنسانية.

يقول الله عز وجل:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَةً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِبَغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشَبِهُنَّ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا

وَابِلٌ فَطَلَّ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. أَيْوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة البقرة الآيات ٢٦٣ - ٢٦٦.

إن الأخلاق الإنسانية وما فيها من حرية اختيار، تظهر على حقيقتها في هذا العرض والمقارنة بين العمل الصالح والعمل السيء، بين الإخلاص

والرياء، والتفكير من أجل أن يتحمل الإنسان مسؤولية عمله، لأن عمله يجب أن يكون عن قناعة ذاتية، أي يجب أن يكون نابعاً من ضميره، وهذا يجرنا إلى البحث في علاقة الضمير بالعقل أو بالتفكير في القرآن، وإلا فما معنى هذه الصور بلمساتها الإنسانية العميقة غير تربية الضمير وإيجاد الوازع الأخلاقي في أعماق النفس البشرية عن طريق التفكير وإعمال العقل؟

الدليل على ذلك أن القرآن يقرر أن الأمثال إنما هي ليتعظ بها الناس ويعتبروا قال تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. الحشر آية ٢١.

إن هذا التصوير البليغ نوع من الإيحاء للعقل البشري برهبة المعاني القرآنية وقدسيتها، حتى يتأثر الإنسان بما يساق إليه من أمثلة وتعاليم ومواعظ فيظل ضميره على خشية من الله ومراقبة له.

تربية الضمير توجد الوازع الذي يرد الإنسان عن الغي والشرور، وهذا ما تعبر عنه آيات كثيرة في القرآن.

قل - يا محمد - إنما أعظمكم بواحدة، أن تقوموا (مخلصين) لله، اثنين اثنين، أو واحداً بمفرده ثم تتفكروا وتبحثوا في حقيقة محمد، فهو عاش معكم فترة طويلة وما عرفتم عليه جنوناً أو دخلاً في عقله، ولكنه نذير جاء ينذركم بما ينتظر العصاة والكافرين من عذاب شديد في الآخرة.

آية من الآيات التي تدعوهم إلى التفكير أي تدعوهم إلى البحث في ما كان عليه محمد من عقل، وأنه ليس بمجنون، وأنه واعظ ونذير.

إقرار أن القرآن جاء للانذار، ونفي الجنون عن محمد - بعد أن أشاع الكفار ذلك - والجنون ضد العقل، وهذا معناه أن العقل هو الميزة الأساسية التي دافع القرآن بها عن محمد، بل هو الدليل على صحة الدعوة التي جاء بها محمد.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا. مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ . سورة سبأ آية ٤٦ .

ونفي الجنون واثبات نقيضه وهو العقل ليس ادعاء يلقيه القرآن دون أدلة، بل يقول لهم هذا صاحبكم محمد نشأ بينكم وعاشتموه فترة طويلة من الزمن تزيد على الأربعين عاماً قبل الدعوة فما عرفتم عليه جنوناً قط، بل كان مثال التعقل والإتزان، والتعبير بصاحبكم أي الذي صحبتتموه فترة طويلة .

وتهمة الجنون التي وجهت إلى محمد سوف نقف عندها قليلاً لأنها ذات أبعاد قوية في اثبات أهمية العقل التي ارتكز إليها الإسلام في الداعية الذي حمل الرسالة وبشر بها، وكيف أن أعداء الدعوة اتخذوا من الجنون وهو نفي العقل وسيلة لمحاربة الرسول وتكذيبه .

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا، مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ . الاعراف آية ١٨٤ .

وعندما نتابع الآيات التي ورد فيها الفعل « يتفكرون » نجد القرآن يتحدث عن الرسل السابقين وأنهم رجال وبشر أوحى إليهم مثل محمد، وأنهم جاؤوا بالحجج البينات وبالكتب السماوية كما أنزل على محمد القرآن ليبين للناس أحكام الدين وقضايا العقيدة التي كلفوا بها « ولعلمهم يتفكرون » .

ثم يأمره الله أن يبلغ: قل - يا محمد - لا أقول لكم عندي خزائن الأرض من أموال وثروات مادية، ولا أدعي علم الغيب، ولا أقول لكم إني مَلَكٌ من الملائكة، إن أتبع إلا ما يوحى إلي من القرآن ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون﴾.

يقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة النحل آية ٤٣ - ٤٤.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. سورة الانعام آية ٥٠.

نعود إلى عرض الحقائق والمقارنة بينها لتوضع أمام الفكر بينة واضحة، فمحمد كما رأينا قبلاً ليس بمجنون ولكنه نذير، وهو كغيره من الرسل يوحى إليه من الله وجاء بالقرآن لتعليم الناس، ثم هو بعيد عن الإغراء المادي، ولا يدعي لنفسه قوة فوق قوته كمعرفة الغيب مثلاً، ولا يدعي أنه مَلَك بل هو إنسان عادي بعثه الله لبشر بتعاليمه ويهدي الناس إلى الحق والمقارنة بين الأعمى والبصير، هي مقارنة بين الجهل والعلم بين الضلال والهدى، بين الإنسان الذي أغلق عقله عن المعرفة والإنسان الذي فتح عقله لها. والسؤال «أفلا تتفكرون»؟ موجه هنا إلى الرافضين المنكرين الذين يجادلون في صدق محمد، والذين فضلوا الضلال على الهدى، فهي تساق بنفس الأسلوب الإنكاري السابق «أفلا تعقلون»؟

وكذلك القصص - كما عرفنا - تروى للعتة والعبرة، وها هو القرآن

يقص حكاية أحد علماء بني اسرائيل وقد أغراه المال فنقض عهد موسى ،
فيشبهه بالكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث ، وذلك تحقيراً له
لإقباله على الدنيا فهو يد لسانه جشعاً وطمعاً ، وهذا تصوير لحال اليهود في
نفس الوقت الذين أغرتهم الدنيا فامتنعوا عن تصديق الأنبياء والرسل
كعيسى ومحمد . لأن القرآن يختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ذلك مثل القوم الذين
كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ .

يقول الله عز وجل :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ
مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ،
فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . سورة الأعراف
آية ١٧٥ - ١٧٦ .

فالقصة تاريخ ، والتاريخ شاهد على الأحداث الماضية ، والعبرة أمام كل
منكر يستطيع الاستفادة من هذه الأحداث .

فإذا انتقل القرآن إلى الأحكام الشرعية عرضها بأسلوب الحوار ، وبين
علل التحريم إذا حرم . ليقنع الإنسان بحكمة التحريم هذه ، مثلاً :
« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ؟

قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .
وَيَسْأَلُونَكَ : مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟

قُلْ : الْغَفْوُ .

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة البقرة آية ٢١٩ .

الاثم الكبير فيما يعرض للمخمور من أمور يغيب فيها العقل ويترتب عليها الكثير من الشرور والمشاكل مع الآخرين ، والنفع فيما يهيأ للإنسان من الفرح والبهجة ، ولكن الشر في الخمرة أكبر ، وخطرها على الإنسان يزيد على نفعها له . من هنا كانت علة التحريم ، وكذلك القمار بسبب ما يعرض الإنسان للخسارة المالية .

أما الانفاق من المال في سبيل الله كالصدقة وغيرها فما زاد على حاجة الإنسان بحيث لا يؤثر ذلك على قوته وقوت عياله ، وجاءت كلمة « العفو » أي الزيادة عن الحاجة مختصرة وافية لتعبر أبلغ تعبير عن يسر الأمر وسهولته . ووجود الفعل « يتفكرون » في نهاية بعض آيات الأحكام يؤكد الجانب العقلي في فرض هذه الأحكام حتى يطبقها الإنسان المؤمن عن قناعة و يقين .

ثم إن الآية الوحيدة التي جاءت بصيغة فعل الماضي ، وهي تتحدث عن أحد زعماء قريش وتصوره وهو يبحث عن فكرة ينفي بها أن القرآن كلام الله فتقول: ﴿إِنَّهُ فَعَّرَ وَقَدَّرَ، فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ . سورة المدثر آية ١٨ - ١٩ .

والتفكير مع التقدير هنا هو نوع من التصوّر أو التخيل للمجيء برأي يوافق هوى صاحبه ، فهو تفكير يحمل بين طياته سوء النية والعناد والمكابرة .

رأينا كيف يرتبط التفكير باللب من ناحية، وكيف يرتبط بالفعل « يعقلون » من جهة وروده في نفس الصيغة والمكان من ختام الآيات من ناحية أخرى، فدلّ ذلك على أن المجال المعنوي الذي تعالجه هذه الألفاظ الثلاث لب، وفكر، وعقل، واحد، وأنها تشترك في التعبير عن القضايا العقلية بحيث لو رفعنا لفظاً ووضعنا مكانه لفظاً آخر لأدّى إلى نفس المعنى مع فرق طفيف يوحي به اللفظ نفسه أو توحي به المعاني التي وردت قبله أو بعده.

ونحن على هذا الأساس نعيش ولا شك مع الجوهر الأساسي للتفكير، مع العقل، وقد رأينا كيف تحثنا الآيات السابقة على التفكير في النفس الإنسانية وأسرارها، وملكوت السموات والأرض، وأسرار العلاقات الإنسانية والعواطف الوجدانية بين الزوج والزوجة، وكذلك في أسرار تلقيح الثمار، وحتى في عالم المخلوقات الصغيرة كالنحلة وعملها المدهش العظيم في إنتاج العسل وكيف يتم ذلك.

كل هذا من أجل أن يرتقي الإنسان بفكره إلى الأعلى، إلى حيث يدرك خفايا الطبيعة وأسرار الإعجاز فيها.

ثم نرى هذه الآيات وهي تعرض لنا صوراً ولوحات فنية معبرة تقرب إلى الأذهان أحوال الدنيا في شتى صورها، من حالة الثروة والجاه والمال وجميع المغريات التي تخدع الإنسان، إلى حالة ذهاب هذا كله عن طريق الكوارث أو الموت، وكأن الغني لم يكن غنياً، والقوي لم يكن قوياً، وكأن صورة الحياة الفاتنة لم تكن موجودة على الإطلاق.

ثم تصوير الأعمال الحسنة، وتصوير الأعمال السيئة، ترغيباً أو ترهيباً، كل ذلك لعرض الحياة بوجهيها المظلم والمضيء، ليقارن الإنسان ويتخذ موقفاً «عقلياً» في النهاية.

فالأمثال تضرب للناس لتكون دروساً يعتبرون بها ويتعظون ويتفكرون، وذلك لتربية الضمير وإيجاد الوازع والرادع في أعماق النفس البشرية،

إن الآيات تشير إلى «عناية الله» بالإنسان، وكيف سخر له كل شيء من مخلوقاته الموجودة في السموات والأرض، وذلك من أجل استمرار حياته، وذلك للبرهنة على «الغائية» بإظهار إحكام العلاقات بين وجود الإنسان ووجود الطبيعة التي تحيط به، وهذه الأدلة «لقوم يتفكرون» ويربطون الأسباب بالغايات ويصلون إلى الحقائق بواسطة عقولهم فيؤمنون بالله.

أما الرسالة الإسلامية، فهي تركز على شخصية من يحملها، فإذا هاجمه الكفار وأرادوا التشكيك بدعوته اتهموه «بالجنون» وكان الدفاع عنه بإيراد الأدلة التي تكذب هذه التهمة وتثبت له الصفة التي عرفت عنه طوال حياته التي عاشها معهم وهي أنه مثال الرجل «العاقل».

العقل إذن وهو ضد الجنون كان الركيزة التي يرتكز إليها القرآن في الدفاع عن الرسول، وصفة العقل التي يتميز بها تدل على سلامة الدعوة التي يدعو إليها، فإذا وثقنا بعقله وثقنا بما يصدر عنه من قول أو عمل. أي وثقنا بأن القرآن كتاب الله، وأنه وحي من عند الله أنزله على محمد.

هذا ما يوحي لنا به الفعل «يتفكرون» في كل ما عرض لنا من آيات

ذات صلة بالفكر وقضاياها التي يشير بها القرآن إلى حقائق جوهرية للبرهنة على صدق الدعوة الإسلامية.

الحلم

اشتهر الحلم عند العرب باعتباره من أعظم الخصال التي تدل على عقل الرجل وسعة أفقه، وصبره وأناته، وعلمه وفضله كما سبق وقدمنا، عند معالجة هذا الموضوع من الناحية اللغوية.

وورد الحلم في القرآن على أنه صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد اجتمعت المغفرة مع الحلم في قوله تعالى:

«لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» سورة البقرة آية ٢٢٥.

وهذه الآية تبين الفرق بين يمين اللغو واليمين المعقودة، فالله لا يحاسب الإنسان على فلتات لسانه، ولكن يحاسبه على القصد والنية، فإذا أخطأ الإنسان وتلفظ بأيمان لا يهدف من ورائها أن يحلف على شيء معين، فإن الله يغفر هذا الخطأ إذا تاب الإنسان عنه، لأن الله «غفور حلیم» وحلمه يسع خطأ العبد عند التوبة.

فإذا انتقلنا إلى مجال آخر من مجال الحلم الذي يتصف به الله، وجدنا صورة مشرقة ترتبط بأسلوب التعامل الإنساني بين الغني والفقير..

يقول الله عز وجل:

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾

سورة البقرة آية ٢٦٣.

فالكلمة الطيبة التي تضمد جراح الفقير، وروح التسامح والمغفرة أفضل من أن يقدم الغني صدقة لأخيه الفقير، ثم يمين عليه بها، ويجرح شعوره، لأن الله هو الغني وهو الذي يرزق عباده، ويسعهم بحلمه، وواجب الإنسان أن يقدر نعمة الله عليه، فلا يتعالى أو يتكبر على الآخرين، لأن الله خصه بنعمته، فالصدقة حق الفقير، وهي تزكية للمال وتطهير له، فإذا أعطاه الإنسان ودفعها للفقراء تذكر أن الله « غني حلیم » وأنه يعطي مما أعطاه الله، لا يمين على عباده حين العطاء، لأن حلمه يسع جميع العباد.

وتأتي آية أخرى لتؤكد هذا المعنى، فتبين بأن الذي يتصدق عن طيب قلب، لا يقصد رياء ولا جاهاً، إنما يقرض الله ويعطي الله، والله يضاعف له العطاء والثواب، ويغفر له، والله يشكر لعبده حسن صنيعه، ويظله بحلمه ورعايته.

يقول الله عز وجل:

﴿إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ سورة التغابن آية ١٧.

ثم يرد الحلم مع العلم في صدد شرح بعض أحكام المواريث، لأن الله يعلم الناس ما ينفعهم من التشريعات التي تنظم لهم حياتهم، وهو حلیم بعباده إذ يبين لهم أحكام دينهم، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

يقول الله عز وجل:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْنَ، مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ

بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ، مَنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ، وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿سورة النساء آية ١٢﴾ .

وكذلك يجتمع العلم والحلم في الحديث عن المهاجرين الذين هاجروا في سبيل الله فاستشهدوا في القتال أو ماتوا في ديار الهجرة، فالله عز وجل يعلم حقيقة اخلاصهم فيثيبهم على ذلك في الجنة، وحلمه يفيض عليهم حيث يتمتعون بأعظم مكانة، وينالون أحسن الجزاء .

يقول الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لِيُدْخِلَهُمْ مُدْخَلَ رِزْوَانِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ سورة الحج آية ٥٩ .

وهكذا نجد أن صفة الحلم تأتي مع الصفات التالية: الغفور، الغني، الشكور، العليم، لتؤكد أنها اسم من أسماء الله الحسنى، وأنها من أعظم الصفات قدراً وأجلها معنى .

وقد وردت أيضاً كصفة لبعض الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .
«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» سورة التوبة آية ١١٤ .

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ سورة الصافات آية ١٠١ .

أما ورودها بمعنى العقول فقد نصت على ذلك آية واحدة هي قول الله

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾^(١) وذلك عندما انصبَّ الاتهام على النبي بأنه كاهن مرة ومجنون مرة أخرى وشاعرٌ مرةً ثالثة، فرد الرد عليهم: هل عقولهم التي تأمرهم بهذا الاتهام أم أنه العناد والمكابرة.. ومجيء لفظة «أحلامهم» في مقابل «قوم طاغون» دل على أن الحلم هو الفهم والأناة والعلم المبني على أسس، والطغيان هو ما يناقض ذلك، فالكفار لم يحكموا عقولهم في هذا القول إنما حكموا عواطفهم وأهواءهم، لذلك كان طغيانهم على النبي ﷺ بنعته بهذه النعوت.

فالأحلام ليست مجرد عقول عادية بل هي عقول متصفة بالأناة والتبصر.

النهي

وردت هذه اللفظة في ختام آيتين من آيات القرآن، ولو رفعنا هذه اللفظة من مكانها ووضعنا بدل «أولى النهي» «أولى الألباب» أو «لقوم يعقلون» لأدت نفس المعنى، فدلّ ذلك على أن النهي هي العقول.

والآية الأولى تتحدث عن تمهيد الأرض وتهيئة السبل لحياة الإنسان، وتتحدث عن انزال المطر وانبثاق النباتات الأرض من مختلف الأنواع، ليأكل الناس وتأكل أنعامهم، وهذا تماماً كما في آيات العقل وآيات الفكر وآيات اللب.

يقول الله عز وجل:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ طه آية ٥٤.

(١) الطور آية ٣٢.

والآية الثانية في الحديث عن الأمم السابقة وكيف أن الإنسان يمشي في مساكن تلك الأمم، أي آثارها، ويختم ذلك في الآيتين بقوله: لآيات لأولي النهى ﴿ ١٢٨ ٠

تأكيداً، واصراراً على استخدام الألفاظ المعبرة عن العقل في مختلف صوره وأشكاله، وتأكيداً على الدرس والبحث في الكون وفي التاريخ للعة والعبرة والاستفادة. يقول الله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ سورة طه آية ١٢٨ .

الْحَجَرُ

جاءت هذه اللفظة بعد عدة آيات يقسم بها الله على فترة انبثاق النور من الظلمة وهو «الفجر» باعتباره ظاهرة من الظواهر الطبيعية التي تدل على الاعجاز وتوحي للنفس بالروعة والابداع، ثم يقسم بعشر ليال جعلها الله ذات طابع تعبدي وهي ليالي ذي الحجة، ويقسم بنوعين متقابلين من الأعداد وهما الزوج والفرد لأن الأرقام الحسابية تتألف منهما، وكذلك الصلاة بأوقاتها ويقسم بالليل في إقباله أو إدباره، كل ذلك مع الإيجاء التوقيعي والمعنوي، وما يشعر به من عظمة هذه الأشياء وأثرها في الحياة الإنسانية.

يقول الله عز وجل:

﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾ سورة الفجر الآيات ١ - ٥ .

والحجر هنا معناه العقل، أي هل في ذلك الذي أوردناه من الدلائل التي تجدونها في الحياة والطبيعة من آيات ومعجزات قَسَمُ لصاحب عقل؟ فيدرك الحقائق الكونية ويوقن بأن وراءها خالق مبدع.

وقد عرفنا أن العرب سَمَّت العقل حِجراً لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عما لا ينبغي، كما سموا العقول بالنهى لأنها تنهى أصحابها عن فعل السوء، وسموا العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، ويرشده إلى ما فيه فلاحه في الحياة.

خلاصة

رأينا كيف وردت «الأحلام» في آية واحدة فدلّت على العقول المتأنية المتبصرة، وكيف وردت «النهى» في آيتين بمعنى العقول والألباب، وكذلك «الحجر» في آية واحدة ليدل على العقل، ولو أردنا تحليل هذه الألفاظ فأخذنا الحِلم من التحلُّم، والنهى من النهي، والحجر من المنع، لوجدنا صفات العقل التي تمنعه من الجهل والتورط والاندفاع فيما لا ينبغي له، وهذا جانب من جوانب المهمة التي توكل إلى العقل في هداية النفس البشرية إلى خيرها وصلاحتها. فدلّ ذلك على أن كل لفظة مرادفة للفظ العقل لها مغزاها الذي يندرج تحت معنى العقل من جهة ولها مغزاها الذي يوحي به اشتقاق الكلمة ومادتها من ناحية أخرى والتي تدل على نوع من الاستقلال الذاتي الذي يثري اللغة بالمفردات التي تعبر تعبيراً دقيقاً عن معنى معين قد لا يعبر عنه اللفظ الآخر بنفس القوة لو وُضع مكانه وإن أدى إلى المعنى العام الذي تلتقي عنده جميع ألفاظ العقل ومرادفاته.

حصيلة معاني العقل ودوره في القرآن

- ١ -

- إدراك حركة الطبيعة وتغيرها وتبدلها.
- فهم اسرار الخلق والابداع.
- استقرار ظواهر الحياة والموت في الإنسان والطبيعة.
- البحث في أصل الإنسان وتطور نموه من النطفة إلى أن يصبح إنساناً مكتمل الصورة.
- استخدام البرهنة بالأدلة الطبيعية في الكشف عن خلق الإنسان.
- اللجوء إلى الحوار الجدلي لإقناع الخصوم ببطلان حججهم ، وصحة الأدلة القرآنية.
- اعطاء العقل صفة الحيوية والإرادة واعطاء الجهل صفة الجمادية والسلبية.
- استخدام الحواس جميعها كنوافذ للعقل ، إذا تعطل العقل تعطلت وإذا تعطلت تعطل العقل.
- التفرقة بين الإنسان المدرك والإنسان الجاهل بإضفاء صفة الإنسانية على الأول والحيوانية على الثاني ، لأن الذي يميز بين الإنسان والحيوان هو العقل.

- اللغة وسيلة الفهم ، وأداة العقل .

- دراسة التاريخ الإنساني لإدراك الحكمة مما جرى فيه من أحداث .

- العقل وسيلة العلماء في تحصيل العلم .

- التناقض في المواقف دليل الجهل ولا يتفق مع العقل .

- التأمل في الطبيعة ، والتعبير بالصور الجمالية عن الدنيا ، وتبدل ذلك وتغيره يعطي العقل فكرة عن مصير الدنيا ، وذلك يدفعه إلى السمو نحو الملاء الأعلى ، واختيار الأفضل .

- العقل وسيلة للتذوق الأدبي ، والتناغم مع الطبيعة ، والربط بين أجزائها لفهم العلاقات القائمة بينها ، وهذا يوحى له بما في الطبيعة من جمال وما فيها من خصائص تتعلق بوجوده .

- العقل منوط بمسؤولية العمل ، وهو الذي يستطيع أن يعقل الخير والشر ويميز بينهما ويختار الجانب الأفضل .

- الشريعة السماوية هادية للعقل ، وهو الذي يدرك الحكمة من تطبيق أحكامها في الحياة الإنسانية ، لذلك تبين له وتفصل ليدرك أهدافها ومراميها .

- التكليف منوط بالعقل ، فإذا وجد العقل وجد التكليف ، وإذا فقد العقل سقط التكليف .

- العقل يقارن بين الخالق والمخلوق ، ويمكنه أن يعرف أن المساواة بينهما شيء مستحيل ، لذلك يجب أن يفرق بين قدرة الخالق وقدرة المخلوق ، ويقر بالسلطة المطلقة للخالق ، والتي لا يملكها المخلوق بسبب ضعف

- ٢ -

- اللب هو العقل المؤمن ودوره التذكر والتفكير والتأمل.
- مظاهر الطبيعة هي اللوحة التي يتأملها اللب لإدراك أسرارها، والاعتراف بوجود الخالق.
- اللب هو القادر على التأويل، وهو الراسخ في العلم، وهو الذي وهب الحكمة.
- اللب هو الذي يفرق بين الحلال والحرام فيختار الحلال ويتخلى عن الحرام وإن كان مغرياً للنفس أكثر لأنه يتقي الله.
- اللب يعتبر دائماً بقصص الأمم السابقة، ويتعظ مما جرى لها من مواعظ ودروس.
- اللب يهدي أصحابه إلى حكمة تطبيق الأحكام، ويقتص من المجرمين والمذنبين لأن ذلك يقيم أركان العدالة ويحمي الحياة مما يتهدها من إهدار وضياح، وفي ذلك أمان للناس كافة.
- اللب إذا تأمل الطبيعة وما يطرأ عليها من تغيير، آمن بأن الحياة فانية، وأنها عرض زائل، وأن الحياة الآخرة أولى وأفضل.

- ٣ -

- الفكر عبادة، أو هو عقل يتأمل ويتعبد.

- الفكر وسيلة معرفة النفس البشرية وأسرارها .
- الفكر يتأمل أدق مظاهر الحياة ويقارن بين الموت المؤقت وهو النوم والموت النهائي .
- الفكر يتأمل سر العاطفة التي تربط الرجل بالمرأة، وتزاوج الثمار والنبات، وعمل النحلة في خلاياها .
- الفكر يتخذ من لوحات الطبيعة صوراً عن الحياة الإنسانية ليقارن بينها ويعرف حقيقتها، ويعتبر .
- الفكر يميز بين الخير والشر والإخلاص والرياء ويختار الأفضل .
- الفكر يقارن ما يقوله الكفار عن محمد ويتهمون به من جنون وبين حياته وسلوكه وعقله الذي اشتهر به ، فيكشف كذب الكفار فيما يدعونه .
- الفكر يقوم بدور دراسة حياة محمد، ويتتبع أقواله، ويعرف أنه جاء يدعو كغيره من الأنبياء إلى الإيمان بالله ويحذر الناس من الشر والكفر .
- الفكر يستنبط العلل المنوطة بالأحكام الشرعية ليقتنع بضرورتها .
- الفكر يتأمل تسخير كل ما في الطبيعة لخدمة الإنسان وحياته ووجوده على الأرض فيدرك سر العناية الالهية به .

- ٤ -

- الحِلم هو عقل متزن متأن في أحكامه ، غير نزق ولا متسرع ولا يخضع للعاطفة والأهواء .
- النُهى ، هي العقول الناهية لأصحابها عما لا ينبغي ، فإذا تأملت

الطبيعة، أو درست تاريخ الأمم السابقة آمنت واتعظت.

- الحجر هو العقل الرادع عن الكفر لأنه يتعظ بما يرى من أدلة ومعجزات في الكون.

الباب الثالث

الفصل الأول

العقل في السنّة

بعد التحليل الذي قدمناه لآيات العقل ومرادفاته في القرآن، والتي لا خلاف حولها لأن القرآن هو المصدر الثابت المتواتر الذي لا ريب فيه عندنا، نجد أنفسنا أمام السنّة نقف موقفاً مغايراً تفرضه علينا طبيعة الخلافات الفكرية التي رافقت موضوع أحاديث العقل وما نشأ عنها وترتب عليها، ذلك أن هذه الأحاديث بالذات قام حولها جدل كبير بين علماء المسلمين، فمنهم من رفضها رفضاً قاطعاً وادعى أنه لم يصح حديث واحد في العقل، ومنهم من قبل هذه الأحاديث، أو قبل قسماً منها مع التضعيف، وذلك ربما يرجع إلى تصادم الآراء بين المعتزلة الذين غالوا في تقدير العقل وبين أحمد بن حنبل وأهل الحديث ممن وقفوا في وجه هذه المغالاة، والتزموا بالنص «إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين»^(١).

وهذا الخلاف سيجرنا فيما نرى إلى موقف كل فريق من العقل، ومدى الأهمية التي اتخذها هذا البحث في الفكر الإسلامي، والمدارس الفلسفية التي تأثر بها، لأن الأحاديث هي التي حددت تقريباً موقف العلماء من العقل، لما جرى من صراعات عنيفة في هذا المجال، وسيتحدد ذلك من

(١) المحاسبي، الدكتور عبد الحليم محمود ص ٣.

خلال تحليلنا للأقوال التي وردت عن مؤلفي أول كتابين في « فضل العقل » وهما داود بن المحبر، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ - ٨٢١ م، وابن أبي الدنيا، المتوفى سنة ٢٨١ هـ - ٨٩٤ م.

وابن المحبر هذا تعرض لكل أنواع النقد والهجوم، أما كتابه « فضل العقل » فقد أجمع عدد من رجال الجرح والتعديل على تكذيب الأحاديث التي وردت فيه « مثال ذلك حديث « الدين هو العقل ومن لا دين له لا عقل له » وذكر أنه باطل »^(١)... وقد أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن داود بن المحبر بضعة وثلاثين حديثاً في فضل العقل، قال الحافظ بن حجر: « كلها موضوعة » ومنها هذا الحديث كما ذكره السيوطي في « ذيل اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة » ونقله عنه العلامة الفتي الهندي في « تذكرة الموضوعات »^(٢).

قال الذهبي: داود بن المحبر بن قحذم أبو سليمان البصري، صاحب « العقل » وليته لم يصنّفه..

قال أحمد بن حنبل: لا يدري ما الحديث.

(١) كتاب « الأحاديث الضعيفة والموضوعة » تخريج محمد ناصر الألباني ص ١١ ج ١ طبعة دار الفكر بدمشق. قال في هذا الحديث: أخرجه النسائي في الكنى وعنه الدولابي في « الكنى والأسماء » ١٠٤/٢ عن أبي مالك بشر بن غالب بن بشر بن غالب عن الزهري عن مجمع بن جارية عن عمه مرفوعاً دون الجملة الأولى « الدين هو العقل » وقال النسائي: « هذا حديث باطل منكر ».

يقول محمد ناصر الألباني: وآفته بشر هذا فإنه مجهول كما قال الأزدي وأقره الذهبي في « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » والعسقلاني في « لسان الميزان ».

(٢) نفس المرجع السابق.

وقال ابن المديني: ذهب حديثه.

وقال أبو زرعة وغيره: ضعيف.

وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث، غير ثقة.

وقال الدارقطني: متروك^(١). وذهب إلى أن ابن المحبر سارق.

قال الخطيب البغدادي: حدثني محمد بن علي السوري قال: سمعت عبد

الغني بن سعيد عن الدارقطني قال: كتاب العقل وضعه أربعة، أولهم ميسرة ابن عبد ربه، ثم سرقة منه داود بن المحبر فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقة عبد العزيز بن أبي رجاء، فركبه بأسانيد أخرى، ثم سرقة سليمان بن عيسى السجزي فأتى بأسانيد أخرى^(٢).

أما القول الذي يناقض ما سبق ويلقي ضوءاً كاشفاً على شخصية ابن المحبر فهو قول ابن معين عنه: «ما زال معروفاً بالحديث يكتب الحديث، ثم تركه وصحب قوماً من المعتزلة فأفسدوه، وهو ثقة»^(٣).

(١) «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» للذهبي ج ٢ ص ٢٠ أنظر «الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ص ١١ ج ١، وانظر رسالة «الإسلام والعقل» لصالح الدين المنجد ص ٣١.

(٢) «تاريخ بغداد» للبغدادي ص ٣٦٠ ج ٨. أنظر «الإسلام والعقل» ص ٣١ و«الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ص ١١ ج ١ و«المنار المنيف في الصحيح والضعيف» ص ٦٦ و«العقل وفهم القرآن» تحقيق حسين قوتلي ص ١٢٧.

(٣) يدافع صلاح الدين المنجد عن ابن المحبر في رسالته «الإسلام والعقل» فيقول: «ونلاحظ مما ذكرنا أن الدارقطني (علي بن عمر، المتوفى سنة ٣٧٥ هـ - ٩٩٥ م) أي بعد ابن المحبر بنحو أكثر من قرنين ونصف يقول: إن ابن المحبر متروك الحديث وأنه سارق، وأن ابن معين (يحيى المتوفى سنة ٢٣٣ هـ) والمعاصر لابن المحبر تقريباً يقول عنه: إنه ثقة. وإنه ليس بكاذب، ولكن صحبته للمعتزلة أفسدته. ثم يتابع كلامه فيقول: «ونحن نميل إلى قول ابن معين لسببين:

وقوله أيضاً: «داود بن المحبر ليس بكذاب. كان داود ثقة، لكنه جفا الحديث ثم حدث»^(١).

فالقول إن ابن المحبر «صحب قوماً من المعتزلة فأفسدوه» يشير إلى نقطة هامة، ربما تكون هي السبب الرئيسي لرفض أحاديثه كلها، فالمعتزلة بالغوا في تقدير العقل كما قدمنا، متأثرين بالفلسفة اليونانية، التي ترجمت كتبها إلى العربية، «حيث يقول المقرئ: إنه ترجم بأمر المأمون في بضعة أعوام من حكمه عدد من الكتب فتلقاها المعتزلة وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها، فاشتد ساعداهم بها» وأول معتزلي استفاد من تلك الكتب فائدة ملموسة هو النظام الذي طالع - كما يروي الشهرستاني - كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة^(٢)، ثم اقتدى به غيره. فكان المعتزلة أقدم المتكلمين في الإسلام^(٣).

هذا بالنسبة لابن المحبر، أما بالنسبة لابن أبي الدنيا صاحب كتاب «العقل وفضله» فلم يطعن في صدقه أحد، قال عنه الذهبي: المحدث العالم

الأول: أنه كان في عصر ابن المحبر، ولعله أدري به وبأخباره وأحواله من الدارقطني الذي توفي بعد ابن المحبر بمائتين وتسع وسبعين سنة.
الثاني: أن ابن معين له في الحديث مقام عال معروف، فلا يتهم بعدم معرفة الرجال أو بالتهاون.

(١) تاريخ بغداد ص ٢٦٠ ج ٨ أنظر «الإسلام والعقل» ص ٣١.

(٢) «الملل والنحل» ج ١ ص ٥٣ - ٥٤. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦١

القاهرة.

(٣) «المعتزلة» رسالة دكتوراه، زهدي حسن جار الله، مطبعة مصر ١٣٦٦

هـ - ١٩٤٧ م.

الصدوق أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان ابن أبي الدنيا القرشي
الأموي مولا هم البغدادي صاحب التصانيف .

قال ابن أبي حاتم: كتبت عنه مع أبي وهو صدوق .

وقال الخطيب: أدب غير واحد من أولاد الخلفاء^(١) .

وقد روى ابن أبي الدنيا في كتابه «العقل وفضله» اثني عشر حديثاً عن
رسول الله ﷺ^(٢) .

أما كتب الأحاديث الصحيحة فقد ضمت عدداً لا بأس به من أحاديث
العقل ، وسوف نوردتها جميعاً ، لأنها أهم المصادر في هذا الموضوع .

أمامنا إذن كتابان لابن المحبر وابن أبي الدنيا ، وأمامنا الأحاديث
الصحاح ، وأمامنا اتجاهان: الأول يميل إلى الرفض ، والثاني يميل إلى القبول ،
فإذا كان المعتزلة هم السبب فيما لجأ إليه أهل السنة من رفض أحاديث
العقل ، لتأثرهم بالفلسفة ، فإن ذلك يدعونا إلى المجيء بمثال عن هذا الاتجاه
الفلسفي الذي ظهر في أحاديث العقل ، مع أقوال العلماء في ذلك .

وهذه المقدمة في السنة ليست إلا لتوضيح وجهات النظر المختلفة حول
أحاديث العقل حتى تكون المقارنة مبنية على أسس ثابتة نستطيع أن نخرج
منها بنتائج صادقة أو قريية من الصدق .

(١) «تذكرة الحفاظ» للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي ج ٢ ص

٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٢) ينبه محمد ناصر الألباني في كتابه «الأحاديث الضعيفة والموضوعة» أنه تتبع
ما أورده أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «العقل وفضله» فوجدها لا يصح منها
شيء .

يروى الغزالي في الإحياء هذا الحديث ، قال ﷺ : « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال الله عز وجل وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب » .

قال العراقي : الحديث في معجم الطبراني الأوسط ، من حديث أبي أمامة ، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين^(١) .

وقد سئل الإمام ابن تيمية في هذا الحديث ، وفي غيره ، فأفتى بما يلي :

« أما الحديث الأول فهو كذبٌ موضوع عند أهل العلم بالحديث . ليس هو في شيء من كتب الإسلام المعتمدة . وإنما يرويه مثل داود بن المحبر وأمثاله من المصنّفين في العقل . ويذكره أصحاب رسائل إخوان الصفا ونحوهم من المتفلسفة . وقد ذكره أبو حامد في بعض كتبه ، وابن عربي ، وابن سبعين » . وأمثال هؤلاء ، وهو عند أهل العلم بالحديث كذبٌ على النبي ﷺ ، كما ذكر ذلك أبو حاتم الرازي ، وأبو الفرج ابن الجوزي وغيرهما من المصنّفين في علم الحديث .

ومع هذا فلفظ الحديث : « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر » . قال : ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك الثواب ، وبك العقاب » . وفي لفظ : « لما خلق الله العقل قال له ... » . ومعنى هذا اللفظ أنه قال للعقل في أول أوقات خلقه ، ليس فيه

(١) الإحياء للغزالي ج ١ ص ٨٩ .

أن العقل أولُ المخلوقات. لكن المتفلسفة القائلون بقدّم العالم اتباع أرسطو هم ومن سلك سبيلهم من باطنية الشيعة والمتصوفة والمتكلّمة، رَووه: أوّل ما خلق الله العقل - بالضم - ليكون ذلك حجة لمذهبهم في أن أول المبدعات هو العقل الأول. وهذا اللفظ لم يروه به أحد من أهل الحديث، بل اللفظ المروي مع ضعفه يدل على نقيض هذا المعنى، فإنه قال: «ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك». فدلّ على أنه قد خلق قبله غيره، والذي يسميه الفلاسفة العقل الأول ليس قبله مخلوق عندهم^(١).

أما المرتضى الزبيدي، فقد أراد تصحيح هذا الحديث، فقال: «قال عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا سيّار، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار عن الحسن يرفعه:

«لما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال: ما خلقت شيئاً أحسن منك، فبك آخذ، وبك أعطي».

قال الزبيدي: فهذا كما ترى سند جيد. فقول الحافظ العراقي: وبالجملة فطره كلّها ضعيفة محلّ تأمل. وكذا إيراد ابن الجوزي له في الموضوعات، وتبعه ابن تيمية والزرکشي وغير هؤلاء. فغاية ما يُقال فيه: إنه ضعيف في بعض طرقه^(٢).

هناك حديث آخر يرويه الغزالي في الإحياء، وتبدو فيه المغالاة، والنزعة إلى تقديس العقل، وذلك بتفضيله على العرش، فإذا كان العرش ينسب إلى الله، فإنه يصبح في الشرف والقيمة والمرتبة فيما يضاف إليه أو

(١) الفتاوى لابن تيمية ج ١٨ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

(٢) اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٤٥٥. أنظر الإسلام والعقل للمنجد ص ٤٠.

نسب له ، والذي ينسب إلى الله لا يجوز مقارنته بالذي ينسب إلى الإنسان .
وعلى ذلك فإننا سنذكر هذا الحديث حتى نتبين ضعفه وعدم صحته .

« روي أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل النبي ﷺ في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت : يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟ قال : نعم ، العقل . قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال : هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم بعدد الرمل ، قالوا : لا ، قال الله عز وجل : فإني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطي حبة ومن أعطي وسقاً ومنهم من أعطى أكثر من ذلك » .

قال الحافظ العراقي : هذا حديث ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً^(١) .

هذه أمثلة من تلك الأحاديث التي تتجه اتجاهها فلسفياً ، والتي نميل إلى القول بضعفها لأنها أقرب إلى التأثير بالفكر الفلسفي ، فالقول بالعقل الأول ، والعقول العشرة ، مناقض لما جاء به القرآن الكريم عن الخلق الأول ، وهذا المنهج الفلسفي هو ما كانت عليه الفلسفة اليونانية ، وهو ما أخذ به بعض الفلاسفة المسلمين .

الأحاديث الصحيحة والعقل

ورد في كتب الأحاديث الصنحاح ما يتجه في معانيه نحو تحديد مادة « عقل » تحديداً يتصل بالإدراك والاستيعاب والحفظ والرشد والوعي ، من ذلك مثلاً ما يفرق بين الوعي والغيوبة ، إذ يتحدث الصحابي جابر بن عبد

(١) الإحياء للغزالي ج ١ ص ٩٤ .

الله عن زيارة النبي له في أثناء مرضه ، فيقول: « وأنا مريض لا أعقل » وهو يريد أنه غائب عن الوعي ، ثم يروي أن النبي توضأ « فصب علي من وضوئه فعقلت »^(١) أي استيقظت وتنبهت وعدت إلى الوعي .

ويرد اللفظ نفسه على لسان عبد الله بن أبي حبيبة في التفرقة بين حداثة السنّ وبلوغ الرشد فيقول: « فقلته وأنا يومئذ حديث السنّ ثم مكثت حتى عقلت »^(٢) .

فإذا كان الحديث الأول يفرق بين فترتين: الغيبوبة والوعي ، وإذا كان الحديث الثاني يفرق بين فترتين: حداثة السن وبلوغ الرشد ، فاللفظ في كلتا الحالتين يدل على إدراك الإنسان وتمييزه بين الأشياء .

ثم إن هذا الإدراك منوط بالحفظ والتذكر ، يأتي ذلك في قول عبد العزيز بن رُقَيْع وهو يسأل أنس بن مالك: « قلت: أخبرني بشيء عقلت عن النبي »^(٣) . وفي قول محمود بن الربيع: « عقلت عن النبي ﷺ مَجَّةً مَجَّهَا في وجهي »^(٤) . وفي قول عائشة زوج النبي: « لم أعقل أبوي قطُّ إلا وهما يدينان الدين »^(٥) . وكل ذلك يرجع إلى الحافظة أو الذاكرة وإدراك الأمور الماضية .

(١) صحيح مسلم ١١ - ٥٦ شرح النووي صحيح بخاري ١ - ٦ و ٦ - ٥٤ .
سنن الدارمي ١ - ١٨٧ .

(٢) الموطأ لابن مالك ٢ - ٤٧٢ .

(٣) صحيح البخاري ٢ / ١٩٧ .

(٤) نفس المصدر ١ - ٢٩ .

(٥) نفس المصدر ٣ - ١٢٦ .

وهذا عمر بن الخطاب في خطبة له يؤكد معنى الإدراك والحفظ في لفظ «عقل» حيث يقول: «مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها» يفسر هذا المعنى الجملة السابقة التي وردت في الخطبة وهي: «ومن حشي أن لا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب عليّ»^(١). ففوة الحافظة، والتذكر بدقة، هما سبيل النقل بأمانة وحرفية، وهما من ملكات العقل.

وفي حديث الرسول ترد عبارة «لا يعقلون» لتدل على عدم الإدراك والفهم، وذلك في قوله يصف الذين تلهيهم الأعراض الدنيوية عن حقائق الوجود: «وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا»^(٢).

وإذا كانت مادة «عقل» قد انحصرت في القرآن بالصيغة الفعلية فإنها ترد في الحديث الشريف بالصيغتين: الاسمية والفعلية، وأشهر هذه الأحاديث الذي يصف النساء بأنهن «ناقصات عقل ودين»^(٣) ويعلل نقصان العقل عند المرأة بأن الشارع يعتبر شهادة امرأتين في مقابل شهادة رجل واحد، والقرآن يوضح ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٤).

فالعقل جاء بصيغته الاسمية، واعتبر النسيان أو عدم التذكر من نقصان ملكة العقل عند المرأة.

(١) صحيح البخاري ٨ - ٢٠٨ الدارمي ٢ - ١٧٩.

(٢) صحيح البخاري ٢ - ١٣٢ مسلم ٧ - ٧٧ و ٧٨.

(٣) صحيح مسلم ٢ - ٦٥ و ٦٦ البخاري ١ - ٨٣ الدارمي ١ - ٢٣٦ ابن ماجه

٢ - ١٣٢٥ أبو داود ٤ - ٣٠٣ الترمذي الفرق بين الصدر والقلب ص ٥٩.

(٤) البقرة آية ٢٨٢.

وكذلك في سؤال الرسول عن ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء يعترف أمامه بالزنا، فقال: «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً؟». فيجواب: «ما نعلمه إلا وفيّ العقل»^(١). أي تام العقل، كامله، وهاتان الصيغتان توضحان لنا أن تمام العقل أو نقصانه هما الحكم على الرجل في تحمله مسؤولية ما يصدر عنه من قول أو عمل.

وهذا حديث يؤكد أن مناط المسؤولية والتكليف هو العقل.

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا جرير عن الأعشى عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: أتني عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً فأمر بها عمر أن تُرجم فمر بها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت، فأمر بها عمر أن تُرجم. قال: فقال: ارجعوا بها. ثم أتاه فقال يا أمير المؤمنين. أما علمت أن القلم رُفع عن ثلاثة، عن المجنون حتى يبرأ. وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: بلى. قال: فما بال هذه تُرجم قال: لا شيء. قال: فارسلها. قال: فأرسلها. قال فجعل يكبر^(٢).

هنا في الحديث لا مسؤولية على المجنون لأنه فاقد للعقل، ولا مسؤولية على الصبي لأنه لم يبلغ سن الرشد أي تمام العقل. وهذا يحدد أن العقل هو شرط المسؤولية في الإسلام.

وقد ورد لفظ العقل في صيغة تدل على المدح والثناء، وذلك في قول

(١) صحيح مسلم ١١ - ٢٠٢ و ٢٠٣.

(٢) سنن أبي داود كتاب الحدود ج ٤ ص ١٩٧.

الرسول: «ثم يقال للرجل ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله»^(١).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»^(٢). فجعل المروءة هي العقل تقدير كبير لقيمة العقل وأهميته.

وسؤال يوجهه عمر إلى الرسول عند ذكره فتان القبور: أتردُّ علينا عقولنا يا رسول الله؟ فيقول الرسول: نعم، كهيتكم اليوم^(٣).

كل هذه الأحاديث وردت في الكتب الصحيحة، وقد رأينا كيف ذكر لفظ العقل بصيغته الاسمية، مما يؤكد أن العقل في السنة له أحاديثه التي ترتبط ارتباطاً كلياً بالتكليف والمسؤولية، وليس كما ذهب بعض العلماء إلى أنه لم يرد حديث واحد في العقل، ولا يعقل أن تكون كلها موضوعة.

الإدراك منوط بالعقل، والتذكر، والوعي، والحفظ، كل ذلك منوط بالعقل في السنة.

العقل إذن هو القيمة الفكرية التي يمتاز بها الإنسان، فإذا فقد الإنسان هذه الميزة لم يعد مسؤولاً أمام الشريعة والقانون كالمجنون والصبي قبل بلوغ سن الرشد.

أحاديث تعرضت للنقد

هناك قسمان من هذه الأحاديث تلك التي وردت في كتاب ابن المحبر

(١) مسلم ج ٢ ص ١٦٧ و ١٦٨.

(٢) رواه أحمد ٢ / ٣٦٥.

(٣) رواه أحمد ٢ / ١٧٢.

ونقلها عن الحرث بن أبي أسامة، واعتمدها الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين، والأخرى هي التي وردت في كتاب ابن أبي الدنيا، وسنعرض للأولى ثم الثانية، حسب التدرج التاريخي.

وفي مبحث العقل عند الغزالي يستشهد بحديث يبدأ بقول الرسول: « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ». ثم يصف « العاقل » بأنه من أطاع الله .. والحديث في مجمله دعوة إلى الطاعة وتحذير من المعصية، إذ يبين أن الجاهل هو من عصى الله، وفي المقابلة بين العاقل والجاهل دلالة على أن الالتزام بجانب العقل هو الالتزام بجانب الدين، وأن عدم الالتزام بهذا الجانب هو الجهل بعينه، وهو يربط بين العقل والمعرفة إذ يقول: « اعقلوا عن ربكم ... تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه »^(١).

والربط بين الطاعة والعقل والعبادة والعقل ورد في أحاديث كثيرة منها:

« ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويردّه عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله »^(٢).

« لا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله »^(٣).

« لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته »^(٤).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٨٩ قال العراقي: الحديث داود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحرث بن أسامة عن داود.

(٢). (٣). و (٤) نفس المرجع وكلها تنسب إلى ابن المحبر ويضعفها الحافظ العراقي.

« مطية المرء العقل وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلاً » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « يا رسول الله بَمَ يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: بالعقل . قلت: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل . قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ: يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون »^(١) .

وهناك ما ينوف على العشرين حديثاً ذكرها الغزالي ونسبت إلى ابن المحبر، وكلها تدور حول هذه المعاني تزيد قليلاً أو تنقص، بل إن المتن يكاد يكون متشابهاً أو متقارباً في ألفاظه، وهي إذ تتفق في أهدافها مع السنة ولا تتعارض معها، لا بد أن نقف منها موقفاً حذراً لأنها تبالغ في وصف العقل ومدحه خاصة عندما يرد فيها مثل هذه الألفاظ « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل »^(٢) .

هنا يصبح بإمكاننا أن نميل إلى الطعن بمثل هذه الأحاديث لأن غاية العباد ليست العقل، بل العقل وسيلة لمعرفة الله وطاعته وعبادته . ويبدو الوضع في هذا الحديث ظاهراً للعيان، من حيث أنه تقديس للعقل يضاف إلى غيره من الأحاديث السابقة التي حاولت تقديس العقل وإضفاء صفات إلهية عليه كما فعل بعض فلاسفة اليونان سابقاً .

الحديث الذي لم يختلف في صحته أحد هو الحديث الذي يقول:

(١) الإحياء ج ١ ص ٩٠ الحديث ابن المحبر والترمذي الحكيم في النوادر .

(٢) نفس المصدر .

قال رسول الله ﷺ للأشجّ أشجّ عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»^(١).

قال النووي: «الحلم: العقل. والأناة: التثبت وترك العجلة».

وننتقل بعد إلى الأحاديث التي رواها ابن أبي الدنيا، وهي تدور في مجال تقدير العقل وذكر فضله، ومنها:

قال رسول الله ﷺ: إن الشاهد على الله عزّ وجلّ أن لا يعثر عاقل إلا رفعه الله عزّ وجلّ. ثم لا يعثر إلا رفعه، حتى يجعل مصيره إلى الجنة»^(٢).

وقال: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه»^(٣).

وقال: «لا يعجبكم إسلام امرئ حتى تعرفوا معقود عقله»^(٤).

«وكان إذا بلغه عن أحد من أصحابه عبارة قال: كيف عقله. فإن قالوا: عاقل، قال: ما أخلق صاحبكم أن يبلغ، وإن قالوا ليس بعاقل قال: ما أخلقه أن لا يبلغ»^(٥).

وقال رسول الله ﷺ: ثلاث من حُرْمهنَّ حُرْم خير الدنيا والآخرة: عقل يُداري به الناس، وحلم يرد به السفیه، وورع يحجزه عن المعاصي»^(٦).

هذه بعض الأحاديث التي وردت في تمجيد العقل، وجعله مدار الإيمان،

(١) متفق عليه رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٨٩ شرح النووي. وورد في الإحياء ج ٣ ص ١٧٤.

(٢) إلى (٦) ابن أبي الدنيا (العقل وفضله) من ص ٩ إلى ص ٣١، أنظر الإسلام والعقل للمجدد ص ٣٤ - ٣٦، وانظر أيضاً العقل وفهم القرآن للمحاسبي، تحقيق حسين القوتلي ص ١٢٢ - ١٢٣.

ومبلغ الرشد، وموطن المروءة، ومناط الإسلام، وأساس الخلق، وركيزة النجاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإذا كان الطعن بابن المحبر قد أجاز لبعض العلماء رفض جميع أحاديثه، فإن ابن أبي الدنيا لم يوجد من يقدح بصدقه، ونحن بين من يرفض ومن يقبل، وبين من يطعن هذا ويمدح ذاك، وبين مختلف الآراء التي دارت حول هذا الموضوع، لا نستطيع أن نكون مع الرافضين كلياً لأن الأحاديث التي لا تتعارض مع مضمون القرآن، والتي تتفق مع روح الأحاديث النبوية الصحيحة لا يمكن أن ترد كلها بحجة ضعفها، وهذا يجعلنا أكثر ميلاً إلى أن نقبل من الأحاديث ما ينأى عن المبالغة والمغالاة والتقديس، آخذين بعين الاعتبار بعدنا الزمني عن تلك المرحلة التي جرى فيها تقييم هذه الأحاديث وعدم إمكاننا أن نتأكد من صحة ما يستند إليه أي طرف من الأطراف المتنازعة بسبب الصراع الفكري الذي طغى على تلك المرحلة وكان سبباً فيما نحن فيه من تردد أمام هذه الأحاديث.

بقي أن نذكر أن المحاسبي وقد كان معاصراً لابن المحبر وابن أبي الدنيا قد استشهد ببعض أحاديث العقل منها أن الرسول ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة عبد ولا صومه ولا حجه ولا عمرته ولا صدقته ولا جهاده ولا شيئاً مما يقول من أنواع البر إذا لم يكن يعقل. وبلغنا أن الله عز وجل لما خلق الله العقل قال له: اقعد.. إلى آخر الحديث..»^(١).

وهذا يؤكد أنه لا يمكن أن يجتمع عدد كبير من العلماء على ذكر مثل هذا الحديث، وهو موضوع أو ضعيف، ولكن الضعف كما سبق وذكرنا

(١) الوصايا ٨٦. أنظر «العقل وفهم القرآن» ص ١٢٢ تحقيق القوتلي.

تطرق إليه من جانب التغير في العبارة « لما خلق الله العقل » وجعلها « أول ما خلق الله العقل » كما بيّن ذلك ابن تيمية في فتواه، إذ أن هذا اللفظ ظاهر التحريف .

أقوال في العقل

كان لا بد من الاستشهاد ببعض أقوال الصحابة لأنهم عاصروا النبي ﷺ وتأثروا به، وأقوالهم صدى لتعاليمه، وهم الذين حملوا عبء خدمة الرسالة الإسلامية في مجالات التشريع، كما حملوا أعباء الذود عن حياضها في التصدي لأعدائها من المخالفين والمشككين، إذ أن هذا يوضح لنا المفاهيم الحقيقية للإسلام التي خرج بها هؤلاء من انتائمهم إلى مدرسة محمد الفكرية .

قال علي بن أبي طالب: لا مال أعود من العقل، ولا فقر أضرب من الجهل .

وقال في صفين: العقل في القلب .

« وفي حوار له مع شخص آخر يسأله فيه: أأست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟ فقال السائل: بلى . قال: تعرف تفسيرها؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمني مما علمك الله . فقال علي رضي الله عنه: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله، ولا على معصيته إلا به عز وجل، يا سائل اعقل عن الله . فقال: عقلت . فقال له: الآن صرت مسلماً، قوموا إلى أخيك المسلم وخذوا بيده »^(١) .

(١) الاسفرايني: أنظر المرجع السابق .

وقال عمر بن الخطاب: ليس العاقل من عرف الخير من الشر، بل العاقل من عرف خير الشرين^(١).

وقال معاوية بن أبي سفيان: العقل عقلان: عقل تجارب وعقل نحيضة (أي طبيعة وهو العقل الفطري)، فإذا اجتمعا في رجل فذاك الذي لا يقام له، وإذا تفرّدا كانت النحيضة أولاهما^(٢).

وقال معاوية أيضاً: العقلُ مكيالٌ ثلثه فطنة، وثلثاه تغافل^(٣).

وقال معاوية لعمر بن العاص: ما بلغ من عقلك؟ قال: ما دخلت في شيء قطّ إلا خرجت منه. فقال معاوية، لكني ما دخلت في شيء قطّ أريد الخروج منه^(٤).

وقيل لعمر بن العاص: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان^(٥).

ووصف المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال: ما رأيتُ أحداً هو أحزمُ من عمر. كان له فضلٌ يمنعه أن يَخْدَعَ، وعقلٌ يمنعه أن يُخْدَعَ^(٦).

ليس هناك وصف للعقل أشمل وأعم، فأما العقل الديني، والعقل السياسي، والعقل العلمي، والعقل العملي.

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٦.

(٢) كتاب العقل ص ١٧.

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٢.

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٢.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤١.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢ أنظر (الإسلام والعقل) ص ٥٤ - ٥٦.

أمامنا العقل العاقل، والعقل الذكي، والعقل المتصف بالدهاء والمكر والحيلة والفطنة والنباهة.

كل ذلك نستطيع أن نخرج به من تحليل أقوال الصحابة، أما كلمات علي وكلمات عمر فهي تصوّر للعقل الديني الذي يعتبر العاقل من عقل عن ربه وأدرك أوامره ونواهيه، والتزم جانب الخير، وابتعد عن الشر. وذلك هو المسلم.

أما معاوية وعمرو بن العاص وهما اللذان اشتهرا بالدهاء والمكر والفطنة السياسية، فإن أبلغ ما يوصف به العقل السياسي هو أنه عقل اجتمعت فيه التجارب والموهبة، والفطنة والتغافل، فإذا أضفنا إلى ذلك البراعة في الخروج من المآزق في قول عمرو، والتدليل على زيادة الدهاء في قول معاوية أنه بلغ من العقل أن لا يدخل في أمر لا يستطيع الخروج منه، وجدنا أن هؤلاء الصحابة كانوا على مستوى من التفوق العقلي والخبرة العقلية، جعلهم يصفون العقل بصفات يحتاج إليها كل رجل حكم وكل رجل سياسة في كل وقت وفي كل حين.

وأروع ما يكون العقل عندما يصيب بالظن، فذلك عقل العالم، لأن العالم يستند إلى قضايا ظنية للوصول إلى نتائج يقينية أو قرينة من اليقين، وذلك بأن يقيس الأشباه على الأشباه ويقارن بين ما وصل إليه من معلومات بما يمكن أن يقع في المستقبل نظيراً لها أو شبيهاً بها.

وإذا كان هذا هو أسلوب المناطقة والفلاسفة في قضاياهم، فإن عمرو بن العاص كان قبل الاتصال بالفلسفة وأساليبها فقال ذلك بالسجية والفطرة فأصاب قلب الحقيقة.

الفصل الثاني

العلماء .. والعقل

لا يمكننا وقد قمنا بجولة واسعة في القرآن والسنة حول العقل ومعانيه إلا أن نمر مروراً سريعاً ومختصراً بأقوال بعض كبار العلماء الأقدمين والمفسرين، مع آرائهم المتأثرة بالفلسفة أو المعارضة لها دون أن نتعرض لأقوال الفلاسفة المسلمين منهم في العقل لأن هذه الآراء ذات قيمة فكرية يمكننا أن نستفيد منها في بحثنا هذا، وذلك بإلقاء الضوء على الأبعاد التي فهمها العلماء من خلال نظرتهم لآيات العقل في القرآن والسنة.

ولا شك أن الصراع الفكري الذي قام بين النصيين والعقليين، أو بين أهل السنة والمعتزلة قد أعطى للعقل أبعاداً علمية وموضوعية وفلسفية أثرت الفكر الإسلامي، وبعثت فيه الحيوية والنشاط، مع محاولة كل جانب أن يستند إلى القرآن في منهجه، مما جعل التأويل الدقيق لآيات القرآن عملاً جليلاً يستحق أن نقف أمامه طويلاً لأنه جعل من تفسير المفردات اللغوية في القرآن على ضوء المنطق والفلسفة علماً خاصاً قائماً بذاته، ينسب إلى علم الكلام تارة، وإلى علم التفسير تارة أخرى، وإن كان كل علم لا يستغني عن الآخر لوجود تلازم بينهما في أكثر الأحيان.

إن مسؤولية الإنسان عن أعماله كانت هي مدار الخلاف، وحول هذه المسؤولية جرى جدل علمي عظيم، لا يمكن إلا أن نعترف له بالفضل، لأن

هذه المسؤولية وتحديد لها هدف إنساني منذ أقدم أيام التاريخ الإنساني حتى يومنا هذا .

فإذا عدنا إلى التاريخ الإسلامي ، ماذا نرى ؟ نرى حواراً على أرفع المستويات السياسية والعلمية شارك فيه الخلفاء ، وتأثر به عدد منهم حتى كانت عهودهم خاضعة خضوعاً تاماً لبعض المدارس العقلية ، كما حدث في عهد المأمون من تأثره بآراء المعتزلة ، ومحاولته إرغام العلماء التسليم بها ، مع تعرضهم لشتى أنواع الفتنة والابتلاء كما حصل لأحمد بن حنبل عندما رفض القول بخلق القرآن .

ولا شك أن السياسة قد لعبت دوراً كبيراً في خلق هذا الجو الفكري ، والصراع العلمي حول مسؤولية الإنسان عن أعماله ، وهو ما عرف بالجبر والاختيار ، ذلك أنه « حينما استقر الأمر لمعاوية بعد الاتفاق الذي حصل بينه وبين الحسن بن علي ، أراد معاوية أن يثبت في أذهان الناس أن إمرته على المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره ، فأشاع الفكرة ، وشجع مذهب الجبر ، وأخذ هو ، وخلفاء بني أمية من بعده ييثون الفكرة بمختلف الوسائل »^(١) .

« ولذلك كان رد الفعل الطبيعي أن يوجد من ذوي الضمائر من يعلن أن فكرة الجبر خطأ ، وأن الإنسان حر مختار فيما يأتي وفيما يدع » .

يقول الشيخ زاهد الكوثري في مقدمته لكتاب « تبين كذب المفترى » :

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر ج

« وقد سمع هناك في البصرة معبد بن خالد الجهني: من يتعلل في المعصية بالقدر، فقام بالرد عليه، ينفي كون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكليف، فضاقت عبارته، وقال: « لا قَدَرَ والأمر أنْفُ ».

ذكر المقرئ، أن « معبدًا » و « عطاء بن يسار » كانا يأتیان الحسن البصري ويسألانه: « يا أبا سعيد إن هؤلاء - يريدان الأمويين - يسفكون الدماء، ويأخذون الأموال... ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله » فيرد الحسن « كذب أعداء الله »^(١).

كانت هذه بداية الاستناد إلى العقل، لأن المعتزلة تبنيوا هذه المقالة، وأجمعوا على أن الله خلق قدرة في العبد يخلق بها أفعال نفسه^(٢) « فالإنسان في نظر المعتزلة فاعل مختار حر الإرادة، يتصرف بهذه القدرة التي منحته إياها العناية الإلهية كما يشاء، ويوجهها حسبما يريد، ويستغلها في خلق أفعاله ».

وفي قضية التكليف قالوا: « إذا خلق الله العباد وكلفهم وجب عليه تعالى أن يزيح عنهم من كل وجه، وذلك يكون بإكمال عقولهم وإقذارهم على العمل. والقدرة لا تكون إلا قدرة على الأمور به وعلى ضده. ولهذا صار بعضهم إلى أن أول ما يخلقه الله يجب أن يكون عاقلاً مفكراً حتى يستطيع أن ينظر ويعتبر ويتوصل بالعقل إلى معرفة الخالق »^(٣). وهذا يذكرنا بحديث « أول ما خلق الله العقل... » الذي اتهموا بوضعه.

(١) الخطط للمقرئ ج ٤ ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) الملل والنحل ص ٤٥.

(٣) المعتزلة: ص ١٠٥.

« واتفقوا على أن أصول المعرفة، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع. والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن، واجتناب القبح واجب كذلك. وورود التكاليف ألطاف للباري تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١) .

كل ذلك من أجل أن ينفوا الظلم عن الله، وإلا فكيف يحاسب الناس على الشر وهو الذي أقدرهم على فعله، واستشهدوا لذلك بآيات كثيرة تدل على نفي الظلم عن الله وإسناده إلى الإنسان^(٢) .

ولكن المعتزلة بالغوا في تقدير العقل، واستخدموا سلطة الخليفة في فرض آرائهم على الناس، حتى قامت في وجههم حملات شديدة يقودها أهل السنة والحديث من جهة كأحمد بن حنبل وغيره، وبعض كبار المتصوفة كالمحاسبي وأمثاله من جهة أخرى.

أما المحاسبي، فقد أنشأ كتاباً في ذلك، وأهمها كتاب «العقل» وكتاب «فهم القرآن» وهو يعتبر العقل وسيلة المعرفة، رغم معارضته للمعتزلة وإنشائه الكتب للرد عليهم، فهو يعرف العقل فيقول:

« هو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية، ولا بحس، ولا ذوق، ولا طعم. وإنما عرفهم الله (إياها) بالعقل منه. فبذلك العقل عرفوه،

(١) الملل والنحل ص ٤٥ . الآية سورة الأنفال ٤٣ .

(٢) سورة فصلت آية ٤٦ سورة المؤمن آية ٣٣ سورة، سورة التوبة آية ٧١ .

وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم».

« فمن عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه، عرف أن الله تعالى قد منّ عليه بالعقل الذي سلب أهل الجنون وأهل التيه، وسلب أكثره الحمقى، الذين قلّت عقولهم»^(١).

ثم يقول: « فالعقل غريزة جعلها الله عزّ وجلّ في المتحنيين من عباده، أقام به على البالغين للحلم الحُجّة»^(٢).

إذن فهو يلتقي هنا مع المعتزلة في أن العقل هو أساس المعرفة، وموطن المسؤولية والاختيار، ولكنه استخدم عبارة « عقل عن ربه » واستشهد بقوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾^(٣) ثم قال: « يعني عنه » واستشهد أيضاً بقوله تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة﴾^(٤). يعني عقولاً. وتابع ذلك بقوله: « ثم سمى بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلًا للبيان الذي لزمته به الحجة ﴿يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾»^(٥).

والفرق بين قول المحاسبي « عقل عن ربه » وبين قول المعتزلة « خلق قدرة في العبد يخلق بها أفعال نفسه » هو أن المحاسبي يجعل معرفة الله بأن يعقل الإنسان عن الله، بينما يقول المعتزلة: « إن أصول المعرفة، وشكر النعمة

(١) « العقل وفهم القرآن » تحقيق حسين قوتلي ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣.

(٣) الأعراف ١٧٩.

(٤) الأحقاف آية ٢٦.

(٥) البقرة آية ٧٥.

واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبيح - يجب معرفتهما بالعقل» كما تقدم.

والمحاسبي أنشأ كتابه «فهم القرآن» للرد على المعتزلة «لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى نزعتهم تحكّم العقل في القرآن وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر: هو العقل لا الكتب المقدسة»^(١).

إن المحاسبي يعتبر ممثلاً للاتجاه الصوفي، وقد استشهد في كتبه بكثير من أحاديث العقل، ومنها «أول ما خلق الله العقل..» فهو يعتبر مؤيداً لوجهة النظر التي تقول بتفضيل العقل مع التزامه الأدب الصوفي في حضرة الله عز وجل إذ يجعل كل معرفة تكون بأن يعقل الإنسان عن ربه، ويفهم عن ربه.

يقول: «لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان عقله، وجوهر العقل التوفيق، وكل زاهد زهده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر قوة إيمانه».

وهكذا فالمعتزلة يدعون إلى استقلالية العقل وسبقه بالمعرفة، والمحاسبي، يدعو إلى ربط العقل بالإيمان، مع اعتباره أن العقل هو جوهر الإنسان.

وسواء كان العقل مستقلاً بإرادته، يخلق أفعال الإنسان، أو غير مستقل فإنه مخلوق لله، واستقلاليته لا تنفي أنه مخلوق، وإرادة الله كلية، وهي الإرادة الخالقة لكل شيء، وإرادة الإنسان جزئية وهي الإرادة المتعلقة بالأعمال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان من خير أو شر، وفي هذا يتحقق

(١) أستاذ السائرين ص ٤.

معنى العبودية الكاملة لله ، لأن إرادة الإنسان الحرة ليست إرادة مطلقة ،
بينما إرادة الله مطلقة ما شاء فعل وما لم يشأ لم يفعل .

فالمعتزلة رغم سعيهم إلى القول بجرية الإرادة الإنسانية لكي يكون
التكليف منطقياً ، ومتفقاً مع العدالة الإلهية حسب رأيهم من حيث الثواب
والعقاب ، فإنهم لم ينكروا أن العقل أو أن القدرة التي يخلق بها الإنسان
أفعال نفسه مخلوقة لله ، وفي هذا عودة إلى الله ، وأن كل شيء يقع في الكون
مخلوق له ، والحرية التي ينادون بها هي حرية نسبية إذن .

من أجل هذا فإن الأشاعرة وهم يمثلون أهل السنة ، جاؤوا بوجهة نظر
تقف وسطاً بين الآراء المتطرفة ، سواء أولئك الذين قالوا بالجبر ، أو الذين
قالوا بالاختيار ، فقالوا - أي الأشاعرة - إن الفعل نفسه من الله والقدرة
الحادثة التي يتم بها الفعل منه تعالى أيضاً ، والإنسان له الإرادة والتوجيه ،
فوافقوا المعتزلة بأن الإنسان حر في إرادته من ناحية ، وخالفوهم بأن هذه
الإرادة إنما تتم بتقدير الله وإرادته .

قال أبو الحسن الأشعري : « وإرادته واحدة ، قديمة ، أزلية ، متعلقة
بجميع المراتدات من أفعاله الخاصة وأفعال عبادته ، من حيث أنها مخلوقة له ، لا
من حيث أنها مكتسبة لهم » ...

وقال : « والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية
بين حركات الرعدة والرعدة ، وبين حركات الاختيار والإرادة . والتفرقة
راجعة إلى أن الحركات الاختيارية حاصلة تحت القدرة ، متوقفة على اختيار
القادر »^(١) .

(١) الملل والنحل ص ٩٦ .

نلاحظ هنا أن المعتزلة والمتصوفة والأشاعرة يجعلون للعقل قدرة على الاختيار، ولكن كل فريق من هؤلاء يختلف عن غيره في نقطة واحدة هي تحديد العمل الاختياري بالنسبة لإرادة الله عز وجل. فالمعتزلة يقولون الخير من الله والشر من الإنسان وهم يريدون بذلك دفع الظلم عن الله، إذ لا يمكن أن يكون خالقاً للشر ثم يحاسب عليه من وجهة نظرهم، أما المحاسبي فإنه يعتبر أن الله احتج على عباده بما ركب فيهم من عقولهم، «وما الله بظلام للعبيد» وفي هذا يعتبر أن الله دفع الظلم عن ذاته بإيجاد العقل، وأما الأشاعرة وأهل السنة فإنهم يقولون إن الخير والشر من الله، وإن قضاء الله سبق بذلك، وإن الإنسان يكسب عمله الذي قدر له بإرادته وباختياره، وهذا لا يتعارض مع إرادة الله، لأن علم الله الأزلي يحيط بكل شيء، لذلك سخر طرق الهداية للمهتدي وطرق الضلالة للضال.

هذه القضية، الإنسان «مُسَيَّرٌ أَمْ مُخَيَّرٌ» شغلت عقول البشر منذ أقدم العصور، ولا تزال تشغل هذه العقول إلى يومنا هذا، ولا شك أن القرآن في آياته الكثيرة التي يخاطب فيها الإنسان، إنما يخاطبه على أساس أنه الإنسان المكلف..

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾^(١).

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(٢)

﴿يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في

(١) الطور آية ٢١.

(٢) الزلزلة آيات ٧ - ٨.

أي صورة ما شاء ركبك^(١) .

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره﴾^(٢) .

ثم إن مخاطبة العقل في القرآن، واستخدام جميع الوظائف التي يؤديها العقل، من تذكر وتدبر وتفكر وتبصر ورشد وهداية، كل ذلك يؤكد أن تكليف الإنسان منوط بالعقل .

ولكن هل هو عقل كلي؟ وهل هي إرادة مطلقة؟ وهل هي حرية بغير حدود؟ وهل الإنسان يختار ما يشاء ساعة يشاء؟ .

طبعاً إنه عقل جزئي محدود بالنسبة للامتناهي .. وهي إرادة مقيدة، وحرية مشروطة، والإنسان لا يستطيع أن يفعل ما يشاء لأن ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والعلمية تحدد له الكثير من شؤونه، وتؤثر فيها تأثيراً مباشراً وغير مباشر، فالإنسان تحيط به القيود من كل جانب إن شاء أو أبى .

إذن، فالمعتزلة وهم يقررون تلك الحرية المطلقة، والاختيار الكامل، والمعرفة التي تسبق السمع، إنما يرتكبون شططاً، في إسنادهم للعقل كل هذه الإمكانيات، ويحملون الإنسان فوق طاقته، وهم يظلمون الإنسان في إلقاء المسؤولية على عاتقه بهذا الأسلوب، لأن إرادة الإنسان تخضع للعوامل الكثيرة المحيطة بها، والفعل الذي تمارسه هذه الإرادة ليس وليد ظرف آلي، ربما كات وليد ظروف كثيرة سابقة، وقضية الخير والشر قضية نسبية، فما يراه إنسان ما شراً في مجتمعه وفي بيئته يراه إنسان آخر خيراً في مجتمع

(١) الانفطار آية ٦ .

(٢) القيامة ١٤ .

آخر وبيئة أخرى، وما يراه إنسان ما كفوياً يراه إنسان آخر إيماناً،
فلا ستناد إلى العقل وحده في معرفة الحسن والقبح أمرٌ غير مسلم به، بسبب
اختلاف العقول حول تحديد قيمة العمل وحقيقته من ناحية الحسن أو
القبح، لذلك وجب الاتفاق على مبدأ عام يلتزم به الجميع وهو الدين، حتى
يكون التكليف مرتبطاً بأمور محددة يجري عليها الحساب، والثواب
والعقاب.

ثم «ليكن التكليف إرادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع
لا يرتبط بها أمر ولا جزاء.. فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل
احتمال؟»

إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود، لأن إرادة إنسان واحد
تنطلق بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواه، وكيف يأتي هذا الإنسان
الواحد بإرادته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله المقيدين؟

أما أن يوجد الناس جميعاً بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء فهذه هي
الإحالة العقلية في الفرض والتقدير، قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق.

فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله، فخلق الناس مكلفين
بغير إرادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول، لأن سقوط التكليف لا معنى
له في هذه الحالة إلا أن يخلق الناس جميعاً متشابهين متماثلين متساوين في
العمل الصالح الذي يساقون إليه، كما تساق الآلات، فلا فضل إذن للعاقل
على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحسن، فضلاً عن
الحيوان..

فإذا وجب تكليف الإنسان، فالعقل الإنساني لا يوجهه إلا كما ينبغي
أن يوجب على حالة واحدة لا سواها: وهي حالة (الإرادة المخلوقة) يودعها

فيه الخالق كما ينبغي أن تودع، وهي لا ينبغي أن تودع إلا على هذا
الفرض الذي يدعو إليه القرآن»^(١).

فإذا وافقنا المعتزلة على أن الله خلق قدرة في العبد يخلق بها أفعال
نفسه، فإننا لا نوافقهم على القول بنسبة الشر للإنسان والخير إلى الله، لأنهم
يصورون الأمر على أن هناك تعارضاً بين الإرادة الخالقة والإرادة المخلوقة،
وأن الإرادة المخلوقة يمكنها القيام بأعمال خارج سلطة الإرادة الخالقة، فنفي
الظلم عن الله، أوقع المعتزلة فيما ينتقص من قدرة الله وإرادته، تعالى الله عن
ذلك علواً كبيراً، وهذا هو الغلو العقلي الذي لم يوافق عليه أهل السنة
والسلفيون.

إن وجود الشر إلى جانب الخير، هو أساس التكليف، لأنه لا معنى
للتكليف إذا وجد الخير المطلق أو الشر المطلق، وخلق الله للخير وللشر معاً
هو العدل كل العدل، لأن التجربة التي يعيشها الإنسان لا تكون تجربة
حقيقية تتناسب مع شرف وجود الإنسان وتميزه إلا إذا عرف الخير وعرف
الشر، وكان له إرادة الخيار بينهما.

فالخير والشر من الله وجوداً وعدماً، والإنسان هو الفاعل المختار بإرادة
خلقها الله فيه، غير متعارضة مع إرادة الله، ولا منافية لها، لأن الله لا يظلم
الناس شيئاً.

هذه الإرادة المخلوقة حدّد الله لها الطريق وهداها إلى الخير والشر،
وذلك عن طريق الأنبياء والرسل. وهذا أقرب إلى منطق التكليف الديني

(١) الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد ص ٥٢. طبعة دار الهلال
بالقاهرة.

الذي جاء به القرآن.

فإذا انتقلنا إلى الإمام أبي حامد الغزالي وجدناه يتحدث عن شرف العقل فيقول: «إعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟...»

«ثم يقول: فشرف العقل مدرك بالضرورة وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نوراً في قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة﴾^(١). وسمي العلم المستفاد منه روحاً ووحياً وحياة فقال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾^(٣).

وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾^(٤). ثم يستشهد الغزالي بهذين الحديثين: الأول: قال ﷺ: «يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به ونهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنيء المنزلة رث الهيئة وأن الجاهل من عصى الله

(١) النور آية ٣٥.

(٢) الشورى آية ٥٢.

(٣) الإحياء ج ١ ص ٨٨ الآية الأنعام آية ١٢٢.

(٤) البقرة آية ٢٥٧.

تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحاً
نطوقاً فالقردة والخنازير أعقل عند الله ممن عصاه ولا تغتر بتعظيم أهل
الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين»^(١). أما الحديث الثاني فهو «أول ما خلق
الله العقل قال له أقبل فأقبل.. الخ..»^(٢). ثم يعقب الغزالي قائلاً: «فإن
قلت فهذا العقل إن كان عرضاً فكيف خلق قبل الأجسام وإن كان جوهرًا
فكيف يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ولا يتحيز»^(٣).

وما أوقع الغزالي في هذا التساؤل هو بداية الحديث: «أول ما خلق الله
العقل...». وهو أشبه بتساؤل الماركسيين من الذي وجد قبل الآخر:
الفكر أم المادة؟ فقوم منهم قالوا: الفكر، وآخرون قالوا: المادة..

ويؤسفنا أن نذهب إلى الرأي الذي يقول إن الغزالي وقع فيما وقع فيه
غيره من لبس بحكم أخذه بمثل هذه الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية، والتي
سبق وعرفنا رأي علماء الحديث بها.

ويبدو أن حديث: «أول ما خلق الله العقل» قد أوقع أكثر الفرقاء في
التورط بأقوال تتعارض قليلاً أو كثيراً مع النصوص القرآنية التي تقرر أن
خلق آدم كان بأمر الله «كن» فكان، وليس في القرآن ما يوحي بهذا الجدل
عن خلق العقل أولاً أو الجسم أو كليهما معاً، وهي قضية محض فلسفية لا
صلة لها بروح الدين الإسلامي.

(١) يقول الحافظ العراقي: الحديث لداود بن المحبر من حديث أبي هريرة وهو
في مسند الحرث بن أسامة عن داود. إحياء ج ١ ص ٨٩.

(٢) الحديث سبق التحدث عنه في باب الأحاديث الضعيفة.

(٣) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٨١.

ثم إن الغزالي يعرف العقل ويقسمه إلى أربعة أقسام فيقول:

« إن العقل يطلق على أربعة معان:

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أرادته الحرث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيا بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يُقذَف في القلب به، ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم..

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد. وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال: لا موجود إلا تلك العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن حنكته التجارب وهذبه المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر. في

العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي مر بها يتميز عن سائر الحيوان.

فالأول هو الأس والمنبع، والثاني هو الفرع والأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب. والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكْتساب»^(١).

ثم إن الغزالي يتحدث عن العقل في أماكن أخرى من الإحياء فيقول: «أعلم أن البدن كالمدينة والعقل - أعني المدرك - من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته»^(٢).

والغزالي في تعريفه للعقل وتصويره له، يتأثر بالمحاسبي من ناحية التصوف، حيث يعتبر العقل غريزة يتهياً بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف من القلب به، ومن ناحية ثانية يتأثر بالاتجاهات الفلسفية في تقسيمه لأربعة أقسام، بعضها يذكر فيه التعريفات التالية: «العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات» و «إنه بعض العلوم الضرورية» ثم تصويره العقل بأنه ملك في مملكة البدن».

وهو يعتبره موطن التكليف ومناط المسؤولية عندما يسند إليه معرفة عواقب الأمور، والإقدام على الشهوة والإحجام عنها.

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ج ١ ص ٧٢ - ٧٧.

(٢) إحياء علوم الدين المجلد الثالث ص ٦ - ٧.

فإذا انتقلنا إلى كبار المفسرين للقرآن الكريم، فإننا نأتي على بعض أقوالهم في العقل وأهمها لأن المجال لا يتسع لشرح وذكر كل ما قاله المفسرون في العقل.

الفخر الرازي (المتوفى ٦٠٦ هـ): يفسر آية النور في سورة النور «الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح... إلى آخر الآية»^(١) فيذكر أن الله عز وجل هو خالق النور، وأن النور عرض، والعرض لا يمكن أن يقوم بذات الله، لذلك فإنه يفسر النور بأنه «العقل» الذي يتجلى فيه نور معرفة الله تعالى... وبعد أن يشرح ذلك شرحاً طويلاً يقول: إن للإنسان بصرًا وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للألوان والأضواء، والبصيرة هي القوة العاقلة، وكل واحد من الإدراكين يقتضي ظهور المدرك، فكل واحد من الإدراكين (نور) إلا أنهم عدّوا لنور العين عيوباً لم يحصل شيء منها في نور العقل، والغزالي^(٢) رحمه الله تعالى ذكر منها سبعة، ونحن جعلناها عشرين:

الأول: إن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها، أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها فلأن القوة الباصرة بالعين لا تدرك العين، وأما القوة العاقلة فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها في الإدراك وهي القلب والدماغ فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر.

(١) النور آية ٣٥.

(٢) يرى الغزالي كما تقدم أن العقل نور كما قال المحاسبي إنه نور غريزي يبصر به ويعبر لمعرفة الأشياء الأخرى، وإن في القلب نوراً يجعلنا ندرك الحكمة الإلهية.

الثاني: إن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ومدرّك الكليات وهو القلب أشرف من مدرّك الجزئيات، أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلأن القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل لأن الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل... ثم يعدد الآراء التي ذكرها فيقول: إن القوة الباصرة تدرك الظاهر بينما تدرك القوة العاقلة الباطن والظاهر على السواء وتغوص فيهما ثم يذكر أن الإنسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى في إدراك الحقائق وبقوته الحساسة يشارك البهائم والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف، وأن القوة العاقلة كالأمير والحاسة كالخادم والأمير أشرف من الخادم... الخ»^(١).

وعندما يفسر الرازي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الآية^(٢) يقول: ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي التي يُتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح المجردة الإلهية فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل»^(٣).

إذن فتكريم الإنسان عند الرازي كان بالعقل، وهذا يتفق مع الاتجاه الذي ذهب إليه أكثر العلماء الذين سبق ذكرهم، وخاصة المحاسبي والغزالي،

(١) الفخر الرازي ج ٦ ص ٣١٠ - ٣١٤ المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٠٨ هـ.

(٢) الاسراء آية ٦٢.

(٣) انظر التفسير الكبير للرازي.

حيث يبدو التأثير بهما واضحاً عند الرازي، حتى في تعريفه للعقل حيث يقول: «وأما العقل فإنه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هي رأس المال، والنظر والفكر لا معنى له إلا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب إلى تحصيل علوم كسبية فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء، وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح، وأيضاً حصول القدرة على الأعمال يشبه رأس المال واستعمال تلك القوة في تحصيل أعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال وحصوله أعمال البر والخير يشبه الربح. إذا ثبت هذا فنقول: إن من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ثم إنه لم يستفد منها لا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروماً من الربح بالكلية، وإذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية»^(١).

واتجاه الفخر الرازي إلى التحليل الفلسفي، والتأويل على الطريقة العقلية، مع نزعة صوفية عميقة جعلته يكتب الصفحات الطوال حول آية «النور» كما جعلته يقسم الأبواب في تفسير الآيات القرآنية تقسيماً منطقياً، وها هو ذا في آيات تنتهي بقوله تعالى: «أفلا تعقلون» أو «لعلكم تعقلون» يحلل النصوص القرآنية تحليلاً فلسفياً، ثم يرد على المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام بأسلوب منطقي محكم. مثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ...﴾ الآية . فقال: «احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن فعل العبد غير مخلوق لله عز وجل فقالوا: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ

(١) الرازي ص ٢٥٦ ج ٢٦ .

الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إنما يصح ويحسن لو كان ذلك الفعل منهم، فأما إذا كان مخلوقاً فيهم على سبيل الاضطرار فإن ذلك لا يحسن إذ لا يجوز أن يقال للأسود: لم لا تبيض؟ لما كان السواد مخلوقاً فيه. والجواب: إن قدرته لما صلحت للضدين فإن حصل أحد الضدين دون الآخر لا مرجح كان ذلك محض الاتفاق. والأمر الاتفاقي لا يمكن التوبيخ عليه. وإن حصل المرجح فإن كان ذلك المرجح منه عاد البحث فيه، وإن حصل من الله تعالى فعند حصوله يصير ذلك الطرف راجحاً والآخر مرجوحاً والمرجوح ممتنع الوقوع لأنه حال الاستواء لما كان ممتنع الوقوع، فحال المرجوحية أولى بأن يكون ممتنع الوقوع، وإذا امتنع أحد النقيضين وجب الآخر، وحينئذ يعود عليكم كل ما أوردتموه علينا، ثم الجواب الحقيقي عن الكل: أنه «لا يُسأل عما يفعل»^(١).

أما تفسيره «لعلكم تعقلون» في آية ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ الآية^(٢). فإنه يقول: «وحاصل القول: إن الموجود إما قديم وإما محدث، أما القديم فهو الله سبحانه وتعالى، وأما المحدث فكل ما عداه، وإذا كان في كل محدث دلالة على وجود الصانع كان ما عداه شاهداً على وجوده مقراً بوحدانيته معترفاً بلسان الحال بالهيئة. أما قوله تعالى ﴿لعلكم تعقلون﴾ فإنما خص الآيات بهم لأنهم الذين يتمكنون من النظر فيه: والاستدلال به على ما يلزمهم من توحيد ربهم وعدله وحكمته، ليقوموا بشكره، وما يلزم من عبادته وطاعته».

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٧ ج ٢.

(٢) البقرة آية ١٦٤.

«واعلم أن النعم على قسمين نعم دنيوية ونعم دينية، وهذه الأمور الثمانية التي أعدها الله تعالى نعم دنيوية في الظاهر، فإذا تفكر العاقل فيها، واستدل بها على معرفة الصانع، صارت نعماً دينية لكن الانتفاع بها من حيث أنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج، فكذا الانتفاع بها من حيث أنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن، فلذلك قال ﴿الآيات لقوم يعقلون﴾ قال القاضي عبد الجبار: الآية تدل على أمور: أحدها: أنه لو كان الحق يدرك بالتقليد واتباع الآباء والجري على الإلف والعادة لما صح ذلك. وثانيها: لو كانت المعارف ضرورية وحاصلة بالإلهام لما صح وصف هذه الأمور بأنها آيات لأن المعلوم بالضرورة لا يحتاج في معرفته إلى الآيات. وثالثها: إن سائر الأجسام والأعراض وإن كانت تدل على الصانع فهو تعالى خص هذه الثمانية بالذكر، لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعماً على المكلفين على أوفر حظ ونصيب، ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيراً في الخواطر»^(١).

هذا المنهج في التفسير يجعل العقل وسيلة لمعرفة الله عن طريق التفكير بآياته، ولذلك فهو يستشهد بالآيات التي تعرض مظاهر الطبيعة على أنها عرض للنعم الدنيوية من ناحية، وهي تذكير بقدرة الله من ناحية ثانية ويستخدم لفظ «سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن» فالمعرفة عنده ذات شقين، معرفة ظاهرية بدراسة الدلائل التي تدل على وجود الصانع، ومعرفة (بالبصيرة) وهي النور الذي يكون في القلب، وهذا الاستشهاد بالآيات دليل على أن القرآن يرفض التقليد واتباع الآباء لذلك يأتي

(١) الرازي ص ٢٢٩ ج ٤ .

بالدلائل ويطلب العقل بالنظر فيها لمعرفة الله تعالى .

فالعقل عند الرازي هو مدار التكليف أيضاً ، وهو مطالب بالاستدلال على وجود الله ، ليقوم بشكره وطاعته وعبادته .

أما أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى ٣١٠ هـ) فإنه يستخدم نفس التعبير الذي استخدمه المحاسبي في (العقل عن الله والفهم عن الله) وذلك يبدو في تفسيره آية: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.. إِلَى قَوْلِهِ.. لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيقول: « فأما معنى لآيات فإنه علامات ودلالات على أن خالق ذلك كله ومنشئه إله واحد (لقوم يعقلون) لمن عقل مواضع الحجج وفهم عن الله أدلته على وحدانيته»^(١).

وفي تفسيره لآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ... إِلَى قَوْلِهِ: إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيقول: يعني إن كنتم تعقلون عن الله مواظمه وأمره ونهيه وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم ومبلغ عائدته عليكم»^(٢).

وفي التنديد بالتقليد الأعمى للآباء يفسر الطبري قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.. إِلَى قَوْلِهِ.. صَمَّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣). فيقول: حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام وورغبهم فيه وحذرهم عقاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع ما

(١) الطبري ص ٣٩ - ٤٠ ج ٢

(٢) نفس المرجع ص ٤٢ ج ٤ .

(٣) البقرة آيات ١٧٠ - ١٧١ .

ألفينا عليه آباءنا ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ .

ثم يقول في ذلك: يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً ولا هم مصيبون حقاً ولا مدركون رشداً وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه فأما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل إلا من لا عقل له ولا تمييز .

ثم يتبع ذلك بهذه الرواية فيقول: حدثني محمد بن سعد قال حدثني أبي قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء كمثل البعير والحمار والشاة إن قلت لبعضها كُفْ لا يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شيء أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك . حدثني القاسم قال ثنا الحسين قال حدثت عن جريج قال ابن عباس: مثل الدابة تنادي فتسمع ولا تعقل ما يقال لها كذلك الكافر يسمع الصوت ولا يعقل^(١) .

لقد حرصنا على أن نأتي بالرواية كما هي بسندها حتى نبين أسلوب الطبري في التفسير أولاً، وحتى نؤكد اهتمام صحابة رسول الله والتابعين بتفسير آيات العقل تفسيراً يؤكد أن البحث العقلي كان متبعاً في التفسير منذ العصر الأول .

ويبدو الطبري سلفياً ملتزماً بالنص، حريصاً على أخذه عن صحابة رسول الله ﷺ، ومع ذلك فهو متأثر كما سبق وأشارنا إلى حد بعيد

(١) الطبري ج ٢ .

بالمحاسبي الذي يلجأ إلى استخدام عبارة « عقل عن ربه » كما يحرص على الاستناد إلى الرواية عن الصحابة والتابعين في شرح آرائه .

فإذا انتقل الطبري إلى تفسير (اللب) في قوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾^(١) فإنه يشرح ذلك بقوله: ولكم يا أولي العقول فيما فرضت عليكم وأوجبت لبعضكم على بعض من القصاص في النفوس والجراح والشجاج فأمنع به بعضكم من قتل بعض فحييت بذلك فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة﴾ .

ثم يقول الطبري: حدثني موسى بن هارون قال ثنا عمرو بن حماد قال ثنا أسباط عن السدي ولكم في القصاص حياة يقول بقاء لا يقتل إلا القاتل بجنايته وأما تأويل قوله يا أولي الألباب فإنه يا أولي العقول والألباب جمع اللب واللب العقل وخص الله تعالى ذكره بالخطاب أهل العقول لأنهم هم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه ويتدبرون آياته وحججه دون غيرهم^(٢) .

« ويفسر معنى « الحكمة » في قوله تعالى ﴿يؤت الحكمة من يشاء﴾ أي يؤتي الله الإصابة في القول والفعل .

واختلف أهل التأويل ، فقال بعضهم: القرآن والفقه ، قال ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وقال مجاهد: الإصابة .

(١) البقرة آية ١٧٩ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٨ .

وقال ابن زيد: الحكمة والعقل. وقيل الحكمة: الفهم»^(١).

أما محمد علي الفاروقي التهانوي (المتوفى في القرن الثاني عشر للهجرة) فيقول في تفسير مصطلح «الجامع» في كتاب كشف اصطلاحات الفنون: «الجامع: ما يجمع بين شيئين سواء كانا جملتين أو لا، عند القوة المفكرة جمعاً، من جهة العقل أو الوهم أو الخيال، وهذا المعنى يستعمل في باب الوصل والفصل، فالجامع بهذا المعنى ثلاثة أنواع: العقلي، والوهمي، والخيالي، وتوضيحه: أن العقل قوة للنفس الناطقة بها يدرك الكليات، والخيال قوة لها خزانة تصوّر المحسوسات، والوهم قوة بها يدرك المعاني الجزئية المنتزعة عن المحسوسات، وللنفس قوة أخرى تسمى مفكرة، ومتخيلة.

فالمراد بالجامع العقلي اجتماع ما هو سبب لاقتضاء العقل اجتماع الجملتين عند المفكرة، كأن يكون بينهما تماثل، أي الاتحاد في النوع أو تضاف كما بين العلة والمعلول، والأقل والأكثر»^(٢).

من هذا النص، نتبين أن التهانوي يعرف العقل بأنه قوة للنفس الناطقة بها يدرك الكليات، وكأنه يحصر المعرفة العقلية في الكليات فقط دون الجزئيات، إذ يجعل ذلك قاصراً على الخيال وحده، ثم إنه يفرق بين العقل والخيال والوهم والمفكرة والمتخيلة، ويعتبر كل واحد منها قوة للنفس منفصلة عن الأخرى، مع أنها جميعاً من قوى العقل ولا نستطيع أن نضع

(١) نس المرجع ج ٣ ص ٦٠ - ٦١.

(٢) كشف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي ج ١ ص ٣٣٦ -

فاصلاً بين كل قوة وأخرى لأن معرفة الكليات لا تكون إلا بمعرفة
الجزئيات التي تتألف منها هذه الكليات.

أما نظام الدين النيسابوري فإنه يقول في تفسير «صم بكم عمي فهم لا
يعقلون» العقل المسموع ولا المطبوع وذلك أن طريق الاكتساب الاستعانة
بالحواس ولهذا قيل من فقد حساً فقد علماً، فلما فقدوا فائدة الحواس
فكانهم عدموها خلقة قال شابور بن أردشير: العقل نوعان مطبوع ومسموع
فلا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه فإن أحدهما بمنزلة العين والآخر بمثابة
الشمس ولا يكمل الإبصار إلا بتعاونهما وقال النبي ﷺ «إن لكل شيء
دعامة ودعامة عمل المرء عقله». أما سمعتم قول الله عز وجل حكاية عن
الفجار ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾. وقال: ما
اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى»^(١).

أما أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي فإنه في تفسيره لآية
﴿أتأمرون الناس بالبر.. إلى قوله أفلا تعقلون﴾^(٢) فيقول: أي أفلا تمنعون
أنفسكم من مواقف هذه الحال المردية لكم. والعقل: المنع، ومنه عقال البعير
لأنه يمنع عن الحركة. ومنه العقل للدية لأنه يمنع وليّ المقتول عن قتل الجاني.
ومنه اعتقال البطن واللسان. ومنه يقال للحصن: معقل. والعقل نقيض
الجهل.

وقال الزجاج: العاقل من عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو
جاهل.

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن
حسين القمي النيسابوري، انظر هامش تفسير الطبري ج ٢ ص ١١١.

ثم يقول القرطبي: «اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس
بقديم ولا معدوم، لأنه لو كان معدوماً لما اختص بالاتصاف به بعض
الذوات دون بعض، وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه إذ الدليل
قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى على ما يأتي بيانه في هذه السورة وغيرها
إن شاء الله تعالى.

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم، ثم منهم من صار إلى أنه جوهر
لطيف في البدن ينبت شعاعه منه بمنزلة السراج في البيت، يفصل به بين
حقائق المعلومات. ومنهم من قال: إنه جوهر بسيط غير مركب. ثم اختلفوا
في محله، فقالت طائفة منهم: محله الدماغ، لأن الدماغ محل الحس. وقالت
طائفة أخرى: محله القلب، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس. وهذا
القول في العقل بأنه جوهر، فاسد من حيث إن الجواهر متماثلة، فلو كان
جوهر عقلاً لكان حقائق المعاني. وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد
عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحي، والعقل عرض يستحيل
ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتزماً مشتتاً^(١).

ثم يعرض القرطبي آراء العلماء في تعريف العقل فيقول:

«وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري والأستاذ أبو اسحاق الاسفرايني
وغيرهما من المحققين: العقل هو العلم، بدليل أنه لا يقال: عقلت وما
علمت، أو علمت وما عقلت. وقال القاضي أبو بكر: العقل علوم ضرورية
بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهو اختيار أبي

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ٤
ص ٣١٦ طبعة دار الشعب بالقاهرة.

المعالي في الإرشاد، واختار في البرهان أنه صفة يتأتى بها درك العلوم. واعترض على مذهب القاضي واستدل على فساد مذهبه، وحكى في البرهان عن المحاسبي أنه قال: العقل غريزة، وحكى الأستاذ أبو بكر عن الشافعي وأبي عبد الله بن مجاهد أنهما قالاً: العقل آلة التمييز. وحكى عن أبي العباس القلانسي أنه قال: العقل قوة التمييز. وحكى عن المحاسبي أنه قال: العقل أنوار وبصائر. ثم رتب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال: والأولى ألا يصح هذا النقل عن الشافعي ولا عن ابن مجاهد، فإن الآلة إنما تستعمل في الآلة المثبتة واستعمالها في الأعراض مجاز، وكذلك قول من قال: إنه قوة فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة، والقلانسي أطلق ما أطلقه توسعاً في العبارات، وكذلك المحاسبي. ثم يعلق القرطبي على هذه الآراء بقوله: «والعقل ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر»^(١).

وهكذا يعارض القرطبي رأي المحاسبي والغزالي والرازي بأن العقل نور، كذلك فهو يرد على الفلاسفة ويقول إن العقل كائن موجود ليس بقديم، وهو يميل إلى عرض الآراء المختلفة دون أن يرجح جانباً على جانب، ولكنه يأخذ بعض التعاريف كما هي دون معارضتها، بينما يعارض القسم الآخر، أو يأتي بآراء تعارضه، مما يدل على موافقته لهذا الجانب الذي لا يعارضه، ويمكن القول إن العقل عنده هو الذي يمنع صاحبه من موقعة الخطأ، وهو نقيض الجهل أي العلم.

أما الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ فإنه يفسر قوله تعالى ﴿لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يُعْقَلُونَ﴾^(٢) أي ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون لأنها دلائل على عظيم

(١) المصدر السابق ص ٣١٦.

(٢) البقرة آية ١٦٤.

القدرة وباهر الحكمة، ويستشهد بقول الرسول ﷺ تعليقاً على هذه الآية: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمَج بها» أي لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها^(١).

واستخدام التعبير (ينظرون بعينون عقولهم) يدل على أن المقصود هو التأمل والنظر، وتتبع ظواهر الطبيعة التي هي «النعم» التي أنعم الله بها على الإنسان، ثم الاعتبار للوصول إلى الإيمان بالله خالق هذه النعم.

بعد هذا العرض المختصر لآراء علماء الكلام وأهل السنة والمتصوفين وعلماء التفسير، يمكننا أن نسأل أنفسنا: ما هو مكان العقل في القرآن؟

إن الصراع الفكري بين هذه المدارس كان يتجه إلى تحديد مسؤولية الإنسان عن أعماله؟

ولكن، هل نستطيع أن نحدد مسؤولية الإنسان عن أعماله عن طريق العقل وحده؟ أم عن طريق العقل والشرعة؟ أم عن طريق الشرعة وحدها دون العقل؟

لا شك أن كل إنسان منا يحس في أعماق نفسه بقوة تتحكم في تصرفاته، بحيث يفعل هذا ولا يفعل ذاك، ويستحسن هذا ولا يستحسن ذاك.. ولكن هذه القوة التي يمكنها التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، لا تستطيع وحدها أن تحدد لنا ماهية الخير وماهية الشر، وماهية الحسن وماهية القبيح، فما أراه خيراً بالنسبة لي قد يكون شراً بالنسبة للآخرين، ومن هنا وجب الاتفاق على مبدأ عام، تتحدد فيه حقائق الخير والشر،

(١) الكشف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ٤٦٧ - ٥٣٨ المجلد الأول.

والإنسان بما لديه من طاقات يمكنه أن يخرج بقوانين تلزم المجتمع الإنساني بشريعة من الشرائع .

ولكن ما هي هذه الشريعة؟ هل هي شريعة الحرية الشخصية المطلقة بحيث يمكن للإنسان أن يحقق جميع شهواته ورغباته في ظل الحضارة الحديثة والمادية الجديدة؟ وهل هذه الحرية بمفهومها الجديد لا تعتبر من ناحية ثانية عبودية مطلقة تخضع لعوامل الشهوة ولا تخضع للنظام الأخلاقي الذي يقيم علائق الناس بعضهم ببعض على أساس أهداف سامية هي بناء مجتمع متكامل تحترم فيه وظيفة المرأة والرجل في الطبيعة، فلا يقضي عليها تحت شعار « اللذة » أو المتعة الحرة على سبيل المثال، ناهيك عن القوانين التي تحمل في طياتها وسائل الإرهاب الفكري، بحيث يعيش الإنسان في سجن كبير يخشى التحرك فيه أو الاعتراض على سلطة السجان المطلقة فيه، ومن يقول لي ما هي الحرية؟ هل هي حرية التسلط؟ هل هي حرية القوة المادية؟ هل هي حرية الفوضى؟ هل هي حرية الفوغاء والديماغوجية تحت ستار التقدم والمدنية .

إن الإلزام الخلقي يجب أن يرتبط بمبادئ سامية، تحقق للإنسان ما يصبو إليه من كرامة وطمأنينة ورضا وراحة ضمير، ولن يكون ذلك إلا إذا وافقت الشريعة في أهدافها العليا ذلك النداء الباطني الذي يشد الإنسان إلى المثل الأعلى وهو العقل، فالعقل وحده يضل، والشريعة تهديه، ولا بد للقاءهما واتفاقهما من أن تكون الشريعة متفقة مع روح العدالة والإخاء الإنساني ومحقة للسعادة النفسية لدى البشر، وهذا هو دور الدين الذي ينظر إلى الناس جميعاً على أنهم خلق الله وعباده، وأنهم على هذا الأساس متساوون أمامه في الحقوق والواجبات .

إن العقل يمكنه أن يكتشف الحقيقة، ولكنه لا يكون ملزماً بها إلا إذا توجه ضميره الباطن إلى مثل أعلى يشعره بوجوب احترام الشرائع والقوانين، وذلك هو الدين.

وقد اختلف علماء الإسلام حول التكليف، هل يعتبر الإنسان مكلفاً قبل تبليغه الرسالة أم لا؟

« قال المعتزلة: إنه مكلف بما يهديه إليه عقله، وهذا التكليف يمدح أو يُذم، ويثاب أو يعاقب. وقال الماتريدية والأشاعرة: إنه غير مكلف، وإذا جاز أن يترتب على إدراكه مدح أو ذم في الدنيا فلا يترتب عليه ثواب ولا عقاب في الآخرة، لعدم الوحي»^(١).

فلا ثواب ولا عقاب إلا بما ورد به الشرع، ولذلك يقول تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(٢). ويقول: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾^(٣).

ولكنهم اشترطوا «أن يكون المكلف عاقلاً، لأن العقل أداة الفهم والتفكير، وبزواله ينتفي أعظم مقوم للإنسانية، ويكون التكليف كتكليف البهائم: لا يصلح به أمر، ولا تندفع به حجة، ولما كان العقل وصفاً باطنياً، يحصل للإنسان بالتدريج - كان لا بد من وضع حد منضبط يكون مناهياً لاستكماله، ولهذا كان شرط التكليف بلوغ المكلف من غير خلل في عقله».

(١) أصول التشريع الإسلامي، علي حسب الله ص ٣١٣.

(٢) أصول التشريع الإسلامي، علي حسب الله ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

« فلا يكلف المجنون ولا الصبي ولا النائم ولا السكران، لأنهم حين
تلبسهم بهذه الأوصاف لا يفهمون دليل التكليف، فلا يعقل توجيه الخطاب
إليهم، ولهذا قال ﷺ: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن
الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل).

الباب الرابع

الفصل الأول

القلب في القرآن

هل نستطيع القول ونحن ننتقل من البحث في معاني العقل إلى البحث في معاني القلب إننا ننتقل من مجال إلى مجال آخر مختلف عنه؟ وهل يمكننا أن نذهب مع العرف الشائع بأن العقل يمثل الإرادة وأن القلب يمثل العاطفة، وأنه إذا تحرك القلب بطل عمل العقل؟ أي بمعنى إذا طغت العاطفة على النفس البشرية سلبت الإرادة كل قواها، لأنهم كما يقولون في الأمثلة العربية «الحب أعمى».

هذا التقسيم لا يقره القرآن، لأنه يحول الإنسان إلى مناطق نفوذ كل منطقة لها نفوذها وقوتها وسيطرتها، فالعقل منطقة ذات نفوذ خاص والقلب منطقة أخرى ذات نفوذ مناقض لنفوذ العقل، وهكذا تتصارع مناطق النفوذ في النفس البشرية على أساس مادي ومحدد، والغلبة في النهاية تكون لهذا الجانب أو ذاك.

إن القلب في القرآن يبدو مغايراً لهذه المفاهيم جميعها، بحيث تصبح الإجابة على الأسئلة السابقة إجابة سطحية وساذجة إذا أجبنا بنعم أم أجبنا بلا، لأن القلب في القرآن عالم قائم بذاته، اتسعت معانيه وتعددت جوانبه، حتى لم يعد بإمكاننا حصره في المعاني العاطفية وحدها أو في المعاني

العقلية، بل إنه يتجاوز هذا الجانب إلى الجانب الآخر، أو يحصل العكس تماماً، أو يلتقيان معاً.

إن القرآن يحتوي على مائة واثنين وعشرين آية من آيات القلب، وهي تتحدث عن جوانب كثيرة في النفس البشرية بحيث نشعرنا أحياناً أننا أمام صورة من صور العقل، أو أمام العقل ذاته، وأحياناً أخرى نشعر أننا أمام العاطفة والأحاسيس والمشاعر الوجدانية، وأحياناً ثالثة نجد أنفسنا أمام جانب يجمع بين الجانبين العقلي والعاطفي ويزيد عليهما عمقاً وبعداً آخر.

إننا سنقف إذن أمام النص القرآني - كما سبق وفعلنا - ونحاول أن نحلله متحررين ما أمكن من الآراء التي عرفها الجمهور، سنقف أمام النص وجهاً لوجه نحاول أن نستشف منه المعاني الحقيقية للفظ «القلب» وسوف نبدأ بالآية الأولى التي تعتبر في نظرنا أهم آية في القرآن بالنسبة لموضوعنا هذا والتي تبين إلى أي مدى يلتقي العقل والقلب ويتحدان في معنى واحد، يعبر تعبيراً عميقاً عن حقيقة موجودة في الإنسان تقف وراء العقل والقلب معاً.

العقل والقلب

هذه الآية التي نحن بصدد ذكرها وتحليلها هي نقطة الالتقاء بين العقل والقلب، وهي آية وردت في سورة الحج، وهي قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

أمامنا هنا ، عدة أمور :

١ - دعوة إلى السير في الأرض ، سير الباحثين عن الحقيقة ، المتأملين في مظاهر الوجود ، الدارسين للتاريخ الإنساني بما مضى فيه من أحداث وعبر ومواقف .

٢ - ولكن من الذي يقوم بالتأمل ، والدرس ، والمعرفة ، والاتعاظ ؟ إنه القلب الذي يعقل ، لأن القلب أسند إلى فعل العقل في هذه الآية فقال « قلوب يعقلون بها » مع إضافة شيء يدل على الاصغاء إلى نداء باطني رغم التعبير عن ذلك بحاسة ظاهرة وهي قوله « أو آذان يسمعون بها » .

فهل قصد بلفظ القلب مسنداً إليه فعل العقل بأنه هو العقل ذاته ؟ إنه يبدو في الظاهر أنه كذلك ، ولكنه في الحقيقة والواقع شيء أعمق من هذا وذاك ، فلا القلب قصد به العقل ذاته ، ولا الأذن قصد بها الأذن ذاتها ؛ والدليل هو الأمر الثالث في الآية الذي يفسر ويشرح ما سبق .

٣ - إنه الإشارة إلى شيء هام ، إلى معنى دقيق : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » . بحيث أسندت « العمية » إلى هذا العضو الذي يوجد في الصدر ، إلى القلب .

إذن هناك بصر وبصيرة ، هناك رؤية عينية ورؤية قلبية ، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية ولا يحس بها ولا يدرك حقيقتها لأن « بصيرته » مظلمة ، لأن قلبه أعمى ، وقد

تتكشف له الحقائق فيراها أمامه جلية واضحة كضوء الشمس؛ يراها بقلبه، يراها ببصيرته التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها، ويفهم دقائقها، فيعرف ما وراءها من حكمة.

إنها « البصيرة » إذن، إنها القلب، ولكن القلب هنا، قلب مبصر، قلب مشرق ومضيء، قلب يعقل ويدرك، قلب تتكشف أمامه الحقائق كما يسلط النور على الأشياء فتتضح وسط الظلمة.

إنه عقل من ناحية، وإنه وجدان من ناحية ثانية، أو إنه تلك القوة التي تقف وراء العقل ولا نستطيع تحديدها تحديداً مادياً، والتي نسميها « الإلهام » أحياناً، ويعرفها الشعراء والأدباء والملمهون والعباقر، وكذلك يعرفها المؤمنون الذين رزقوا شفافية النفس ورقة الشعور.

إنها لدى « المؤمنين » تلك « الرؤية الإيمانية » التي تضيء القلب بنور الإيمان فيرى الوجود بعين البصيرة لا بعين البصر، ويدرك الحقيقة إدراكاً من الداخل لا من الخارج أو الظاهر، وهذا ما يعبر عنه الكسيس كاريل بقوله:

« فالحقيقة المستمدة من العلم تختلف اختلافاً تاماً عن تلك المستمدة من الإيمان. فالأخيرة أكثر عمقاً ولا يمكن التشكيك فيها بالمجادلات. إنها تشبه الحقيقة التي يعطيها البصر المغناطيسي، ولكن مما يدعو للغرابة أن هذه الحقيقة ليست غريبة على العلم. إذ من الواضح أن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فقط. فإن العباقر يملكون إلى جانب قوتهم على الملاحظة والفهم - صفات أخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع - فعن طريق البصيرة يتعلمون أشياء يجهلها الآخرون، ويدركون العلاقات بين الظواهر شبه المنفصلة، كما يحسون بطريقة لا شعورية بوجود الكنز غير المعروف.

وجميع عظماء الرجال وهبهم الله بصيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير، ما هي الأشياء الهامة التي يجب عليهم أن يعرفوها»^(١).

«لا بد - إذن - أن يشف القلب وترق الحواس لترتفع الحجب ويستطيع الإنسان أن يرى بعين البصيرة وليس بعينه البشرية ويتجاوز سجن الواقع المحدود بالأسباب والمسببات ليطل على ما وراءه»^(٢).

المسؤولية في القلب

ولفظ البصيرة في القرآن ارتبطَ بمعنى الإحاطة بكوامن النفس البشرية لذلك ورد في آية من الآيات ليعبر عن المسؤولية الكاملة بالنسبة للإنسان ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾^(٣). فإذا كانت في أبعادها أعمق من العقل وحده، وضح لماذا استخدم القرآن لفظ القلب في تحديد المسؤولية عن العمل.

يقول الله عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٤).

ويقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٥).

(١) الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كاريل ص ١٤٥.

(٢) لغز الموت، مصطفى محمود ص ٦٠. دار العودة - بيروت.

(٣) القيامة آية ١٤.

(٤) البقرة ٢٢٥.

(٥) الأحزاب آية ٥.

فالكسب، والعمد، لفظان يدلان على إرادة الفعل، والأول يرتبط بالنية ومحملها القلب، والثاني يدل على العزم والتصميم والقصد وهذا مناط المسؤولية في الإسلام، لأن الله رفع المسؤولية عن إتيان العمل خطأ ودون قصد، وهذا يفسره حديث الرسول ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١).

وهذا يفرق بين الجبر والاختيار، لأن الحديث يرفع المسؤولية عن أخطأ دون إرادة ذلك الخطأ، وعن نسي في نفس الوقت، وهذا جانب ينطبق عليه جانب «الجبر» بينما نجد الآيات تربط المسؤولية بالقصد والإرادة وهذا ينطبق عليه جانب «الاختيار». «فالقلب المبصر» هو المؤشر الحقيقي للفرقة بين الخطأ والصواب وبين الخير والشر.

إثم القلب

فإذا تتبعنا جانب المسؤولية في القرآن فإننا نجد أن «الإثم» يسند إلى القلب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢).

فالكتمان وهو إسرار الشيء وإخفاؤه عمل من أعمال القلب، وهو يناط بإرادة الإنسان ونيته وضميره، ولذلك كان كتمان الشهادة وعدم أدائها إثم وذنب يحاسب عليه الإنسان، لأن الله يعلم ما تخفي الأنفس وما تكتم ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٣).

(١) أصول التشريع الإسلامي، على حسب الله ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٢) البقرة آية ٢٨٣.

(٣) طه آية ٧.

وهذا التعارض بين الإعلان والاسرار والتناقض بين الظاهر والباطن هو ما نسميه بالنفاق.. وهذا هو الذي يحدد حقيقة الإنسان هل هو مؤمن أم لا؟.

الإيمان والإسلام

إن الآية التي تعالج موضوع إظهار الإسلام باللسان وحكمه في القرآن هذه الآية هي أيضاً ركيزة من ركائز الدين لأنها تشعرنا بأهمية القلب، بأهمية النية، بأهمية السريرة، فليس ما يعلنه الإنسان هو ما يعبر عن حقيقته بل ما يبطنه.

إن الفرق كبير بين الإيمان وبين إعلان الإسلام، يوضح ذلك الآية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^(١).

هنا قضية جديدة، وهي قضية أساسية، أن يقول الإنسان إنه مسلم هذا لا يكفي ليتحقق إسلامه.. لأن المدار ليس على القول وحده.. بل «الإيمان» وهذا الإيمان مركزه القلب.

وكانت طريقة المنافقين هي أن يتظاهروا بالإسلام وأن يخفوا في نفوسهم العدا للدين وللنبي، فأظهر القرآن هذا النفاق بقوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي

(١) الحجرات آية ١٤.

قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿١﴾ .

في هذه الآية كشف لفريق من الناس يبالغ في تمثيل مظاهر الإيمان حتى يخدع الآخرين « لأنه يشهد الله على ما في قلبه » مع أن قلبه ملىء بالحق على العقيدة وعلى أهلها .

وهذا يؤكد أن القلب هو جوهر الإنسان ، وهو الذي يقصد إلى الإخفاء أو الإعلان ، وهو الذي يقصد إلى الخداع والنفاق .

نفاق القلب

وتتعدد الآيات التي تظهر التناقض بين القول والعمل أو بين القول والنية والقصد ، فتؤكد أن هذا العمل هو نفاق من ناحية وهو كفر من ناحية أخرى ، لأن النفاق نوع من التلون ، والكفر نوع من إخفاء الحقيقة ، وكلاهما إخفاء شيء وإظهار شيء آخر يختلف عنه ، أو أن كليهما إخفاء للحقيقة على أي حال .

والقرآن يوجه هذا الإتهام إلى قوم فيقول « وليعلم الذين نافقوا » ثم يصفهم بأنهم « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » مع العلم أنه يقرر أنهم للكفر - وهم على هذه الحالة - أقرب منهم للإيمان .

يقول الله عز وجل :

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ

(١) البقرة آية ٢٠٤ .

بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ . آل عمران ١٦٧ .

الفريق الآخر يوجه إليه تهمة الكفر مباشرة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . سورة المائدة آية ٤١ .

وهو عز وجل يخبر المؤمنين ويحذرهم في نفس الوقت من هذا النوع الخطر من الأعداء الذين يكيّدون للإسلام وأهله بأنهم « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم » .

يقول الله عز وجل:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . التوبة آية ٨ .

فقول باللسان يختلف عما في القلب ، وإعلان للإيمان مع عدم إرادة ذلك من القلب ، وإرضاء بالفم ورفض بالقلب .

كل ذلك يوضح مدى أهمية الدور الذي يلعبه القلب في قضية الإيمان والكفر والقصد إليهما ، ومدى مسؤولية الإنسان عما يكتُم في قلبه ، وارتباط هذه المسؤولية بعقيدته .

أما النوع الثالث من النفاق فهو يتمثل بأولئك الذين يتقاعسون عن

أداء واجب الجهاد من الأعراب، ويدعون بأن أعمالهم وأولادهم وأموالهم شغلتهم عن هذه المهمة، ويطلبون المغفرة تظاهراً بالإيمان، فيقرر القرآن أيضاً أنهم ﴿يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ويخفون الحقيقة التي تؤكد عدم صدق إيمانهم وعدم إخلاصهم للعقيدة. وهذا النوع يرفضه الإسلام حتى ولو صدر من قوم مؤمنين إذ يقول في مكان آخر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

يقول الله عز وجل:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا، يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.
سورة الفتح آية ١١.

ولما كان النفاق ظاهرة اجتماعية كريهة وصفة أخلاقية ممقوتة، ولما كانت هذه الظاهرة تعتمد الكذب والتضليل فإن المنافق في العادة يبدو خائفاً من افتضاح أمره وكشف مكنونات قلبه، لعلمه بحقيقة الدور المتناقض الذي يقوم به، لذلك فإن القرآن ينذر المنافقين بأن حقيقتهم ستكشف أمام الله، حيث يظهر ما يضمرون.

يقول الله عز وجل:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ التوبة آية ٦٤.

أما الفريق الآخر، فهو الذي يكون فقيراً فيعاهد الله على أداء الزكاة والصدقة إذا أغناه من فضله ورزقه الثروة، فإذا تم له ذلك نكث عهده،

وبخل وضمن بماله ، فهذا الفريق يندره المولى عز وجل بأشد العقاب ، فيقول :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ سورة التوبة الآيات ٧٥ - ٧٧ .

مرض القلب

وعندما يتعرض القرآن لظاهرة النفاق يتعرض لها كظاهرة مرضية ، ولكن هذه الظاهرة مكانها القلب ، لأنه محل القلب والتغير والتلون ، وهو مصدر الكفر واخفاء الحقائق الثابتة .

١ - إن القرآن يصور حالات النفاق هذه في مختلف الظروف والأحوال التي تعبر عنها ، وفي القسم الأول من سورة البقرة يقدم لنا نموذجاً من هذه الحالة المرضية ، فيقول :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ . وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ سورة البقرة الآيات ٨ - ١٠ .

أمامنا أربعة مظاهر من مظاهر النفاق في هذه الآية :

أ - ادعاء الإيمان مع إخفاء نقيضه .

ب - المنافق يخدع نفسه وهو يظن أنه يخدع الله ويخدع المؤمنين .

ج - علم الله أن المنافق مصاب بحالة مرضية في قلبه، فزاده مرضاً، حتى يتناسب ذلك مع العقوبة التي يستحقها مرضى النفاق.

د - النفاق والكذب توأمان.. وعقوبتهما عقوبة واحدة.

٢ - إن مريض القلب انتهازي، تتسم تصرفاته بانعدام الإخلاص، وانعدام الثبات على مبدأ، لذلك فهو يلجأ إلى مراعاة أعداء الإسلام، متخذاً لنفسه حججاً واهية، تدل على الانتهازية التي ذكرناها، ومنها مراعاة هؤلاء الأعداء خوفاً من فشل الدعوة الإسلامية وتحسباً للمستقبل ليظل على صلة بهم، والقرآن ينذر مرضى القلوب بأن الله سيكشف ما أسروا في أنفسهم من النفاق.. وهذا التأكيد على كشف السر يدل على أن القلب مكانه ومحله كما أسلفنا.

يقول الله عز وجل:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ سورة المائدة آية ٥٢.

٣ - أما الظاهرة التي يتميز بها المنافق أو مريض القلب فهي ضعف اعتقاده ويقينه، لذلك فهو يسخر من المؤمنين وهو يراهم على قلتهم يواجهون الكثرة الكثيرة من الكفار فيتهمهم بالغرور استهزاء واستنكاراً لشجاعتهم وصدق إيمانهم. إن ضعف اليقين بالله حالة نفسية تؤدي إلى الجبن والخوف وهذه صفة المنافقين في مواقفهم من الدعوة الإسلامية، وفي المقابل نجد أن المؤمنين يتصفون بالشجاعة والجرأة والاقدام لثقتهم بالله ويقينهم بنصره لهم.

يقول الله عز وجل:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة الأنفال آية ٤٩ .

٤ - ومن صفات مرضى القلوب الريبة والشك، لأن القرآن يضع إلى جانب مرض القلب صفات أخرى تساوي هذا المرض أو تترتب عليه من ذلك قول الله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ يجيء ذلك في معرض التنديد بهم وهم يعرضون عن الاصفاء لحكم الله، فهم إما يشكون في حقيقة الدين أو يخافون أن يأتي الحكم وفيه ظلم لهم من جانب الله ورسوله.. وكلا الموقفين يدل على الريبة وضعف اليقين.

يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة النور الآيات ٤٨ - ٥٠ .

وقد نزلت هذه الآيات في رجل من المنافقين اسمه « بشر » كانت بينه وبين يهودي خصومه في أرض، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله، فأبى المنافق ذلك.

٥ - ثم لماذا هذا التأكيد المستمر على ربط صفة النفاق بمرض القلب؟ أليس هذا دليلاً على ارتباط الأعمال التي تتسم بالنفاق والكذب والرياء والشك والريبة، وكلها أمور مضمرة، يظهر الإنسان فيها غير ما يبدي،

أليس ذلك يدل على أن محلها القلب ومكانها هذا المجال الخفي عن
الأعين...؟

إن هذه الظاهرة في القرآن تؤكد ذلك! يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
إِلَّا غُرُورًا﴾ سورة الأحزاب آية ١٢ .

إن الظاهرتين تعبران عن شيء واحد، وهما مصدر الشرور والآثام،
ومبعث الكيد والتآمر، لذلك كانت الاشاعات المغرضة، وإثارة الشك في
أوضاع المسلمين وأحوالهم تنبع من المنافقين والذين في قلوبهم مرض..
فالقلب إذن هو مصدر الشر كما أنه مصدر الخير.. وهو مصدر الكفر كما
أنه مصدر الإيمان، لذلك شدد القرآن النكير على المنافقين والذين في قلوبهم
مرض.. ولعنهم وهددهم بأشد أنواع العذاب.. ليس هذا فحسب بل جاء
ذكر مرضى القلوب والكافرين في سياق واحد وهو يتحدث عن ارتياب
الطرفين وعدم إيمانهم بما يضرب الله من أمثال وعبر.

يقول الله عز وجل:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ الأحزاب آية ٦٠ .

ويقول جلّ وعلا:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ، وَمَا

يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿سورة المدثر آية ٣١﴾ .

٦ - وهذا معناه أن النفاق والكفر من أمراض القلب، وأن هذه الأمراض التي تمس عقيدة الإنسان وإيمانه و يقينه هي أمراض متساوية في الدرجة، وأن القلب مركزها ومحملها جميعاً.

٧ - إن القرآن يصوّر مظاهر القلب تصويراً دقيقاً عند دعوة المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله، لأن الحرب فيها امتحان للقلوب.. إنه يدعوهم إلى القيام بواجبهم نحو عقيدتهم، ولكن مرضى القلوب يريدون التهرب من حمل المسؤولية فيطالبون بأن تنزل آية فيها نص عن الجهاد، فإذا نزلت الآية تراه من جنبهم وخوفهم وترددهم ينظرون نظرة المغشي عليه خوفاً من الموت..

يقول الله عز وجل:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ سورة محمد آية ٢٠ .

الطبع على القلوب وإقفالها

وتستمر الآيات في تصوير أحوال المنافقين، فإذا هم قوم قد لعنهم الله، فأصم آذانهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية نور الإيمان والهداية، فلم يتأثروا بآيات القرآن ودعوته لأن قلوبهم قد أقفلت عن هذا كله..

يقول الله عز وجل:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ محمد آية ٢٤ .

والتعبير بالأقفال والأكنة والطبع والغواش والختم، وسد منافذ الهداية على القلب، كل ذلك يشعرنا أن القلب هو الذي يفتح أبوابه لسماع الحق أو يغلقها دونه، وهو الذي يطبع عليه فلا يصغي لنداء الوجدان، أو تغشاه الغواش من حب الدنيا والإقبال على الشهوات فلا يستجيب لداعي الإيمان..

ونلاحظ ملاحظة هامة عندما يربط القرآن بين صمم الآذان وعمية الأبصار وإقفال القلوب، وكأن ذلك يحدث في وقت واحد مما يؤكد الصلة بين الحواس وبين القلب، فإذا رجعنا إلى مبحث العقل وجدنا الظاهرة نفسها حيث يأتي الصمم والبكم والعمية مع نفي صفة العقل، وهذا يؤكد ارتباط العقل بالقلب، وارتباط الاثنين معاً بالحواس، فإما هي مغلقة جميعاً وإما هي مفتوحة على الحق والنور والهداية.

وهناك آية في أول سورة البقرة تبين لنا كيف يرتبط الكفر بالختم على القلوب والأسماع والأبصار، فإنذار الكافر وعدم إنذاره سواء، لأن هذا الإنذار لا يجد الأدوات الحسية الصالحة لأن تنقل إلى القلب صوت الحق.

يقول الله عز وجل:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

سورة البقرة الآيات ٦ - ٧.

وقد ينسب الختم على القلوب إلى الله ليعبر عن معنى عميق يتصل بإرادة الفعل والمسؤولية عنه، فإذا ختم الله على القلوب فذلك لعلمه السابق بإصرار أصحابها على الكفر ورفض الحق، لأن الله عليم بذات الصدور،

وهذا ما يفرق بين الجبر والاختيار، لأن الختم ترتب على العلم الأزلي، فجرى القدر بما علم، وجاء الفعل مع الإرادة لا جبراً واکراهاً، بل اختيار ومشیئة.

إن القرآن وهو آية الرسالة والمعجزة التي جاء بها محمد من عند ربه، أنزل على قلب محمد، لو شاء الله لختم على هذا القلب فلم يتلق الوحي، ولكن إرادة الله بإحقاق الحق ومحو الباطل هي التي أوحى بكلمات الله إلى هذا القلب الذي كان مهيناً ليكون وعاء القرآن ومحل نزوله.

يقول الله عز وجل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ، وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ سورة الشورى آية ٢٤.

إن الله يبين أن بإمكانه أن يسلب الإنسان نعمة السمع والبصر وأن يختم على القلب فلا يعلم الإنسان بعد ذلك شيئاً من الحق ولا يدرك جوانب الهداية، فإذا فعل ذلك فمن يستطيع أن يعيد للإنسان هذه النعم التي تعينه على معرفة الحقيقة...؟ فتعطيل الحواس، وإقفال القلب أمام الحق هو الدليل على قدرة الله وتصرفه في هداية العباد أو ضلالهم.

يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ، انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ سورة الأنعام آية ٤٦.

فإذا انتقلنا إلى الكون، وقضية خلق السموات والأرض، كان لا بد من

المقارنة بين صنفين من الناس ، الذين يؤمنون بالخالق ، والذين يلحدون به
مؤمنون بالمادة ، أي يؤمنون بما تهوى نفوسهم من حجارة وأصنام وتماثيل ،
وهؤلاء يعبر القرآن عنهم بقوله : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟﴾ ويتبع ذلك
بقضية أخرى وهي قوله : ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ .

وتفصيل الآية ، قوله تعالى :

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ سورة
الجماثية آية ٢٣ .

أمامنا أمران :

أ - اتباع الهوى في اتخاذ الألهة من الجماد .

ب - الإضلال ، لأن الله قد علم في الأزل أنه من أهل الضلالة والكفر .
فالختم على السمع والقلب ، والغشاوة على العينين نتيجة طبيعية تتفق مع ما
ارتضاه هذا الإنسان لنفسه وما أحب من آلهة جمادية لا تضر ولا تنفع ،
فالإضلال هنا جاء مُتَّفَقاً - كما تقدم - مع العلم السابق لحصوله ، وهذا
يجعل لفظ الإضلال والهداية - وإن كان منسوباً إلى الله - مرتبطاً
باختيار الإنسان الضال الذي فضل السير مع أهواء نفسه من السير مع الحق
والحقيقة .

وهذا الاختيار يظهر في آيات أخرى عندما يستخدم القرآن عبارة
استحبوا في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾^(١) أو

(١) النحل آية ١٠٧ .

قوله ﴿استحبوا الكفر على الإيمان﴾^(١)، والآية الأولى وهي استحباب الدنيا على الآخرة تتبعها آية أخرى في سورة النحل هي ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ النحل آية ١٠٨.

مشيئة الله وإرادة الإنسان يلتقيان في خط واحد.. المشيئة الإلهية تعلم وتقرر، والإرادة الإنسانية تختار الطريق الذي استهوها.. ولا تناقض، بل حرية في الاختيار يترتب عليها الجزاء، وتتفق مع ما قدر للإنسان في حياته وبعد موته.

والقلب هو محل الاختيار، ويبدو هنا في صورة العضو الذي أحاطت به أسوار عالية تحجب عنه النور والرؤية وتمنعه من سماع صوت الحق والإصغاء إلى نداء الإيمان..

فالطبع أو الختم أو الإقفال كلها تعني تعطل القلب عن إداء دوره الحقيقي في الإدراك والمعرفة والفهم.

فالقلب في القرآن مركز الإيمان ومحل الكفر كما رأينا.. والقرآن يصور هذه الحالات التي تنتاب القلب تصويراً نفسياً توضح لنا أكثر فأكثر المقصود من تعابير الختم والطبع على القلب في حالة الكفر، وذلك في قول الله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فالشرح والضيق هما التعبيران المتقابلان بالنسبة لحالتي الإيمان والكفر، والشرح يعبر عن راحة النفس واطمئنان القلب إلى الإيمان، والضيق يعبر عن اضطراب النفس وعدم اطمئنان القلب إليه ونفوره من دعوة الإسلام.

(١) التوبة آية ٢٣.

فإذا قيل أليس الختم والطبع والإقفال من فعل الله فكيف يطلب الإيمان من الإنسان في هذه الحالة؟ وهنا تأتي الإجابة مبنية أن هناك سبباً لذلك، وهو اختيار الإنسان للكفر، أو كثرة الذنوب، أو عدم التصديق بالأدلة والأمثلة التي وردت في القرآن، والتكذيب بالرسل، أو اتباع الأهواء.

أما اختيار الكفر، واصرارهم عليه، ورغبتهم به، فيبدو واضحاً في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة البقرة آية ٨٨.

وقوله تعالى:

﴿فَمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة النساء آية ١٥٥.

وأما كثرة الذنوب، وارتباطها بالطبع على القلوب، فتظهر في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ سورة الأعراف الآيات ١٠٠ - ١٠١.

وأما عدم التصديق بالأدلة التي تقنعهم والبراهين التي تبين لهم صدق

القرآن، فتبينها الآيات التالية، يقول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ. كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الروم الآيات ٥٨ - ٥٩.

أما رفضهم الإيمان بما جاءت به الرسل من البينات، وتكذيبهم لهم، فيوضحه قول الله جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ سورة يونس آية ٧٤.

وإما اتباع الهوى، والسخرية من أقوال الرسول ﷺ، ومحاولتهم التقليل من شأنها، فإن الله بين أيضاً أنها سبب من أسباب الطبع على القلوب واغلاقها فلا تسمع نداء الحق.

يقول الله عز وجل:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ، مَاذَا قَالَ أَنْفَاءً، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ سورة محمد آية ١٦.

القلب والمعرفة

والقلب في القرآن هو مكان الفقه والمعرفة، فإذا أغلق أو طبع عليه فلا يعلم ولا يفقه ولا يعرف.. فالذين تخلفوا عن الجهاد ولم يخرجوا مع رسول الله، طبع الله على قلوبهم « فلا يفقهون » ما كان ينتظرهم من الخير والثواب

ولا « يعلمون » جزاء الجهاد وقدره عند الله .

يقول الله عز وجل :

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾
سورة التوبة آية ٨٧ .

ويقول جلّ وعلا :

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة التوبة آية ٩٣ .

أما القرآن ، فإن الله قد أقفل قلوب الكفار عن سماعه وفهمه والتفقه
بمعانيه ، فإذا تلى على أحدهم أعرض وامتنع عن الإصغاء ، ولم يهتد بهديه
لأن الحاجز الذي يحول بين قلبه وبين ما يسمع حاجز يغطي على
أحاسيس الإنسان فلا يدرك ما يتلى عليه من آيات .

يقول الله تعالى :

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِذَا ذَكَرْتَ
رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ سورة الإسراء آية ٤٦ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ،
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى
الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ سورة الكهف آية ٥٧ .

وهذا يفسره ما ورد في سورة المطففين : ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي غلب على
قلوبهم فغشيها وعطلها عن إدراك آيات القرآن ما كانوا يكسبون من

المعاصي . وفي موضع آخر يطرح السؤال بالصيغة التالية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟﴾ سورة محمد آية ٢٤ .

الأعمال السيئة والمعاصي تحيط القلب فيصبح مظلماً، وينكر القرآن، ولا يؤمن به، وكأنه مقفل مغلق لا يتدبر ولا يعتبر..

فالمعرفة إذن مرتبطة بالقلب .

فإذا سرنا مع الآيات وجدناها في أكثر من مكان تؤكد هذا، فالتعبير عن الجهل يأتي بلفظ « غَمْرَة » وكأن القلب يعيش حالة معينة تحجب عنه المعرفة، وهي الغرق في الآثام. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مغشاة بأغطية فلا تعي ما يتلى عليها من آيات، وهكذا تحول الحوائل بين القلب والتفقه بالقرآن لأن الذنوب تتراكم عليه والنفاق يصدئه، فيتقلب بين الإيمان والكفر دون أن يستقر على حال .

يقول الله عز وجل:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ سورة المنافقون آية ٣ .

ومرة ثانية مع القلب نأتي إلى المقارنة بين الإنسان والحيوان، فنرى أن العلامة الفارقة التي تميز الإنسان من الحيوان هي العقل ولكن اللفظ هنا لفظ « القلب » لأنه أداة الفقه والمعرفة .

يقول الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَغْنَىٰ لَا يُنْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿سورة الأعراف آية ١٧٩﴾ .

هذا اللقاء بين العقل والقلب في الارتباط بالمعرفة أولاً ، وبالحواس التي تساعد على المعرفة ، والتمييز بين الإنسان والحيوان على أساسهما ، وتشبيه الكفار الذين لا يستفيدون من هذا بالحيوانات ..

هذا اللقاء يجعلنا نتصور وحدة الهدف والغاية بينهما ، بل وحدة الدور الذي يؤديانه ، فإما أن يكونا شيئاً واحداً في الحقيقة والواقع ، وإما أن يكونا متلازمين كلياً في العمل حتى أن أحدهما لا ينفك عن الآخر .

ولما كان فهم الآيات يحتاج إلى العقل والسمع والبصر فإن تعطيل هذه الأعضاء ، يرفع الصفة الإنسانية عن الإنسان ويلغي دوره ، ويلقي به إلى الضلال والجهالة .

ولما كان الجدل على غير علم هو من طبيعة المعاندين المتكبرين فإن القرآن ينسب إلى القلب ذاته صفة التكبر والتجبر فيقول ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ وهذا يوحي لنا أن القلب هو العضو الأهم في الإنسان لأنه يعبر عنه ككل . يقول الله جلّ وعلا :

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ سورة غافر آية ٣٥ .

ومن صفات المستكبرين التي يذكرها الإنكار والتكذيب ، فهم ينكرون الآخرة ، ويكذبون بالأنبياء والرسل ، وبالقرآن ، كل ذلك يسند إلى القلب .. قال تعالى :

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ سورة النحل آية ٢٢ .

وتظهر السببية في تعليل صرف القلوب عن الإيمان بالقرآن في قول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ سورة التوبة آية ١٢٧ .

وفي مكان آخر يستخدم القرآن لفظ « لا يعلمون » في وصف المجادلين الذين يطالبون بمعجزات خاصة بهم كأن يكلمهم الله مباشرة، ويقرر أن هذا حدث من الكفار من قبل ويقول: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ فالعلم أو عدم العلم مرتبط بالقلب أيضاً.

يقول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سورة البقرة آية ١١٨ .

فالفقه، والعلم، مكانهما القلب كما رأينا، وهذا يؤكد أهمية القلب بالنسبة للمعرفة. فلا غرو أن ترتبط به قضايا الإيمان والإدراك والوعي ارتباطها بالعقل ذاته إن لم يكن أكثر كما سيتبين لنا من خلال البحث.

منزل الوحي

ويرتفع القرآن بقيمة القلب حتى يبلغ به أعلى مرتبة في المعرفة الإلهية حيث يجعله منزل الوحي وموطن كلام الله الذي حمله إليه الروح الأمين.

يقول الله عز وجل:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ..﴾

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥ .

ويقول جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة آية ٩٧ .

إن الوحي بالنسبة للرسالة الإسلامية هو قمة المعرفة التي تصل السماء بالأرض، والخلق بالخالق، فإذا كان القلب هو وعاء الرسالة، فمعنى ذلك أنه أعطي من الثروة العلمية الربانية ما يفوق علم البشر ألا وهو كتاب الله . وهكذا تصبح المعرفة الإنسانية شيئاً عادياً بالنسبة إلى المعرفة الإلهية، إذا أسندت إلى القلب .

ولما كانت اللغة هي وسيلة الفهم والمعرفة، وهي وسيلة تبليغ الرسالة فإن القرآن يقرر بأن الوحي نزل بلسان عربي واضح حتى يفهمه العرب الذين أنزل القرآن على واحد منهم وهو النبي ﷺ .

وكذلك حتى يدرك العرب - وهم الأمناء على الدعوة الإسلامية - سر عظمة القرآن بإدراكهم أسرار بلاغته وفصاحته، فيكون عملهم بالقرآن إيماناً و يقيناً ثابتاً .

فالرسول ﷺ منذر بالقرآن، والعرب يتلقون عنه، ويبلغون الناس بحكم خبرتهم ودرايتهم بأسرار اللغة التي أنزل القرآن الكريم بها .

فإذا انتقلنا إلى مجال الاعتبار والاتعاظ، والبحث في تاريخ الأمم السابقة، وما حل بها رغم قوتها يبرز القرآن دور القلب وهو التفكير والتأمل والتذكر فيقول:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾
سورة ق آيات ٣٧.

إن في مصارع الغابرين، وانهيار حضارات الشعوب السابقة، وبقاء آثارها فقط، ذكرى لمن كان له قلب.

ومن لا يتذكر ويتعظ ويعتبر بمثل هذه الدروس، ولا تحرك قلبه تلك الآثار، يعتبر ميت القلب والوجدان.

إن الإنسان العاقل من أمعن النظر في قصص الأمم السابقة، وألقى إليها السمع وأصغى لما فيها من أدلة وبراهين وعبر.. وخرج بإيمان ثابت لا يتزعزع بالإله الخالق القادر على تغيير الأمم وتبديلها، وتقليب الأزمنة، وإزالة الشعوب.. وإحلال غيرها مكانها..

وأكثر المفسرين على أن القلب هنا هو العقل، ولكن كما نرى هو عقل مبصر يحس ويشعر، ويتعظ ويعتبر، ويحرك وجدان الإنسان ويبعث فيه الإدراك الواعي بالحقائق الكونية.

وسنعود إلى البحث في تفسير هذه الآية، عند الاستشهاد بآراء العلماء في ذلك.

والإنسان ذو قلب واحد، لذا يجب على المؤمن أن يلتزم برأي واحد، وموقف واحد.. وأن يكون صادقاً مع نفسه، صادقاً مع عقيدته، وأخلاق عقيدته، ومبادئ عقيدته.. لأن القرآن يقرر:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

وهذا معناه أن الإنسان الذي يتناقض مع نفسه، فيقرر شيئاً لا يتفق مع الحقيقة والواقع، إنسان يحاول تغيير القوانين والنواميس الكونية، وضرب الحق بالباطل.

لذلك جاءت الآية تبين ذلك مع أمثلة على هذا التناقض والتناقض، الذي يرفضه القرآن، ويوضح وجه الحق فيه..

يقول الله عز وجل:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ، ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الأحزاب آية ٤.

الإنسان لا يشرع حسب هواه، ولا يخرج على شريعة الله التي تقرر له الأحكام حتى يسير بمقتضاها.. وهذه الآية أبطلت عادة الظهار عند العرب، وهي أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» أي حرام عليه كحرمة أمه، فبين القرآن خطأ هذا القول، وبرهن أن القول باللسان لا يغير من واقع الأمر شيئاً، فالأم هي الأم، والزوجة هي الزوجة، وكذلك الأمر بالنسبة للابن المتبنى، فقد كان الرجل يأخذ ولداً من غير أبناؤه،

ويلحقه بنسبه ، ويحمل اسمه ، فجاء الإسلام وأبطل عادة التبني ، وأظهر أنه ادعاء لا يتفق مع الواقع والحقيقة في شيء ، وأنه لا يقوم مقام علاقة الدم ، والبنوة الصحيحة .

﴿ذلك قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق﴾ .

القول باللسان إذا لم يتفق مع أحكام الشريعة لا قيمة له ، لأنَّ الله هو الذي يقول الحق ، وهو الذي يلزمنا باتباع هذا الحق ، ولا قيمة لأي كلام إذا جانب الحق ، وخالف قول الله .

الإلتزام الكامل بمنهج القرآن ، وعدم اتخاذ موقفين متناقضين ، أو رأيين مختلفين ، أحدهما يعبر عن الهوى ، وآخر يعبر عن الحق هو ما عناه قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾^(١) .

(١) يقال في أسباب نزول هذه الآية إنه روى الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ يصلي يوماً فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترى أنه له قلبين قلباً معكم وقلباً معه فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق خصيف عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة قالوا : كان رجل يدعى ذا القلبين . وأخرج ابن جرير من طريق قتادة عن الحسن مثله وزاد وكان يقول : لي نفس تأمرني ونفس تنهاني .

وأخرج من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال نزلت في رجل من بني فهم قال إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منها أفضل عن عقل محمد .

فالإنسان المؤمن له قلب واحد، وله عقل واحد، وله منهج واحد، وله طريقة واحدة في التفكير والإحساس والتطبيق، لا التواء فيها، ولا نفاق، ولا تناقض، ولا تنافر، ولا يخلط حقاً بباطل، ولا يقيناً بشك، ولا إيماناً بالحاد، ولا دنيا بدين.

العواطف مكانها القلب

الحب والكره، الرحمة والغلظة، التسامح والحقد، السكينة والقلق، الطمأنينة والخوف، جميع هذه العواطف محلها القلب في القرآن.

وإن أول صورة للحب الأخوي الذي ينبع من الإيمان، تذكير المؤمنين بأنهم كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم بالإسلام.

يقول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ. وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران آية ١٠٢ - ١٠٣.

ثم يقرر أن هذه الألفة هي نعمة من الله، إذ لو أراد محمد ﷺ أن ينفق أموال الأرض جميعها لما حصلت هذه الألفة، ولكن الإيمان بالله هو الذي جعلها سهلة ميسورة. يقول الله جلّ وعلا:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال آية ٦٣.

ثم يبين في دعاء خاشع كيف يحرص المؤمن على حب أخيه فيرجو الله أن لا يجعل في قلبه غلاً أو حقداً عليه .

قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحشر آية ١٠ .

ويتحدث القرآن عن طريقة معاملة محمد ﷺ لأصحابه ، وكيف كان اللين وبسطة الوجه عند مخالفتهم له نابعين من الرحمة التي تملأ قلبه ، وإنه لو كان غليظ القلب سيء المعاملة لانفضوا من حوله ، وما تبعوه .

يقول الله عز وجل :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ سورة آل عمران آية ١٥٩ .

فالرحمة هي أسمى معاني الحب والعطاء ، وهي ينبوع لا ينضب من الإحسان والحنان والوفاء والبر بالناس ورعايتهم ، لذلك أكد القرآن أن محمداً هو الرحمة ذاتها فقال تعالى : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فكانت رسالته رحمة ، وكان هو الرحمة المهداة للناس جميعاً .

فإذا جاء ذكر عيسى عليه السلام ، بين أن الذين اتبعوه بصدق ، ولم يشركوا مع الله أحداً ، هؤلاء جعل الله في قلوبهم رافة ورحمة وخوفاً وتقى . لأنهم التزموا الإيمان بالله واحد ، والمؤمنون الصادقون تملأ الرحمة والرأفة قلوبهم ، إلى أي دين انتموا وبأي رسول آمنوا .

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الحديد آية ٢٧.

وخشوع القلب عند استماعه للقرآن دليل إيمان المؤمن وعلامة تأثره بمعانيه وآياته، يأتي ذلك في مجال التحذير من قسوة القلب ضارباً المثل بالذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد، وصدئت قلوبهم، فازدادت قسوة وغلظة حتى لم تعد تستجيب لداعي الإيمان والحق.

قال عز وجل:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد آية ١٦.

ويصور القرآن موقف اليهود من الأنبياء والرسل، وكيف أن قلوبهم لم تعد تستجيب لدواعي الإيمان، فهي قلوب قاسية جامدة لا تتأثر بما ترى من آيات، ولا تعتبر ولا تتعظ بما مر بها من براهين.. فهي كالحجارة بل أشد قسوة.

والحجارة التي يقيس قلوبهم بها، فإذا قلوبهم منها أجذب وأقسى؛ هي حجارة لهم بها سابق عهد. فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً!.. ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى.. لأنها قلوب جامدة جاحدة كافرة.

قال عز وجل:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة ٧٤ .

فإذا جرت مقارنة بين الإنسان الذي شرح الله صدره للإسلام ، ذكر أن هذا المؤمن على نور من ربه ، أما في المقابل فهناك الإنسان الكافر ، وهو قاسي القلب .

أما علامة الذين آمنوا فإنهم يستمعون إلى آيات القرآن فتشعر جلودهم من خشية الله .

إحساس الكافر مبلد ، وشعوره مجمد ، وقلبه غير قابل لتذوق القرآن بسبب قسوته ، أما إحساس المؤمن فهو رقيق ، وشعوره مرهف ، لذلك يلين قلبه عند تذوقه للقرآن .

قال عز وجل :

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سورة الزمر الآيات ٢٢ - ٢٣ .

وعندما تمر الدعوة الإسلامية بتجربة من التجارب القاسية كالتجربة التي مر بها رسول الله ﷺ في حديث «الفرانيق» حين كان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه .. وهذا الحديث دار حوله جدل طويل استغله بعض المستشرقين ولا مجال للعودة إليه الآن .

ولكن نريد أن نشير إلى أهمية القلب وثباته على الإيمان عند التعرض للفتن، بينما ينكشف المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والكفار عند أدنى فتنة، وأقل تجربة، لأنهم قساة القلوب، ومن الصعوبة بمكان أن تستجيب القلوب القاسية لدواعي الإيمان.

يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. الحج آيات ٥٢ - ٥٤.

والتجارب والمحن تكون بالابتلاء المادي والمعنوي تكون بالكوارث والمصائب التي تسلط على الأمم حتى تقر بقدرة الله القاهرة، فتعود إلى رشدها، وتدعن للحق، ولكن القلوب القاسية الجامدة لا تتأثر ولا تخضع لهذه التجارب التي يختبر بها الله عباده.

قال الله عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. الأنعام ٤٢ - ٤٣.

لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل؟ فماذا كان منهم؟

نقضوا ميثاقهم مع الله، وقتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا الصلب والقتل لعيسى بن مريم، وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بها ثمناً قليلاً عرض هذه الحياة الدنيا، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمداً - رسول الله - أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم. فباءوا بالطرد من رحمة الله وقست قلوبهم ببعدهم عن هذه الرحمة. بهذا التعبير الحسي المصور المجسم للقسوة^(١).

«فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». سورة المائدة آية ١٣.

أما الخوف والوجل فإنه يتخذ صوراً شتى، منها الإيجابي ومنها السلبي:

فالخوف من الله يظهر في ذلك الخشوع الذي يحس به المؤمن عند استماعه لذكر الله، فيزيده ذلك إيماناً على إيمان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. الأنفال آية ٢.

وصفة المؤمن التي تضاف إلى الصفات الحسنة الأخرى من الصبر وإقامة الصلاة في أوقاتها، والانفاق من الرزق الحلال، هذه الصفة هي «وجل القلب» عند ذكر الله.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. الحج آية ٣٥.

(١) تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب جزء ٦ ص ٤٠.

والعطاء السخي، والتصدق بالمال للفقراء، يكون خوفاً من حساب يوم الدين، لأنهم يعلمون أنهم سيلقون رهم في هذا اليوم، وأنهم إليه راجعون. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ . سورة المؤمنون آية ٦٠ .

وهؤلاء المؤمنون لا تشغلهم الدنيا بمشاغلها، ولا تلهيهم التجارة والبيع والربح المادي عن ذكر الله والطاعة الدائمة له التي تعبر عنها الصلاة، ولا يمنعهم حب المال عن أداء الزكاة، لأنهم يخافون من العذاب الأكبر، يوم تضطرب القلوب وتزيع الأبصار من هول ما ترى يوم القيامة.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ . النور آية ٣٧ .

وهذا اليوم، يحسب له المؤمن الف حساب، ويعمل من أجل تجنب أهواله ..

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يُؤْمَذُ وَاجِفَةٌ﴾ . سورة النازعات آيات ٦ - ٧ - ٨ .

أما شعور الخوف عند الإنسان الكافر فهو يختلف عن شعور الإنسان المؤمن، لأن المؤمن شعوره شعور الخشية والتقوى، أما الكافر فإن خوفه خوف يأس وقنوط لأنه لن يجد من ينقذه من العذاب يوم القيامة ولن يشفع له صديق ولا صاحب من أصحاب الدنيا.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأُزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ . سورة غافر آية ١٨ .

وتصوير القلوب بأنها ترتفع وتعلو من اضطرابها وخوفها فتصل إلى الحناجر، تعبير عن الضيق والغم وما يحيط بالنفس من هول العذاب.

فإذا انتقل القرآن إلى تذكير المسلمين بما لاقوه من الشدة عند غزوة الأحزاب، وقد أحاط بهم الأعداء من كل جانب، وصف لهم أحوالهم النفسية آنذاك. فاستخدم نفس التعبير السابق.. للدلالة على هول المعركة.

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ الأحزاب آية ١٠.

وفي معركة بدر يكون التثبيت للمؤمنين، ويكون الرعب والخوف من نصيب الكافرين فتمتلئ قلوبهم بهما، ويتم النصر للمؤمنين بفضل ثباتهم وجراتهم.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ اضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. سورة الأنفال آية ١٢.

ويؤكد القرآن هذا المعنى بعد معركة أحد، وهو إلقاء الرعب في قلوب المشركين.

﴿سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾. سورة آل عمران آية ١٥١.

وورد هذا التعبير في بني قريظة من اليهود، وذلك في معركة الأحزاب، بسبب تأمرهم على المسلمين ومناصرتهم لأعدائهم.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ . الأحزاب آية ٢٦ .

وكذلك يرد هذا التعبير في بني النضير من اليهود، حيث كانوا ينقضون عهودهم مع المسلمين .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ . الحشر آية ٢ .

فإذا انتقلنا إلى الشعور بالغىظ والألم وجدنا ذلك مكانه القلب أيضاً، إذ يعد الله المؤمنين بالنصر لينذهب « غىظ قلوبهم » .

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة آية ١٥ .

ولما كان هناك نوع من الناس يستميله الإحسان إليه، فقد جعل القرآن سهماً من أسهم الزكاة الثمانية « للمؤلفة قلوبهم » .

﴿إِنَّا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة آية ٦٠ .

والحسرة أيضاً شعور مكانه القلب، وهو هنا شعور ينتاب الكافرين الذين يشبطون من عزائم اخوانهم إذا أرادوا القتال، ويخوفونهم من الموت .

مع أن الحياة والموت بيد الله ، لذلك ينهي الله المؤمنين عن التشبه بهؤلاء الكافرين .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
آل عمران آية ١٥٦ .

والاشمئزاز والضيق بذكر الله صفة الكافرين التي تميزهم عن غيرهم ،
بينما يفرح هؤلاء عند ذكر أعداء الله .

والاشمئزاز أو الفرح مكانه القلب أيضاً .

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ إِذَا ذُكِرَ
الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ . الزمر آية ٤٥ .

إن الآية التالية ، تؤكد أن القلب بين يدي الله ، وإنه لو شاء استحوذ
عليه ، ولكنه يترك الخيار للإنسان كي يحقق إرادة الحياة بنفسه . فالله يحول
بين المرء وقلبه ويفصل بين الإنسان وإرادته لأن أمره في النهاية إلى الله
يفعل به ما يشاء .

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ . الأنفال آية
٢٤ .

إن الاستجابة لله وللرسول ، إنما هي استجابة لدواعي الحياة ، فالرسول
يدعو الناس إلى الإيمان بالله والعمل بشريعته ، لا تحكماً فيهم ، ولا استعباداً
لهم ، إنما يدعوهم إلى الحياة بكل معنى الحياة ، فلا استجابة هنا هي استجابة

الإنسان الحر المدرك ، لا استجابة الدليل المجبر^(١) .

فإذا انتقل القرآن إلى مجال آخر من مجال المشاعر والأحاسيس وجدناه يتحدث عن الشعور بالطمأنينة والسكينة، وأسباب ذلك كثيرة:

١ - ذكر الله ، فبذكر الله تطمئن القلوب المؤمنة .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ . سورة الرعد آية ٢٨ .

ب - والنصر يطمئن قلوب المؤمنين ، ويزيد ثقتهم بالله ، فهو هدية من الله إلى عباده المجاهدين ، يستبشرون به ، ويتقوون على أعدائهم ، أعداء الإسلام .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ . الأنفال آيات ١٠ - ١١ .

ج - إيمان القلب هو معيار الثبات على الدين ، يبين ذلك تلك الحالة التي تعرض لها عمار بن ياسر على يد كفار مكة ، فقال لهم كلمة أرضتهم من باب التقية ، فحدث رسول الله بذلك فقال له : كيف كان قلبك أكان منشراحاً بالذي قلت ؟ قال : لا ، فأنزل الله :

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب جزء ٩ ص ٩٢ .

وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .
النحل آية ١٠٦ .

د - وكذلك أهل الكهف ثبتهم الله على إيمانهم ، ووهبهم الشجاعة في الحق ، فقاموا بين يدي ملوكهم ، واعلنوا إيمانهم بالله بقلوب ملؤها الإخلاص والصدق .

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ . سورة الكهف آية ١٤ .

هـ - ويكون في الصبر عند الشدائد ، كالربط على قلب أم موسى حين التقطه فرعون من اليم ، وخشيت عليه القتل ، فألهمها الله طمأنينة النفس .

﴿وَأَصْبَحَ قُودًا أُمُّ مُوسَىٰ فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . القصص آية ١٠ .

و - والسكينة احساس ذو شفافية وروحانية جميلة ينزله الله على قلوب المؤمنين ، لترتاح نفوسهم به .

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ . سورة الفتح آية ١٨ .

إن الإحساس بالرضا ، هو إحساس المؤمن ، عند القيام بعمل يتقرب به إلى الله ، لينال رضاه ، وكان هذا إحساس المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وهي بيعة الرضوان في الحديبية .

لقد اطلع الله على قلوبهم فوجدها قلوباً مؤمنة صادقة فزادها إيماناً على إيمان .

وهذا الشعور ينتاب المؤمن عند استجابته لنداء الله في الجهاد ، إذ يحس بالطمأنينة والسكينة لأنه يقاتل في سبيل الله ويستشهد من أجل إعلاء كلمة الله ، ويعلم أنه يلقي الله إذا لقيه وهو راض عنه .

لذلك استخدم القرآن هذا التعبير وهو « انزال السكينة » على القلب لتصوير السعادة والنشوة التي يحس بها الإنسان المؤمن عند اقdamه على الحرب والقتال رغبة في تلبية داعي الله ، وإيماناً بأن نصيب المجاهد إذا استشهد في سبيل الله هو الجنة والحياة الأبدية .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ . سورة الفتح آية ٤ .

امتحان القلب

ولما كان القلب هو محل الإيمان والكفر ، ومركز الهداية والضلال ، فإنه يتعرض للمواقف الكبيرة التي تظهر حقيقته ، لأن الله يمتحن هذه القلوب ليقيم الحجة على أصحابها ، يمتحنها بالابتلاء والاختبار والفتنة .

والقتال والجهاد في سبيل الله نوع من الامتحان والابتلاء ، وفي معركة أحد ، عندما خالف الرماة الأوامر طلباً للغنيمة ، تحول النصر إلى هزيمة ، فتسرب اليأس إلى قلوب المنافقين ، بينما ثبت المؤمنون في الميدان إلى جانب النبي ﷺ هذا الاختبار كشف صدق المؤمنين وكذب المنافقين .

وهنا بدأ التشكيك من قبل المنافقين ﴿يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ .

وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص لله وللعقيدة،
حينما تصطدم في موقعة من المواقع بالهزيمة، وحينما تعاني آلام الهزيمة.

وهنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله. لأمر الحياة والموت. ولأمر
الحكمة الكامنة وراء الابتلاء:

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾. سورة آل عمران آية ١٥٤.

قل لو كنتم في بيوتكم، ولم تخرجوا للمعركة تلبية لنداء القيادة، وكان
أمركم كله لتقديركم.. لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.. إن
هنالك أجلاً مكتوباً لا يستقدم ولا يستأخر. وإن هنالك مضجعاً مقسوماً لا
بد أن يجيء إليه صاحبه فيضجع فيه! إذا حمَّ القضاء والأجل، سعى صاحبه
بقدميه إليه، وجاء إلى مضجعه برجليه، لا يسوقه أحد إلى أجله المرسوم،
ولا يدفعه أحد إلى مضجعه المقسوم!.

ويا للتعبير العجيب.. «إلى مضاجعهم» فهو مضجع إذن ذلك الرمس
الذي تستريح فيه الجنوب، وتسكن فيه الخطى، وينتهي إليه الضاربون في
الأرض.. مضجع يأتون إليه بدافع خفي لا يدركونه ولا يملكونه، إنما هو
يدركهم ويملكهم، ويتصرف في أمرهم كما يشاء.. والاستسلام له أروح
للقلب، وأهدأ للنفس، وأريح للضمير! إنه قدر الله. ووراءه حكمته:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب،

فينفى عنها الزيف والرياء ، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء..^(١) .

ويأتى امتحان القلوب في مواقف كثيرة ، للتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، والمخلصين والمشككين ، ويعرضها القرآن في صور كثيرة ، يضيق المكان عن التعرض لها كلها ، إذ نكتفي هنا بالألفاظ التي تنص على امتحان القلب ، ومن ذلك الآية التي تتعلق بأدب السلوك مع النبي ﷺ ، فإنه القرآن الكريم يعلمنا فيها كيف يكون احترام القائد والمعلم والرسول في المعاملة .

ومن مظاهر هذا الاحترام الذي يدل على تقوى المؤمن وصلاحه ، أدب الخطاب ، بحيث يتحدث مع النبي ﷺ بصوت مهذب يوحى بالإجلال له والتقدير .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . الحجرات

٢ - ٤ .

كانت هذه الدروس تلقى على صحابة رسول الله ﷺ ، ليتعلموا طريقة التعامل مع قائدهم ، فهو يتلقى الوحي من الله ، ويرشدهم إلى الحق ، فإذا

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب جزء ٤ ص ١١٠ .

تجاوزوا معه، فليكن الحوار ضمن حدود الأدب مع الله والأدب مع رسوله.

وعلاوة التقوى، هي هذا الأدب الذي يتحلى به المؤمن في أسلوب الخطاب، فيغض صوته عند خطاب النبي ﷺ.

والتقوى لا تظهر حقيقتها إلا بالامتحان والاختبار، لذلك اتسمت تصرفات الصحابة بعد هذه الآية بالالتزام الكامل بما ورد بها من إرشاد وتوجيه.

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً!

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا: إنه يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته احتراماً له في كل حال.

ثم أشاروا إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله ﷺ في العام التاسع الذي سمي «عام الوفود» لاجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة، ودخولهم في الإسلام، وكانوا أعراباً جفاة، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي ﷺ المطلة على المسجد النبوي الشريف: يا محمد. أخرج لنا. فكر، النبي ﷺ هذه الجفوة وهذا الإزعاج. فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم، والله غفور رحيم﴾.

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص رسول الله

ﷺ إلى كل أستاذ وعالم . لا يزعجونه حتى يخرج إليهم ، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم .. يحكى عن أبي عبيد - العالم الزاهد الراوية الثقة - أنه قال: « ما دقت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه » .

صفات القلب الحسنة

والقلب يتقلب بين الصفات الحسنة والصفات السيئة، بين المدح والذم، بين الصلاح والفساد، مما يؤكد أن القضايا الإيمانية والأخلاقية تتعلق به، إيجاباً أو سلباً.

ومن الصفات الحسنة التي يتصف بها:

١ - سلامة القلب: فالمؤمن الصادق هو الذي يقبل على الله « بقلب منيب » من الإنابة والرجوع إلى الله في كل أمر، إيماناً منه بأنه الرقيب على أعماله، المطلع على خفايا نفسه، لذلك فهو يخافه في الغيب، ويعمل على طاعته وارضائه.

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ . سورة ق آيات ٣٢ - ٣٣ .

وسيدنا ابراهيم جاء ربّه « بقلب سليم » أي سليم من الشرك والرياء والنفاق، خال من الأمراض التي تنتاب المنافقين والمشرّكين .

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الصافات ٨٤ .

أما في الآخرة فإن أموال الإنسان لا تنفعه، وابناءه لا يفيدونه شيئاً، ذلك أن كثرة الأموال والأبناء لا تغني الإنسان عن العمل الصالح، فالعمل والقلب السليم من المعاصي والآثام هو الذي ينقذ الإنسان من العذاب يوم

القيامة، ويدخله الجنة، لذلك يقرر القرآن تلك الحقيقة.. فيقول:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. الشعراء

٨٨ - ٨٩.

٢ - طهر القلب: ولما كان القرآن يضع القواعد العامة للآداب والأخلاق، فإنه يبين للمؤمنين طريقة السلوك التي تضمن عدم ازعاج بعضهم بعضاً، وتضمن في نفس الوقت الحفاظ على أحاسيس الآخرين ومشاعرهم، خاصة فيما يتعلق باختلاط المرأة والرجل.

إن آية الحجاب نزلت في نساء النبي ﷺ لتكون القاعدة التي يتأسى بها الجميع، لأن ما يؤدي النبي ﷺ يؤدي كل مسلم من اتباعه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بَيْتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾. الأحزاب آية ٥٣.

ومن رواية للبخاري - بإسناده - عن أنس بن مالك. قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله. يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله آية الحجاب...

وتعليل أسباب الحجاب ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وقد عمت البلوى اليوم بسبب الاختلاط، فأصيب المجتمع بالتحلل

الخلقي مما يثبت أن القرآن كان يرعى المصلحة الاجتماعية والأخلاقية عندما فرض الحجاب على نساء النبي ﷺ، وهن القدوة لنساء المؤمنين.

٣ - تزيين الإيمان في القلب وتنفيذه من الكفر، يبين ذلك في آية تتعلق بمضمون أخلاقي عام أيضاً، وذلك عند تلقي الأخبار والأنباء من الآخرين، إذ على المؤمن أن يتبين حقيقة ناقل الخبر حتى لا يتعرض للخداع والغش، فالتثبت ضرورة دينية، يحتمها الإسلام على المسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ . الحجرات ٦ .

ثم يتبع ذلك بتوضيح أكثر، فيوحي إليهم بأن يعرضوا أمرهم دائماً على الله ورسوله، وذلك يكون بالرجوع إلى الرسول ﷺ في استيضاح الأمور في حياته، وبالرجوع إلى القرآن، والتثبت من القول على ضوء توجيهاته بعد ذلك.

ويبين القرآن كيف أن الله هدى المؤمنين إلى الإيمان، وحرك قلوبهم لحبه، وكشف لهم عن جماله وفضله وعلق أرواحهم به، وكره إلى قلوبهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا فضلاً منه تعالى ورحمة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ . الحجرات آية ٧ .

٤ - كتابة الإيمان في القلب: وهنا أيضاً قاعدة من القواعد الثابتة التي تبين حزب الله من حزب الشيطان وتميز بينهما، أما حزب الله فالعلامة التي تدل على اتباعه، وتظهر حقيقتهم، هي عدم موالاتهم لأعداء الله وأعداء

الدين، ولو كانوا من أقرب أقربائهم، لأن المؤمن يرتبط بربه ويرتبط بعقيدته.. ولا يفطر بهما أبداً.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. سورة المجادلة آية ٢٢.

فالإيمان ثابت في قلوب اتباع حزب الله، مكتوب في صدورهم، فلا زوال له ولا اندثار، والكاتب هو الله، لأنه رضي عنهم، وأيدهم بروح منه.

٥ - تقوى القلب: ولما كانت بعض أعمال الحج خافية أسرارها على الناس، فإن الله يبين أن تقديم «الهدي» وهو الذبيحة التي يتقرب فيها الحاج إلى ربه، إنما هي دليل على تقوى القلوب وتعلقها بالله عز وجل:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج آية ٣٢.

٦ - هداية القلب: ولما كان إيمان المؤمن يجعله راضياً بقضاء الله وقدره، فإنه يتلقى المصيبة بصبر، ويواجه الألم بعزم، لأن من نتائج الإيمان الشعور بالرضا أمام الابتلاء، وهذا معنى هداية القلب، وطمانينته عند وقوع المصيبة.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. التغابن آية ١١.

أما في مقابل الصفات الحسنة، فتأتي الصفات السيئة، وهي تتعدد أيضاً بتعدد المواقف والقضايا:

١ - الريبة والشك: يستأذن المنافقون في التخلف عن الجهاد فيكشف القرآن حقيقتهم، ويبين أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولذلك فهم يترددون، ويخافون الجهاد في سبيل الله.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾. التوبة آية ٤٥.

واسناد الريب والشك إلى القلب يؤكد من جديد أنه الذي يختار الموقف، إما إيمان أو نفاق، وأما شك أو يقين، ولذلك فإن المنافقين يظهرون بوضوح وينكشف نفاقهم من خلال تصرفاتهم وأعمالهم، لأن أعمالهم تتصف بالرياء وحب الظهور، ولو كانت أعمالهم هذه في ظاهرها التقوى كبناء المساجد وبيوت العبادة، فالقرآن يفضحهم، ويفضح نواياهم بقوله:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة آية ١١٠.

فالشك في قلوبهم حتى تقطع قلوبهم، أي حتى الموت، عندما تحشرج النفس ويتوقف القلب.

٢ - الظن السيئ: ومن الأسباب التي تدعو المتخلفين عن الجهاد للتخلف، هو عدم إيمانهم، وعدم ثقتهم بالله، إذ يظنون أن الرسول وصحبه سينهزمون في الحرب، وسيقضى عليهم من قبل أعدائهم، ولذلك فهم

يفضلون النجاة بأنفسهم، بسبب ضعف إيمانهم، وسيطرة هذا الظن على قلوبهم.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ . سورة الفتح آية ١٢ .

٣ - زيغ القلوب: يكشف القرآن نوعاً من الناس يعمل على تتبع البصوص التي تحمل التأويل، ليصوغ حولها الشبهات، ويثير بها الجدل، مما يبعث على الشك والريبة، بينما يترك الآيات المحكمات التي لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً.. ودوافع هذا النوع من الناس هو الفساد لأن في قلوبهم ميلاً إلى التشكيك وإثارة الريب. أما المؤمنون الصادقون فهم يعتقدون اعتقاداً جازماً لا شك فيه أن القرآن وحي الله المنزل على قلب رسوله، وأن ما جاء به كله حق وصدق.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءِإِمْنَانِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ . آل عمران آية ٧ .

٤ - غفلة القلب: ويدعو القرآن الرسول ﷺ للاهتمام بفقراء المسلمين الذين يتجهون إلى الله دائماً وأبداً، وأن يغفل الذين يغفلون عن ذكر الله.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ . الكهف آية ٢٨ .

٥ - هو القلب: وهناك نوع آخر من الناس، يتلقى الآيات التي

تذكره بالآخرة بشيء من الاستهتار، لأن الدنيا تشغل قلبه، واللهم فيها يسيطر على وجدانه، فهو يسخر من المؤمنين الذين يؤمنون بأن يكون الرسول بشراً مثلهم.. ويدّعى أن ما جاء به على أنه سحر..

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ، وَأَسَرُّوا النَجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. الأنبياء آية ٣.

فالقلب اللاهي هو القلب الميت الذي لا يتأثر بالعبر والمواعظ التي يذكرها القرآن بسبب انشغاله بالمتع الدنيوية.

٦ - القلب يمتلىء بحب الكفر: إن القرآن يصور حالة من حالات اليهود التي تكشف مدى اصرارهم على الكفر فيستخدم صورة معبرة تعبيراً قوياً عن ذلك فيقول: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ وكأن حب عبادة العجل قد ملأ قلوبهم، وأشربوه إشرباً..

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ البقرة آية ٩٣.

٧ - القلب المتعجرف: كان الكفار يمتنعون عن الموافقة على دخول الرسول ﷺ ومن معه إلى المسجد الحرام، حتى لا يقال إنه دخله عنوة، فكانت حميتهم حمية الجاهلية وهي تتصف بالكبر والغطرسة والتعجرف، فبين الله حالهم هذا، وأن مكان هذه الحمية هو القلب.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾. الفتح آية ٢٦.

٨ - القلوب المتنافرة: قد يظهر للمؤمنين أن الكفار متحدون

ضدّهم، وأنهم متضامنون، فيبين القرآنُ خداعَ هذا المظهر، وأن الكفار لأنهم أهل دنيا قلوبهم متنافرة، وتجمعهم مصالحهم الدنيوية فقط، وأن المؤمنين إذا اجتمعوا على عقيدتهم كانوا أقوى منهم وأشد.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ، تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.
الحشر آية ١٤.

الضغط على القلوب:

وهذا موسى يدعو على فرعون وصحبه بأن يضغط الله على قلوبهم بالعذاب، بعد أن تمادوا في غيهم، وزادوا طغياناً على طغيان، فابتلاء القلب بالآلام هو ما يطلبه موسى لفرعون.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. يونس آية ٨٨.

يعلم ما في القلوب

الضمير، وهو ما يضره الإنسان في قلبه، أو سريره وما فيها من خفايا، وما تنطوي عليه من خير أو شر علمه عند الله.

ومن عادة المنافقين اللجوء إلى إخفاء نواياهم وإظهار رغبتهم بالخير، والله يعلم حقيقة نواياهم، وهؤلاء يكشفهم القرآن في قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي

أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ . النساء آية ٦٣ .

وفي مقام آخر يتحدث القرآن عن شيء يختص بحياة الرسول ﷺ واختياره لزوجاته ، فيقرر أن الله يعلم ما في قلوب عباده ، وأنه يدبر الأمور بعلمه وحلمه .

﴿تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مَعَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾ . الأحزاب آية ٥١ .

القلب والاستدلال المنطقي

فإذا بحثنا عن اليقين المستند إلى العقل وجدنا ذلك في حوار إبراهيم مع ربه : قال إبراهيم : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟

قال الله تعالى : أو لم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي !

إن الأدلة التي يطلبها إبراهيم عقلية ، ولكنه استخدم تعبير « ليطمئن قلبي » فيبين أن الإيمان مكانه القلب ، وأن اليقين محله الوجدان ، لأن الطمأنينة أمر نفسي يساعد العقل على الوصول باستنتاجاته المنطقية السليمة . ذلك أن إبراهيم ليس شاكاً في قدرة الله ، ولكنه يبحث عن المعرفة العقلية لترتاح نفسه ويطمئن قلبه .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ

عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ. البقرة آية ٢٦٠.

مختصر

من خلال استعراضنا وتحليلنا لآيات القلب رأينا كيف أن القلب يبدو
هو العقل الملهم أحياناً، والمسؤول عن أعمال الإنسان، الذي ينوي ويقصد
ويريد، بل هو بصيرة الإنسان التي تكشف الحقائق.

والقلب يأثم، ويتناقض بين القول والعمل فيظهر غير ما يظن وهذا
هو النفاق، أو بمعنى أصح هذا هو القلب المريض الذي تنتابه حالات من
التقلب والتغير والتلون، ويتصف بالشك والكذب والكبرياء والرياء، وهو
قلب طبع الله عليه، وأغلقه بأقفال محكمة فحجب عنه نور الإيمان والمعرفة،
وأحاطه بمحاجز حالت بينه وبين الحقيقة.

والقلب هو مركز الإيمان والكفر ومصدر الخير والشر، وهو محل الفقه
والمعرفة والعلم، بل هو منزل الوحي، وموطن كلام الله عز وجل، وهو يقوم
بالتأمل والتفكير والتذكر ويستفيد من تجارب الأمم السابقة.

وهو مكان العواطف الإنسانية من حب وكره، ورحمة وغلظة، وهو
يتعرض للامتحان حتى تعرف حقيقته.

ومن صفاته الطيبة السلامة والطهر وحب الإيمان والتقوى، ومن
صفاته السيئة الريبة والزيف والغفلة وحب الكفر.

الباب الثاني

الألفاظ المرادقة للفظ القلب

الفؤاد

هناك خمسة عشر آية في القرآن جاء فيها لفظ الفؤاد مرادفاً للفظ القلب، وهو في أهميته ودوره لا يقل عن أهمية القلب ودوره، بل إنه يؤكد المعاني التي يتضمنها لفظ القلب، من حيث التعبير عن العقل، وارتباطه بالمسؤولية، واشتراكه مع الحواس في العمل.

الفؤاد والمعرفة

خلق الله الإنسان وجعل له السمع والبصر والفؤاد ليستعين بها على المعرفة، فيشكر نعمة الله، ويؤمن به، ويطيعه، ولكن الإنسان الكافر يجحد هذه النعمة فلا يستفيد من وجود هذه القدرات والملكات، فيعطلها ويجحد بآيات الله.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل آية ٧٨.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ سورة المؤمنون آية ٧٨.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الاحقاف آية ٢٦ .

الفؤاد والقرآن

وقد أنزل القرآن على قلب محمد ﷺ منجماً ومفرقاً، ولم ينزل جملة واحدة كما يطلب ذلك الكافرون، وذلك لتثبيت فؤاد محمد به .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان آية ٣٢ .

وكذلك سرد التاريخ . وأنباء الرسل التي قصها القرآن على محمد ﷺ لتثبيت فؤاده من ناحية، ولتكون موعظة وذكرى للمؤمنين يأخذون منها دروساً في حياتهم .

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هود آية ١٢٠ .

الفؤاد والمسؤولية

ويحذر القرآن الإنسان من تتبع أسرار الآخرين، لأن سمعه وبصره وفؤاده مسؤول عن ذلك وسيشهدون عليه يوم القيامة .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الإسراء آية ٣٦ .

وعندما أنزل الوحي على قلب محمد ﷺ وحاول الكفار تكذيب النبي ، أنزل الله الآيات التالية: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى، أَفَتُكْفَرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ النجم ١١ - ١٢ أي ما كذب الفؤاد في رؤية جبريل عليه السلام .

ميل الفؤاد

وها هو إبراهيم عليه السلام بعد أن ترك ابنه إسماعيل مع أمه هاجر في الصحراء يدعو الله :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ إبراهيم آية ٣٧ .

إصغاء الفؤاد للإغراء

وعندما يصغي الكفار إلى وسوسة الشيطان وهو يغريهم بزخرف القول ، يسند الإصغاء إلى الأفئدة .

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ الأنعام آية ١١٣ .

الأفئدة وعذاب الآخرة

أما وصف الأفئدة في الآخرة فهي هواء ، متفرقة متطايرة ، لهول ما ترى من العذاب ، والنار تطلع عليها وكأن الإنسان يحترق من العذاب في جهنم .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ سورة إبراهيم آيات ٤٢ - ٤٣ .

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾ الهُزْزَةُ آيات ٦ - ٧ .

تقلب الأفئدة

وتتحول الأفئدة عن الحق فلا تفهمه:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْنَدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الأنعام ١١٠

الصدر

استعمل لفظ الصدر مكان لفظ القلب، من باب الاستعارة المحلية، إذ أن الصدر هو محل القلب، ولأننا لا نستطيع اعتباره من المترادفات لأنه ليس القلب حقيقة بل مجاز، نود أن نعالج هذا الموضوع في مقالة مختصرة تحيط بالمعاني التي ارتبطت بالصدر.

وآيات الصدر عددها إحدى وأربعون آية.

شرح الصدر أو ضيقه

يخاطب الله الرسول ﷺ فيقول: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾^(١) وهذا

(١) الشرح آية ١ .

معناه التوسعة في الصدر حتى يستقبل نور الإيمان - كما سرى من تفسير الرسول ﷺ لمعنى الشرح - يوضح ذلك الآية التي تحيى بلفظ الضيق في مقابل الشرح:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِذَّ أَنْ يُضِلَّهُ يَشْغَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾^(١)

وتصوير ضيق الكافر بالإيمان ونفوره منه بقوة ضاغطة على الصدر كأنما يصعد في السماء ، تصوير دقيق جداً يتفق مع نظريات العلم التي تؤكد أنه كلما ارتفع الإنسان ، ازداد الضغط كثافة وأثر على صدره .

والتوسعة من أجل أن يستقبل الصدر نور الإيمان يوضحها قول الله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾^(٢)

وهذا موسى عليه السلام يدعو ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٣) وفي مكان آخر ، يخاطب ربه فيقول: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ، وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾^(٤)

وعندما يبالغ الكفار في إيذاء الرسول ﷺ يخاطبه ربه فيقول: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾^(٥) وفي آية أخرى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾^(٦) وقد يستخدم القرآن في تصوير حالة الكفار

(١) الأنعام آية ١٢٥ .

(٢) الزمر آية ٢٢ .

(٣) طه آية ٢٥ .

(٤) الشعراء آيات ١٢ - ١٣ .

(٥) الحجر آية ٩٧ .

(٦) هود آية ١٢ .

تعبيراً آخر بمعنى الضيق وهو: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾^(١) أو يخاطب النبي فيقول: ﴿فَلَا يَكُنْ، فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾^(٢) وهو الضيق أيضاً.

أما الآية الوحيدة التي التقى فيها لفظ الشرح مع الكفر فهي قول الله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾^(٣) وهذا معناه الارتياح إلى الكفر والإطمئنان إليه.

شفاء الصدور

والقرآن هو شفاء لأن آياته تعالج مشكلات الإنسان وتداوي أمراض نفسه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

والنصر على الكفار شفاء للصدور أيضاً: ﴿وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥).

الآيات في الصدور

والقرآن أيضاً هو آيات بينات تحفظه صدور الذين رزقهم الله نعمة المعرفة ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(٦).

(١) النساء آية ٩٠.

(٢) الأعراف آية ٢.

(٣) النحل آية ١٠٦.

(٤) يونس آية ٥٧.

(٥) التوبة آية ١٤.

(٦) العنكبوت آية ٤٩.

الله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١) فالنظرة إلى محرم، أو ما يخفي القلب من أسرار لا تخفى على الله ﴿فَاسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢) وعلمه يحيط بالظاهر والباطن^(٣) ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ - أي يوم القيامة - فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

ويفضح نوايا الكفار وحقدهم ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾^(٥) ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٦).

وينكر الكفار البعث بعد الموت ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَا نَمْبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا. قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾^(٧) ومعناه كونوا أي شيء تتصورنه غير قابل للحياة فإن الله لا بد أن يوجد فيكم الروح، وفي مكان آخر يندد بالذين يجادلون في آيات الله على غير علم ويبين سبب ذلك ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾^(٨) أي

(١) غافر آية ١٩ .

(٢) الملك آية ١٣ .

(٣) آل عمران آية ٢٩ . القصص آية ٦٩ الحديد آية ٦ الشورى آية ٢٤ النمل آية ٧٤ العنكبوت آية ١٠ الأنفال آية ٤٣ المائدة آية ٧ .

(٤) فاطر آية ٣٨ التغابن آية ٤ .

(٥) آل عمران آية ١١٨ .

(٦) نفس السورة آية ١١٩ .

(٧) الإسراء آية ٤٩ - ٥٠ .

(٨) غافر آية ٥٦ .

ويختبر الله ما في الصدور^(١) ، وحين كان بعضهم يثني صدره كي لا يراه الرسول ﷺ فأخبرهم أن الله يعلم دقائق حياتهم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٢) .

الصدر وما فيه

- ١ - الغِلُّ في الصدر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾^(٣) .
- ٢ - وسوسة الشيطان ﴿الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٤) .
- ٣ - أعمال الإنسان ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾^(٥) أي في يوم القيامة .
- ٤ - رغبات الناس ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾^(٦) .
- ٥ - الرهبة ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾^(٧) .
- ٦ - العطاء السمع ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾^(٨) .

(١) آل عمران آية ١٥٤ .

(٢) هود آية ٥ .

(٣) الأعراف آية ٤٣ . الحجر آية ٤٧ .

(٤) الناس آية ٥ .

(٥) العاديات آية ١٠ .

(٦) غافر آية ٨٠ .

(٧) الحشر آية ١٣ .

(٨) نفس السورة آية ٩ .

٧ - لا يحاسب إنسان مكان إنسان ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

القلب في الصدر

لعل أهم ما في هذا الباب هو صلة القلب في الصدر، فالإنسان لا يحمل قلبين في جوفه، ومكان القلب هو الصدر، وهذا شيء بديهي، ولكن القرآن يؤكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢) وهذا يفسر استخدام الصدر مكان القلب أحياناً كثيرة للتعبير عنه.

ولكن هل المقصود من القلب على هذا الأساس هو العضو نفسه؟ أم أن المقصود هو شيء أعمق من هذا وأشمل وأوسع؟.

هل المقصود في القلب هو النفس البشرية ككل ويكنى عنها بالعقل أو اللب أو القلب أو الفؤاد أو الصدر؟ أم أن المقصود هو ذات القلب أو ذات العقل؟.

هذا ما نحتاج إلى معرفته لأن استخدام الجزء وإرادة الكل هو أحد أساليب اللغة العربية، والتعبير بمختلف الألفاظ عن تلك القوة أو الملكة التي تتشكل بها أعمال الإنسان وتصرفاته من خير أو شر، سواء كان ذلك باستخدام الألفاظ والتي تدل على الفكر المجرد كالعقل واللب والنهي أو التي تدل على النفس وما يتصل بها من أحاسيس ومشاعر كالقلب والفؤاد، يؤكد

(١) الزمر آية ٧.

(٢) الحج آية ٤٦.

لنا أن القرآن الكريم ينظر إلى الإنسان نظرة شاملة لكل قواه وملكاته .
واستخدام القلب باعتباره المركز الرئيسي في الإنسان والذي تتصل به
قضايا الحياة والموت ، والصحة والضعف ، والحب والكره ، والرغبة والرغبة ،
وكل ما يتصل بالفكر أو العاطفة ، يشبه إلى حد بعيد استخدام لفظ النفس
في القرآن وهو يعني الكائن الحي عقلاً وفكراً وحساً وشعوراً ، ويعني كل ما
يتصل به أيضاً من إرادة الخير أو إرادة الشر .

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الشمس آية ٧

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة آية ٢٣٣ .

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ،
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾
آل عمران آية ٢٠ .

فالنفس هنا تتلقي المعرفة ، معرفة الخير ومعرفة الشر ، وهي مكلفة قدر
طاقاتها وقدرتها ، ولا تكلف فوق ما تستطيع قدرة الإنسان أن تكلف به .
والنفس يسند إليها العمل ، عمل الخير ، وعمل الشر .

فهي نفس مختارة ، وهي نفس مسؤولة ، وهي نفس تحاسب على ما
تكسب من خير أو شر في هذه الحياة الدنيا .

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ القيامة آية ١٤ -

. ١٥

ولما كان القلب يقع من النفس البشرية في صميمها فإننا لا نستطيع أن
نقول إنه العقل مجرداً ، إذ يبدو المعنى في غاية الضيق هنا ، ولكننا نستطيع

القول إن القلب أعمق وأشمل، لأن القرآن أسند إليه وظائف تتصل
بالتفكير والعقل تارة، وأسند إليه وظائف تتصل بالحدس والإلهام
والإحساس والمشاعر والفيض الداخلي الذي يعبر عن ضمير الإنسان
ووجدانه.

إنه البصيرة التي تكون عند خاصة المؤمنين والأتقياء والصالحين،
وإنه الفطرة التي فطر الناس عليها عند عامة الناس وسوادهم الأعظم.
والآن ننتقل إلى السنّة حتى تساعدنا على تفسير ذلك.

الفصل الأول

القلب في السنّة

تتسع المعاني التي ترد عن القلب في السنة اتساع الأحاديث النبوية وشمولها لعدد كبير من الأبواب الفقهية والشرعية، لذلك لا يمكن لنا أن نورد جميع هذه الأحاديث لأن البحث لا يمكن أن يستوعب كل ما ورد في السنة، لذلك سوف نقصر على ذكر الأحاديث التي تعبر عن الاتجاه العام للسنّة، بحيث نكتفي بحديث أو اثنين من كل باب.

وإن كانت الأحاديث النبوية تخضع للنقد، لأن منها الصحيح ومنها الضعيف، فإن ذلك لا يشكل مشكلة بالنسبة لمبحث القلب، لأن الخلاف الشديد كان حول أحاديث العقل، أما القلب فلا خلاف يذكر حول أحاديثه، ورغم ذلك سوف نحاول جهدنا إعطاء الموضوع حقه من حيث الصحة أو الضعف.

استفتاء القلب

أول حديث نذكره بنصه الحرفي، يساعدنا على إلقاء الضوء على أهمية القلب في السنة هو الحديث الذي يرويه الصحابي وابصة بن معبد حيث يقول:

«أتيت رسول الله ﷺ، وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألت عنه، فقال لي: «أدُنْ يا وابصة» فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته، فقال لي: «يا وابصة، أخبرك عما جئت تسأل عنه» قلت: يا رسول الله أخبرني. قال: «جئت تسأل عن البر والإثم؟». قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث، فجعل ينكت بها في صدري، ويقول: «يا وابصة، استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وافتوك»^(١).

الخير والشر، والاختيار بينهما، هو أساس البحث في مسؤولية الإنسان، وهنا يبدو الحديث واضحاً في أن القلب هو المسؤول عن الاختيار، لأنه هو الذي يستطيع المقارنة، واستخلاص الحقائق، واختيار الجانب الذي يرجح. سواء كان خيراً أو شراً، وها نحن أولاء مجدداً أمام المصطلح الذي ارتضاه المجتمع الغربي وهو الضمير، ولكنه في هذا الحديث ضمير مؤمن، لأن المؤمن يقيس عمله على ضوء التعاليم السماوية، فإذا اطمأن قلبه إلى العمل فهذا هو الخير، وإذا لم يطمئن فذاك هو الشر.

وهذا يفسره الحديث: «زاجر الله في قلب كل مؤمن وواعظه في قلب كل مؤمن»^(٢) وحديث آخر: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه»^(٣).

(١) الترغيب والترهيب، باب البر، سنن الدارمي كتاب البيوع ٢ / ٢٤٥، والطبراني من حديث ابن ثعلبة ولأحمد نحوه.

(٢) الترغيب والترهيب الترمذي ١٤.

(٣) أحياء ٣ / ١١. الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة واسناده جيد.

وعندما يتحدث النبي ﷺ عن المعرفة والمسؤولية، يقول: «أنا أعلمكم بالله وأن المعرفة فعل القلب لقوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾^(١) فارتبطت المسؤولية بالمعرفة، والمعرفة بالإرادة.

وفي الحديث الشريف: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»^(٢) والمحدث هو الملهم الذي تنكشف له الحقائق من الوجدان الداخلي.

والحكمة في القلب لقول النبي ﷺ: «لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم»^(٣).

والفطنة في القلب لقوله عليه السلام: «من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه»^(٤).

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه﴾ - ما هذا الشرح؟

فقال: هو التوسعة. إن النور إذا قُذِفَ به في القلب، اتسع له الصدر وانشرح.

وفي الحديث: «إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى»^(٥).

(١) البخاري كتاب الإيمان ١ / ١١.

(٢) نفس المصدر السابق (٤ و ٥) أحياء ٣ / ٨٢

(٣) الأحياء ٣ / ٢٤.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق، والله إنه للحق يقذفه الله في قلوبهم، ويجريه على ألسنتهم. وكان الرسول ﷺ يدعو فيقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً»^(١). وقال: «جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه»^(٢) كناية عن العدل. وقال أيضاً: «وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله شيء خرب كخراب البيت الذي لا ساكن له»^(٣) والمقصود حفظ القرآن وتذوق معانيه.

وهكذا تطوف الأحاديث حول أوصاف المعرفة في جميع ألفاظها الإسلامية لتدل على أن مكانها القلب، لأنه منبع الإلهام والحكمة والفطنة، وموطن النور والحق، ومنزل القرآن.

القلب هو الإنسان

أما ارتباط حقيقة الإنسان من صلاح أو فساد بقلبه، فإن ذلك يدل عليه حديث الرسول ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٤).

واستخدام عبارة «المضغة» تدل على العضوية، ولكننا نستطيع أن

(١) البخاري كتاب الدعوات ٨ / ٨٦ ومسلم بشرح النووي ٦ / ٥٢.

(٢) سنن أبي داود ص ١٩١.

(٣) سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن ٢ / ٤٢٩.

(٤) البخاري ١ / ٢٠ ابن ماجه ٢ / ١٣١٨ الدارمي ٢ / ٢٤٥.

نستفيد من الصور المستعارة في اللغة العربية، والمجاز اللغوي، حيث يعبر بالجزء عن الكل، أي يعبر بالقلب عن النفس، وهذا التعبير يتفق مع آيات القرآن: «كل نفس بما كسبت رهينة»^(١) فالكسب أسند إلى النفس هنا كما أسند إلى القلب هناك في الآية السابقة، وكذلك في قول الله: «ولا أقسم بالنفس اللوامة»^(٢) وهي التي تلوم صاحبها على فعل الشر، فإذا ورد في الحديث لفظ «المضغة» وإذا ورد في القرآن «القلوب التي في الصدور» فإن هذا من باب التأكيد والله أعلم.

ويلوح لنا من الاستخدامات المتعددة لألفاظ القرآن المختلفة التي تعبر عن معنى واحد أن المقصود بالقلب والنفس هو وجدان الإنسان الداخلي وضميره المستتر.

التقوى في القلب

ثم يتحدث النبي ﷺ عن التقوى فيقول: «التقوى ها هنا» ويشير إلى القلب^(٣).

وفي الخبر أنه قيل: «يا رسول الله من خير الناس؟ فقال: كل مؤمن مخموم القلب؟ فقيل: وما مخموم القلب؟ فقال: هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد»^(٤).

(١) المدثر آية ٣٨ .

(٢) القيامة آية ٢ .

(٣) أحياء ٣ / ٤٢ .

(٤) نفس المرجع ٣ / ١٤ وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ٤ / ١٤٠٩ .

والخير في القلب، لقول الرسول ﷺ: «ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»^(١).

والرضا والأمن والإيمان في القلب: «من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه، ملأ الله قلبه رضا» وفي رواية «ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»^(٢).

والغنى والخير، لقوله ﷺ في حديث: «وأَكِلُ أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِم مِّنَ الْغَنَى وَالْخَيْرِ»^(٣).

والإخلاص، لقوله ﷺ «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه»^(٤).

ومدح المؤمنين فقال: «الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي»^(٥).

والأمانة، قال: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»^(٦).

الإثم في القلب

وإذا كانت التقوى ومعاني الخير جميعها في القلب، فإن الإثم ومعاني الشر

(١) البخاري ١ / ١٨.

(٢) أحياء ٣ / ١٧١.

(٣) البخاري ٩ / ١٩١.

(٤) نفس المصدر ١ / ٣٥.

(٥) الترمذي «الفرق بين الصدر والقلب» ص ٨٤.

(٦) البخاري ٩ / ٦٦.

جميعها في القلب أيضاً، قال ﷺ: «الإثم حواز القلب»^(١).

والغضب، قال ﷺ: «إن الغضب جرة توقد في القلب»^(٢).

والقلب يشتهي، قال ﷺ: «لكل ابن آدم حظ من الزنا.. إلى أن يقول: والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»^(٣).

والشياطين تحوم حوله: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء»^(٤).

والدنيا تشغل القلوب: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا»^(٥).

والفتن تعرض على القلوب: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأَيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز.. لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب هواه»^(٦).

والكبر، «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٧).

(١) إحياء ٣ / ٤٢ .

(٢) نفس المصدر ٣ / ١٧٠ ، الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد ، ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب .

(٣) إحياء ٣ / ٩٩ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٨ الحديث أحمد من حديث أبي هريرة .

(٥) نفس المصدر ٣ / ٢٠١ .

(٦) مسلم ٢ / ١٧٠ - ١٧٣ .

(٧) نفس المصدر ٢ / ٨٩ .

والخطايا وكان يدعو الله بقوله: « وتقى قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس »^(١).

النفاق في القلب

وإذا كان الإثم في القلب فإن النفاق وهو رأس المعاصي مركزه القلب أيضاً - كما سبق وعرفنا من متابعة آيات القرآن - وها هي الأحاديث تعطينا صورة عن مختلف أحوال النفاق:

« حب المال وحب الجاه ينبتان في القلب كما ينبت الماء البقل »^(٢).

وكان يخطب فيقول: يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم »^(٣).

وكان يقول: « نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب »^(٤).

الله في قلوب المؤمنين

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل لرسول الله: « يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال: في قلوب عباده المؤمنين »^(٥).

(١) نفس المصدر ١٧ / ٢٨ - ٢٩ .

(٢) إحياء ٣ / ١٥٥ ، الديلمي في مسند الفردوس نفس سنن « أبو داود » ٤ /

٣٧٢ .

(٣) المصدر ٣ / ١٣٩ .

(٤) الترمذي « الفرق بين الصدر والقلب » ص ٥١ .

(٥) إحياء ٣ / ١٤ .

وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب: «إن الله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها إليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها»^(١).

أحوال القلوب

ولما كان القلب قد أخذ اسمه من القلب، فإن الرسول ﷺ كان كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: وما يؤمنني والقلب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء» وفي لفظ آخر «إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه»^(٢).

وقال: «مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن»^(٣).

ثم قسم القلوب إلى أربعة، كل قلب له صفاته التي تختلف عن القلب الآخر فقال ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن؛ وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر؛ وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق؛ وقلب مُصَفَّح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید فأی المادتين غلبت عليه حکم له بها»^(٤).

(١) نفس المصدر ٣ / ١٠.

(٢) نفس المصدر ٣ / ٤٤.

(٣) نفس المصدر ٣ / ٤٥.

(٤) نفس المصدر ٣ / ١٢.

القلوب إذن تختلف باختلاف أحوالها، وهي درجات، فقلب المؤمن يملؤه النور، وقلب الكافر يكتنفه الظلام، وقلب المنافق ربط برباط النفاق فحال ذلك بينه وبين الإيمان، أما القلب الذي يجمع بين الإيمان والنفاق فهو القلب الذي يتقلب بين حالي الصحة والمرض ولا يستقر على حال.

وهذه هي أصناف البشر من خلال قلوبها، وهذا هو الإنسان في جميع صورته وأشكاله.

القلب ملك

أما الصورة التي تبرز أهمية القلب ودوره الرئيسي في أعمال الإنسان وتأثيره في النفس البشرية، واتصاله بكافة أعضاء الإنسان، فهي التي يعبر عنها هذا الحديث: «قال كعب الأحبار دخلتُ على عائشة رضي الله عنها، فقلتُ الإنسان عيناه هاد، وأذناه قُمع، ولسانه ترجمان، ويداه جناحان، ورجلاه بريد، والقلب منه ملك، فإذا طاب الملك طابت جنوده، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول»^(١).

فالقلب إذن بمثابة الملك، والجسم هو مملكته، فإن كان قلباً طيباً، طابت حياة جنوده، ومعناه أن الأعضاء يوجهها القلب، فإما إلى الخير والسعادة، وإما إلى الشر والشقاء.

يؤيد هذا حديث أدان فيه الرسول ﷺ مصلياً كان يسرع في صلاته

(١) إحياء ٣ / ٩ .

فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»^(١).

فدلّ ذلك على الصلة الوثيقة بين القلب وحواس الإنسان ومشاعره، كما دلت على الدور القيادي لهذه الحواس والمشاعر.

الرؤية بالقلب

ولقد فسر الصحابة آية «ولقد رآه نزلة أخرى»^(٢) فروي عن أبي هريرة أنه قال: «رأى جبريل» وعن ابن عباس قال: «رآه بقلبه»^(٣).

وهذا يتفق مع تفسير آية «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»^(٤).

فإذا عدنا إلى بعض الأحاديث السابقة التي تتحدث عن النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وعن النظر بنور الله، أدركنا تلك الشفافية القلبية التي يقصد إليها القرآن، والتي تكشف الحجب أمام الإنسان المؤمن، فكيف بالنبي ﷺ؟

إن هذه الشفافية تصل إلى حد أن يخبر الإنسان المؤمن عن ربه ما لا يحيط بعلمه الآخرون، وأن يخبر الله عن عبادته وخاصته ما لا يعرفه الناس عنهم؛ هذا الكشف المتبادل بين الله والصفوة من المؤمنين، هو ما يصوره الحديث التالي:

(١) الفرق بين الصدر والقلب ص ٥٥ الترمذي.

(٢) النجم آية ١٣.

(٣) مسلم ٣ / ٥ - ٧.

(٤) الحج آية ٤٦.

قال ﷺ: « سبق المفردون، قيل: ومن هم المفردون يا رسول الله؟ قال المتزهون بذكر الله تعالى، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً ثم قال في وصفهم إخباراً عن الله تعالى: ثم أقبل بوجهي عليهم، أترى من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه؟ ثم قال تعالى: أول ما أعطيهم أن أقذف النور في قلوبهم فينبرون عني كما أخبر عنهم»^(١).

هذا الحديث، هو تعبير عن التفكير الصوفي، إذ يستشهد المتصوفة بأمثاله، للدلالة على أنهم أهل الذكر، وأنهم يعرفون ما لا يعرف غيرهم من العلم اللدني، لأن العلم اللدني - من وجهة نظرهم - هو النور الذي يقذفه الله في قلوب عباده الصالحين، وهؤلاء لا يحتاجون إلى علم أو تعلم.

الله مالك القلوب

ولما كانت القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن كما روى الحديث، ولما كان التعبير الذي يستخدمه النبي ﷺ دائماً هو: « لا ومقلب القلوب»^(٢) فإن السيدة عائشة تروي هذا الحديث فتقول: « كان رسول الله يقسم - أي بين نسائه - فيعدل، ويقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(٣) قال أبو داود: يعني « القلب ».

وعن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً. فقلت: يا رسول الله ترسلني وأنا حديث السن ولا علم لي بالقضاء؟ فقال:

(١) إحياء ٣ / ٢٠ وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٢) نفس المصدر ٣ / ٤٤.

(٣) سنن أبو داود ٢ / ٣٢٦.

« إن الله سيهدي قلبك ، ويثبت لسانك »^(١) .

وكان من دعاء النبي ﷺ : « واهد قلبي ، وسدد لساني ، واسل سخيمة قلبي »^(٢) .

خلاصة

السنة مفسرة للقرآن ، أو مفصلة لمجمل ما جاء فيه ، وهي تشرح وتبين الكثير من المعاني القرآنية التي قد يغيب عن بعض الأذهان فهمها ، ولذلك فإننا رأينا كيف اتسع معنى القلب في السنة عنه في القرآن ، وكيف ظهرت معالمة واضحة كل الوضوح أمامنا .

ولما كانت الأحاديث التي وردت في القلب كثيرة ومتعددة ، رأينا أن نأخذ منها ما يعيننا على رسم الخطوط الرئيسية للقلب في السنة ، وهذا ما يبدو لنا أنه قد وفقنا إليه ، حيث جاءت الصورة معبرة كل التعبير عن تلك الحقائق التي ذكرناها عن القلب وهو أنه الإنسان في جميع أبعاده الفكرية والنفسية ، إنسان العقل والقلب ، إنسان الإرادة والعاطفة ، إنسان المعرفة والعلم ، إنسان الخير والشر ، إنسان الإيمان والكفر .

« الإنسان بأصغريه ، قلبه ، ولسانه » وهذه حقيقة لا مرء فيها ، فإما أن يلتقي القلب واللسان على الضلال فيكون الكفر ، وإما أن يلتقي القلب واللسان على الهداية فيكون الإيمان ، وإما أن يتناقض القلب واللسان فيكون النفاق .

(١) نفس المصدر ٣ / ٤٠٩ .

(٢) نفس المصدر ٢ / ١١٢ .

فالنور الذي يقذفه الله في قلب الإنسان ، هو الطاقة التي تعينه على رؤية الحقائق وتهديه إلى معرفة الحق ، وهذا النور هو الذي يحرك وجدان الإنسان ويلهمه معاني الإيمان والخير ، فإذا احتجب هذا النور عن القلب شاع فيه الظلام ، فعمي عن رؤية الحقائق ، وسار في طريق الضلال والشر والإثم .

الله نور ، وهو في قلب عباده الصالحين نور ، ونوره هذا لا يفيض به إلا على الذاكرين له ، المعترفين بقدرته ، المتقربين إليه بطاعته .

الفصل الثاني

العلماء والقلب

أكثر العلماء الذين اهتموا بالقلب اهتماماً خاصاً وأولوه عناية بالغة في بحوثهم، هم الذين اتجهوا اتجاهاً صوفياً، ويأتي في مقدمتهم الغزالي والمحاسبي والترمذي، على تفاوت في طريقة التحليل لحقيقة القلب، وقد أجمع العلماء على أن المقصود بالقلب في القرآن هو العقل.

ذلك أن المفسرين قد أجمعوا على هذا:

« قال تعالى: ﴿لَمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها كما ينبغي. وفسره ابن عباس (- ٦٨ هـ) بالعقل، وذلك لأن العقل قوة من قوى القلب وخادم من خدامه. وقال أبو الليث (- ٩٧ هـ) «لَمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ» أي عقل، لأنه يعقل بالقلب فكني عنه. ففي الأسئلة المقحمة: كيف قال لمن كان له قلب، ومعلوم أن لكل إنسان قلباً؟ قلت: إن المراد ههنا بالقلب عقل كني بالقلب عن العقل، لأنه محله ومنبعه كما قال تعالى فإنه نزل على قلبك^(١).

«لَمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ» قال مجاهد: أي لمن كان له عقل يتدبر به، فكني

(١) روح البيان: اسماعيل حقي ٣٩ / ٩، انظر العقل وفهم القرآن ص ١٢١.

بالقلب عن العقل لأنه موضعه»^(١).

وعندما عرف المحاسبي العقل قال: وقال قوم هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة، يُبصرُ به، ويعبرُ به. نور في القلب كالنور في العين، وهو البصر. فالعقل نور في القلب، والبصر نور في العين^(٢).

ويقول في مكان آخر: «وكما أن في العين نوراً هو البصر، يجعلنا نتعرف على المرئيات، فإن في «القلب» نوراً يجعلنا ندرك الحكمة الإلهية التي هي باطنة في هذا الكون عندما تتدبر في خلقه، في حركته وسكونه»^(٣).

أما الترمذي في كتابه «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» فقد بدأه بقوله: «إن اسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها، وفي الباطن مواضع، منها ما هي من خارج القلب ومنها ما هي من داخل القلب، فأشبه اسم القلب اسم العين، إذ العين اسم يجمع ما بين الشفرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة. وكل واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة ومعنى غير معنى صاحبه»^(٤).

ونلاحظ في هذا التعريف ورود جملة «مقامات الباطن كلها» وهذا اتجاه صوفي، يتخذ من الباطن مرتكزه ووسيلته إلى المعرفة.

وهذا مصداق الحديث الذي يستشهد به الترمذي نفسه، وهو قول

(١) القرطبي ١٧ / ٢٣.

(٢) العقل وفهم القرآن للمحاسبي ص ٢٠٤.

(٣) نفس المصدر ص ١٤٩.

(٤) بيان الفرق، الترمذي ص ٣٣.

الرسول ﷺ: « العلم علمان؛ علم باللسان فذلك حجة الله على خلقه، وعلم بالقلب فذلك العلم النافع »^(١) وفي حديث آخر « فعمل باطن في القلب »^(٢).

فإذا انتقل الترمذي إلى التفصيل وجدناه يعطي الأمثلة على وجهة نظره، فيقول: ولكن الصدر في القلب هو في المقام من القلب بمنزلة بياض العين من العين، وأما القلب فهو المقام الثاني فيه، وهو داخل الصدر، وهو كسواد العين الذي هو داخل العين... فالقلب هو الأصل والصدر هو الفرع، وإنما يتأكد بالأصل الفرع »^(٣).

ثم يذكر الحديث الذي يعتبر القلب بمثابة « الملك »، « فإذا صلح الملك صلحت جنوده، وإذا فسد الملك فسد جنوده » ويقول: فبين رسول الله ﷺ أن القلب ملك. ويبين أن صلاح الجوارح بصلاح القلب وفسادها بفساد القلب، فالقلب بمنزلة السراج وصلاح السراج بالنور، وذلك النور نور التقى واليقين »^(٤).

ثم يعود فيقول: « ومثل الفؤاد في القلب، وهو المقام الثالث، كمثال الحديقة في سواد العين... وهذا الفؤاد موضع المعرفة وموضع الخواطر وموضع الرؤية، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولاً، ثم القلب. والفؤاد في وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر، مثل اللؤلؤة في الصدف ».

« ومثل اللب في الفؤاد كمثل نور البصر في العين، وكمثل نور السراج

(١) نفس المصدر ص ٤٩.

(٢) إحياء ٣ / ٢٣.

(٣) بيان الفرق، الترمذي ص ٣٦.

(٤) نفس المصدر ص ٣٧.

في فتيلة القنديل، وهذا اللب موضع نور التوحيد ونور التفريد، وهو
النور الأتم والسلطان الأعظم.

وبعد هذه مقامات لطيفة وأمكنة شريفة ولطائف ظريفة، والأصل لمن
جميعهن نور التوحيد، فالتوحيد سرّ والمعرفة برّ، والإيمان محافظة السر
ومشاهدة البر، والإسلام الشكر على البر وتسليم القلب للسر»^(١).

ويبدو لنا أن الترمذي يجمع بين الصدر والقلب والفؤاد واللب من
ناحية، ويعتبرها طبقات أو «مقامات» كل واحدة منها تستر الأخرى كما
يحلو له التعبير، ولكنها متقاربة المعنى متحدة الغاية، وهذا التقسيم قد يجوز
على الصدر والقلب، أما بالنسبة للقلب والفؤاد واللب فهذا ما لم يقل به
غيره، ولم يستند به إلى دليل، اللهم إلا الخيال الخصب الذي يطيب
لأصحاب التفكير الصوفي أن يلجأوا إليه، فالمصطلحات الصوفية تغطي على
الأسلوب الذي يستخدمه، وكذلك الصور الصوفية التي تميل إلى الرمز
والإشارة أكثر مما تميل إلى التعبير الموضوعي المباشر، وهو لا يزيد عن القول
إن الإيمان نور في القلب، وإن المعرفة فعل القلب.

أما الإمام الغزالي فإنه يعرف القلب فيقول: «هو لطيفة ربانية روحانية
لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك
العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمطالب. ولها
علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه
علاقته، فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف
بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. أو تعلق المتمكن بالمكان»^(٢).

(١) بيان الفرق، للترمذي ص ٣٨ - ٣٩.

(٢) إحياء، ٢ / ٣.

وفي مكان آخر يقول: «وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء»^(١).

ويقول: «فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى. وهو راجع إلى علم وإرادة:

أما العلم فهو العلم بالأمر الديني والأخروي والحقائق العقلية فإن هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات، بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص....

وأما الإرادة فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها، وذلك غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة^(٢).

وهذا الأسلوب المتأثر بروح المنطق إلى حد بعيد، ترافقه لمحات صوفية، تظهر واضحة جلية في قوله: «وإنما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه»، فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف بما عند الله ولديه، وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعمل استعمال المالك للعبد واستخدام الراعي للرعية والصانع للآلة، فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله^(٣).

(١) نفس المصدر ٣ / ٥.

(٢) إحياء ٣ / ٧ - ٨.

(٣) نفس المصدر ٣ / ٢ - ٣.

وعندما يتحدث الغزالي عن قصة حياته ومرحلة انتقاله من الشك إلى اليقين، يقول: « فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من هذا المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة، موثوقاً بها، على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف»^(١).

والغزالي يطوف كثيراً في مجال القلب، ويحلل أحواله على ضوء القرآن والسنة، منتقلاً به من صورة إلى صورة، حتى يقسمه إلى أقسام متعددة، لا مجال لحصرها الآن، ويمكننا القول إنه في طليعة الباحثين الذين أعطوا للقلب مكانة كبرى في دراساتهم وكتبهم، ووضع للصوفية منهجاً منظماً، جعل القلب فيه هو المركز الأول، والملك الذي لا ينازع في مملكته، واعتبر أن اليقين يأتي بواسطة النور الذي يقذفه الله في قلب الإنسان.

أما الإمام الرازي، فيقول: إن محل العلم هو القلب، وذلك في تفسيره لآية ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ ويعلق على ذلك بقوله: واستقصينا بيانه في قوله « ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ في سورة الشعراء.

ويتابع تفسيره للآية فيقول: « قال صاحب الكشاف: البصر نور العين وهو ما يستنصر به ويتأمل، فكأنهما جوهران لطيفان خلق الله تعالى فيهما آلتين للأبصار والاستبصار».

(١) المنقذ من الضلال. الغزالي تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ص ٨٨.

أقول: إن أصحابه من المعتزلة لا يرضون منه هذا الكلام - ويعني بذلك الزمخشري - وتحقيق القول في الأبصار يستدعي أبحاثاً غامضة لا تليق بهذا الموضع»^(١).

ثم يفسر قول الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فيقول: الشيء الذي من شأنه بأصل ذاته أن يقبل الأثر عن شيء آخر، ثم إنه عرض لذلك القابل ما لأجله صار بحيث لا يقبل الأثر فيقال لذلك القابل إنه صار صلباً غليظاً قاسياً فالجسم من حيث إنه جسم يقبل الأثر عن الغير إلا أن صفة الحجرية لما عرضت للجسم صار جسم الحجر غير قابل وكذلك (القلب) من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر، وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو والاستنكار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار من عدم التأثير شبيهاً بالحجر فيقال: قسا القلب وغلظ، ولذلك كان الله تعالى وصف المؤمنين بالركة فقال: (كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم)^(٢).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يقول: «فاعلم أن المرض صفة توجب وقوع الضرر في الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة، ولما كان الأثر الخاص بالقلب إنما هو معرفة الله تعالى وطاعته وعبوديته، فإذا وقع في القلب من الصفات ما صار مانعاً من هذه الآثار كانت تلك الصفات أمراضاً للقلب»^(٣).

(١) التفسير الكبير الرازي ٥٣/٢ - ٥٤.

(٢) نفس المصدر ١٢٨/٢.

(٣) الرازي ٦٤/٢.

ويمكننا أن نلخص المعاني التي استفدناها من هذا التفسير للرازي وهي:

١ - أن محل العلم هو القلب.

٢ - وأن البصيرة نور القلب.

٣ - أن القلب يتأثر عند مطالعته الدلائل والأيام والعبر.

٤ - الأثر الخاص بالقلب هو معرفة الله تعالى وطاعته وعبادته.

ويؤكد ذلك تفسيره لقول الله: ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ إذ يسأل: «هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب». الجواب: «نعم لأن المقصود من قوله ﴿قلوب يعقلون بها﴾ العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلاً للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لأن الجاهل لكونه متحيراً يشبه الأعمى»^(١).

أما العلامة نظام الدين النيسابوري فقد فسر قوله تعالى: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ فقال: «ثم إنه تعالى حكى عن الراسخين في العلم نوعين من الدعاء الأول قولهم ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي بعد وقت هدايتنا والثاني قولهم ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾.

سألوا ربهم أولاً أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الأباطيل والعقائد الفاسدة، ثم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة ويزين جوارحهم وأعضاءهم بزينة الطاعة والعبودية والخدمة، ونكر رحمة ليشمل جميع أنواعها، فأولها يحصل في القلب نور الإيمان والتوحيد والمعرفة، وثانيها أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية والخدمة.

(١) المرجع نفسه ١٨٩/٦.

قال أهل السنة: القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان وصالح لأن يميل إلى الكفر، وكل منهما يتوقف على داعية ينشئها الله تعالى فيه إذ لو حدثت بنفسها لزم سد باب إثبات الصانع فإن كانت داعية الكفر فهو الخذلان والإزاعة والصدّ والختم والطبع والرّين وغيرها مما ورد في القرآن وإن كانت داعية الإيمان فهو التوفيق والرشاد والهداية والتثبيت والعصمة ونحوها، وكان رسول الله ﷺ يقول: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يعني الداعيتين، ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى مدح هؤلاء الراسخين بأنهم لا يتبعون المتشابهات بل يؤمنون بها على سبيل الإجمال»^(١).

أما الزمخشري فإنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ بالياء: أي يعقلون من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي، والمعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم، أو لا يعتد بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم أو لا يعتد بعمى الأبصار فكأنه ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب^(٢).

وقال في مكان آخر: وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء^(٣).

وأما استعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً، فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول: في جوفه مرض، والمجاز أن يستعار لبعض أغراض

(١) تفسير غرائب القرآن، النيسابوري حاشية الطبري ١٤٥/٣ - ١٤٦.

(٢) الكشف، الزمخشري المجلد الثالث.

(٣) نفس المصدر.

القلب كسوء الاعتقاد ، والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض ، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك ، والمراد به هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر ، أو من الغل والحسد والبغضاء ، لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً^(١) .

ويمكننا الآن بعد مطالعة هذه الآراء التي تعبر عن وجهة نظر عدد من كبار الباحثين المسلمين ، أن نستنتج شيئاً واحداً ، يشترك فيه الجميع وهو أن في « القلب » نوراً جعله الله فيه ليدرك الحكمة الإلهية والمعرفة ، وأن القلب هو مركز الإيمان والكفر كما سبق وذكرنا ، وأن الاتجاه الصوفي يؤكد هذا المعنى ويركز عليه ، ويدور حوله ، فالنور نور العقل ، وهو في القلب ، وهذا القلب هو المدرك العالم العارف بالله .

وهذا ما يعبر عنه الصوفي الكبير الإمام أبو الحسن الشاذلي بقوله : « أول منزل يطوؤه المحب للترقي منه إلى العلا النفس ، فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثاني وهو (القلب)^(٢) » .

وفي هذا يقول شاعرهم :

أتحسبني أنساه في العمر لحظة وكيف وقلبي باسمه يترنم
أفاض على الحق من بحر نوره فقلبي بغير الحق لا يتكلم^(٣)

(١) نفس المصدر ج ١ .

(٢) الصوفية في اهامهم ، حسن كامل المطاوي ١٩٧٢ القاهرة .

(٣) نفس المصدر السابق .

خاتمة

بعد المقارنة بين مفهوم العقل ومفهوم القلب في القرآن والسنة، يمكننا أن نذهب إلى القول، بوجود عموم وخصوص وجهي بين اللفظين، فهما يشتركان في الناحية الفكرية، ويختص القلب بالناحية الوجدانية، أي أننا لا نستطيع أن نؤيد القول الذي ذهب إليه العلماء من أن القلب هو العقل وإلا لكان العكس صحيحاً، أي كان العقل هو القلب لكل المعاني التي تتصل بالمشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية، بينما يقتصر العقل على التفكير والتأمل والدراسة والفهم والمعرفة.

العقل يستعرض الطبيعة والإنسان والحياة، ويستدل منها على وجود الصانع الخالق المبدع، ويستخرج النتائج التي توصله إلى الإيمان واليقين. والقلب يفعل نفس الشيء، ولكنه يفكر بأسلوب مختلف، يستند إلى الوجدان العميق، والبصيرة النفاذة، وتحركه إلى الخير أو الشر تحرك باطني، تظهر علاماته في أعمال الإنسان وتصرفاته.

هناك فرق في الدور الذي يؤديه كل منهما، العقل يستعرض المعلومات، وينظمها، ويستنتج منها ما يرشده إلى المعرفة.

والقلب يدرك هذه المعلومات إدراكاً باطنياً وجدانياً، قد يكون العقل عاملاً مساعداً فيها، أو قد يكون جزءاً لا يتجزأ من القلب، يندرج تحته، ويكون في خدمته، لأن المعرفة الحقيقية هي معرفة القلب.

فالعقل تأمل وادراك والقلب احساس ويقين وفهم عميق .

العقل هو وسيلة المعرفة أو أدواتها كما هو متعارف عليه في مختلف العصور .

أما القلب في القرآن والسنة فإنه يبدو متميزاً عن العقل ، بأنه عقل ملهم ، عقل مبصر ، عقل يشعر من أعماق الذات الإنسانية ، ويدرك حقائق الأشياء بنور يقذفه الله فيه ، فهو مكان الوحي ، وهو مكان الإيمان ، وهو مكان التقوى ومكان العلم ، بل هو أعظم عضو في الإنسان ، إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله .

هو « الرادار » الذي يشير إلى الإنسان ، ويقرر له خطواته ، فإذا تعطل هذا « الرادار » ضل الإنسان سبيله ، وعمي عن معرفة الحقيقة ، واتجه إلى الشر والأثم .

أما إذا عمل هذا « الرادار » بقوة فإنه يملك من إمكانيات الهداية والمعرفة والخير والإيمان ما لا يملكه أي شيء آخر .

إنه الشفافية ، والرقّة ، والرحمة ، والإيمان .

فإذا تعطل ، فإنه الطبع والاقفال ، والغلظة ، والقسوة ، والكفر والضياع .

القلب هو الإنسان ، القلب هو الملك ومملكته النفس البشرية .

إنه ليس عقلاً ميكانيكياً ، يتلقى المعلومات من الخارج وينظمها ويخرج نتائجها في عملية رياضية بحتة ، ولكنه عقل حيوي يتفاعل مع ما حوله من ظواهر كونية ، ويتأثر بها ، ويدرك مكانه بالنسبة إليها ، وهذا سر ادراكه

حقيقة الوجود .

إنه نور الله في أعماق الذات الإنسانية ، يضيء جوانبها بضياء المعرفة الحقة وباليقين الصادق .

هذا هو القلب المؤمن .

لذلك نلاحظ استخدام ذلك التعبير الذي يفرق بينه وبين القلب الكافر ، وهو الطبع والإغلاق .

القلب المؤمن ، عقل منفتح على الحقيقة ، عقل مؤهل لحمل المسؤولية ، مؤهل للاختبار والامتحان والمحاسبة .

أما القلب الكافر ، فهو عقل مغلق ، يحيط به الظلام من كل جانب ، فهو في جهل مطبق ، وجهله يدفعه إلى عدم تقدير المسؤولية ، وتفسير الوجود تفسيراً مرتبطاً باللذة العابرة والشهوة الآنية والمنفعة الذاتية .

هذا هو الفرق بين قلب وقلب ، وبين عقل وعقل .

فإذا كانت الفلسفة هي محبة الحكمة ، وهدفها المعرفة لذات المعرفة ، فما قيمة المعرفة إذا دفعت بالإنسان إلى الضلال والقلق وعدم اليقين ؟

إن المعرفة التي يهدف إليها الإسلام هي طريق الإيمان ، طريق الطمأنينة والسكينة والهدوء النفسي ، ومن جعل الله السكينة في قلبه ، فقد هُدي إلى سواء السبيل .

إذن فعقل المؤمن عقل واع ، يختار بإرادة حرة ، لا جبر فيها ولا إكراه ، لأن الإسلام يقول له : إفتح عقلك ، تأمل أسرار الكون ثم آمن ..

إن العقل والقلب وما يتبعهما من مترادفات في القرآن والسنة ، يؤكدان

أن المفهوم الذي يستفاد منهما، في مختلف الاستعمالات التي وردت في المصدرين الرئيسيين، مفهوم يتصل بتقرير حقيقة الإنسان ودوره الفاعل بالنسبة لما يحيط به من عوالم ظاهرة وغيبية، وما يطلب منه لإعمار هذا الكون بالحق والخير والجمال، فالكون أشبه بمحراب يتعبد فيه العقل وهو ينظر إلى ملكوت السموات والأرض ويتول: «ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانه» .

وفي حالة التأمل هذه يتحرك القلب نحو الحق، ليدور حوار صامت بين وجدان الإنسان وبين الكون العظيم، حوار أثري يدفع إلى التناغم بينهما، فإذا النور الرباني نور في القلب، وإذا القلب يخفق بحب الله والاقرار بوجوده والإيمان به .

﴿الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾ .

هذا النور الذي يملأ القلب، هو العقل، فالصلة وثيقة بين القلب والعقل، واحدهما لا ينفك عن الآخر، كما ذهب إلى ذلك عدد من علماء التفسير .

مطلوب من القلب أن يعقل حتى يكون مؤمناً، فإذا لم يعقل فإنه العمى، والظلام .

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾^(١) .

(١) الحج آية ٤٦ .

هذا السير الباحث عن الحقيقة، هذه الرحلة الفكرية، هذا التجوال في الأرض وفي الكون، هو الذي يحرك القلب ليرشده إلى الحقيقة الخالدة، فيعقل عن الله، ويصير بنوره.

إن التناغم بين الكون وبين القلب، أي بين الظاهر والباطن، هو سر الإيمان بخالق الكون والإنسان.

لذلك يبدو العقل في القرآن فذاً فريداً في نوعه، عندما يُستخدم التعبير بالقلب إلى جانب فعل العقل، ليؤكد أن الإنسان ليس عقلاً جامداً فقط، بل هو عقل وقلب، أو هو قلب يعقل، يحس، يشعر يتأثر، يدرك.

إن هذا المزج بين التعبيرين يشكل ظاهرة فريدة تختلف عن غيرها كل الاختلاف، وتعطي للعقل في القرآن بعداً جديداً، يجمع بين العقل الظاهر والعقل الباطن، وبين التفكير والشعور الوجداني.

إنه عقل موضوعي يرتبط فيه الجانب الروحي بالواقع المادي، وهو عقل متواضع لا يعرف الغرور، مسؤوليته في حدود قدراته، لا يتجاوز المحدود إلى ما وراءه، ولا يدعي القدرة على معرفة الغيب، ويعترف بأنه شيء وراء إمكانيات العقل، فيقر بعجزة في هذا الميدان، والاقرار بالعجز هو الطريق إلى الاعتراف بعظمة الخالق وقدرته الكاملة، وهو الطريق بالتالي إلى الإيمان البسيط، وإلى الإيمان العميق، إيمان النظرة الإنسانية السليمة.

هذا هو العقل المسلم، كما يبدو لنا في القرآن والسنة.

وفوق كل ذي علم عليم.



الناربي الشبائي

الفهارس

فهرس المراجع

- ابن أبي الدنيا:
العقل وفضله
محمد زاهد الكوثري القاهرة ١٩٤٦
- ابن تيمية:
أ - الفتاوى، الرياض ١٣٨١ هـ.
ب - منهاج السنة النبوية مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٢
- ابن عبد ربه الأندلسي (أحمد بن محمد):
العقد الفريد
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م
- ابن ماجة:
السنن
مطبعة الحلبي القاهرة
- ابن مالك:
الموطأ
مطبعة الحلبي القاهرة
- ابن منظور:
لسان العرب
مطبعة بولاق

□ ابن هشام (عبد الملك بن هشام المعافري)
السيرة النبوية
مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م

□ أبو داود
السنن
مطبعة السعادة القاهرة

□ أحمد بن حنبل
المسند
مطبعة صادر بيروت

□ الأعشي (ميمون بن قيس)
ديوان شعر
دار النهضة العربية بيروت

□ ألكسيس كاريل:
« الإنسان ذلك المجهول »
النسخة الفرنسية كتاب الجيب باريس رقم ٤٤٥ - ٤٤٦

□ الألباني: (محمد ناصر الدين)
الأحاديث الضعيفة والموضوعة
دار الفكر دمشق

□ البخاري (أبو عبد الله)
صحيح البخاري
مطبعة الحلبي القاهرة

□ بلا شارل
رسالة في الحلم
دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٣

- الترمذي الحكيم:
بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب
القاهرة: تحقيق نقولا هر مطبعة الحلبي ١٩٥٨
- جار الله (زهدي حسن)
المعتزلة
مطبعة مصر ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م
- الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد الحلبي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
السيوطي
هامش تفسير الجلالين «أسباب النزول»
مطبعة دار مروان - ودار العربية ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤
- الحامد: (عبد الله بن حامد)
شعر الدعوة الإسلامية
الرياض ١٩٧٢
- حميد الله: محمد
«القرآن الكريم» ترجمة كاملة باللغة الفرنسية
بيروت ١٩٣٧
- الجاحظ (عمرو بن بحر) ت ٢٥٥ هـ
كتاب الحيوان
تحقيق وشرح عبد السلام هارون بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٦ م
- الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي)
تاريخ بغداد
مطبعة الخانجي القاهرة ١٩٣١
- الدارمي (أبو محمد عبد الله التميمي) ت ٨٦٩ م
سنن الدارمي
مطبعة إحياء السنة النبوية القاهرة

- دراز (الدكتور محمد عبد الله)
دستور الأخلاق في القرآن
المؤسسة التجارية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٤
- الذهبي (أبو عبد الله شمس الدين)
أ - تذكرة الحفاظ، حيدر آباد ١٣٧٧ هـ
ب - ميزان الاعتدال في نقد الرجال القاهرة ١٩٦٣
- الرازي: (فخر الدين أبو عبد محمد بن أحمد) ت ٦٠٦ هـ
« التفسير الكبير »
مطبعة العامرة الشرقية ١٣٠٨ هـ
- الرازي: (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر) ت ٦٦٦ هـ
معجم مختار الصحاح
دار الكتاب العربي لبنان
- الرافعي (مصطفى صادق)
وحي القلم
مطبعة الاستقامة القاهرة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م
- الزمخشري الخوارزمي (أبو القاسم جار الله محمد بن عمر) ت ٥٤٨ هـ
الكشاف عن حقائق التنزيل
- السجيني (فهمي)
حقيقة العقل وحركة التاريخ
مطابع الأهرام ١٩٧٣
- سوليفان ج:
« طبيعة العقل »
الدار العلمية بيروت ١٩٧٢
- الشهرستاني (الإمام محمد بن عبد الكريم) ت ٥٤٨ هـ
الملل والنحل
تحقيق محمد سيد الكيلاني مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م

- الشنقيطي: محمد
شرح المعلقات العشر
- صليبا: جميل
معاني العقل في الفلسفة العربية
مجلة الجمع العلمي، دمشق مجلد ٢٩ ص ٤٩٦ - ١٩٥٤ م
- الطبري: (أبو جعفر بن محمد بن جرير) ت ٣١٠ هـ
تفسير الطبري
دار المعارف القاهرة
- طوقان (حافظ)
مقام العقل عند العرب
- العقاد (عباس محمود)
أ - الإنسان في القرآن الكريم، مطبعة دار الهلال القاهرة
ب - التفكير فريضة إسلامية، دار القلم القاهرة
- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد)
أ - إحياء علوم الدين، مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م
ب - المنقذ من الضلال، مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود
الناشر مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٥
- الفيروز ابادي (مجد الدين)
القاموس المحيط
مطبعة السعادة القاهرة ١٣٣٢ هـ ١٩١٣ م
- قاسم: (الدكتور محمود)
أ - في النفس والعقل، مطبعة الانجلو المصرية ١٩٥٤
ب - دراسات في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف القاهرة ١٩٧٠
- القرطبي: (أبو عبد الله محمد بن أحمد)
الجامع لأحكام القرآن
مطبعة دار الشعب القاهرة

- قطب (سيد)
في ظلال القرآن
مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة
- المحاسبي: (الحارث بن أسد) ت ٢٤٣ هـ
أ - العقل وفهم القرآن
تحقيق حسين القوتلي
دار الفكر بيروت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
- محمود (الدكتور عبد الحليم شيخ الأزهر)
أ - أستاذ السائرين، المحاسبي
دار الكتاب الحديثة القاهرة ١٩٧٣
ب - الإسلام والعقل
دار الكتاب الحديثة القاهرة ١٩٦٦
ج - التفكير الفلسفي في الإسلام
مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤
- محمود (الدكتور مصطفى)
أ - القرآن محاولة لفهم عصري، دار الشروق بيروت ١٩٧٠
ب - لغز الموت، دار العودة بيروت ١٩٧٢
- مسلم (ابن الحجاج) ت ٨٦٥ م
صحيح مسلم
شرح النووي المطبعة المصرية القاهرة
- معلوف (لويس)
قاموس المنجد
المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٥
- المقرئزي (أحمد بن علي)
الخطط والأمصا
مطبعة الأهرام القاهرة ١٩٧٢

- المناوي (محمد عبد الرؤوف)
الجامع الصغير
مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م
- المنجد (صلاح الدين)
الإسلام والعقل
دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٧٤ م
- المنذري (الحافظ أبو محمد زكي الدين عبد العظيم عبد القوي) ت ٦٥٦ هـ
الترغيب والترهيب
مطبعة السعادة القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٣ م
- ناثان (حسني)
الماركسية في الفلسفة
دار النشر للجميع بغداد
- النيسابوري (محمد بن حسين القمي)
غرائب القرآن ورغائب الفرقان
حاشية تفسير الطبري

فهرس الآيات

والمصطلحات القرآنية في موضوع العقل والقلب

آيات العقل في القرآن

- | | |
|-------------------------------|------------------------------|
| يوسف: آية ٢ ص ٨٢ . | البقرة: آية ١٦٤ ص ٥٦ ، ١٠٢ . |
| الأنبياء: آية ١٠ ص ٨٢ . | المؤمنون: آية ٨٠ ص ٥٦ ، ٦٧ . |
| يونس: آية ١٦ ص ٨٣ . | النحل: آية ١٢ ص ٥٧ . |
| يوسف: آية ١٠٩ ص ٨٤ . | الشعراء: آية ٢٨ ص ٥٧ ، ٧٧ . |
| العنكبوت: آية ٤٣ ص ٨٥ . | الجمعة: آية ٥ ص ٥٧ ، ٦٢ . |
| البقرة: آية ٤٤ ص ٨٥ ، ٩٠ . | الحديد: آية ١٧ ص ٦١ . |
| آل عمران: آية ٦٥ ص ٨٥ . | الرعد: آية ٤ ص ٦١ . |
| الأنعام: آية ٣٢ ص ٨٧ . | الروم: آية ٢٤ ص ٦٢ . |
| القصص: آية ٦٠ ص ٨٨ . | النحل: آية ٦٧ ص ٦٢ . |
| يس: آية ٦٢ ص ٨٨ . | العنكبوت: آية ٦٣ ص ٦٢ . |
| الصافات: آية ١٣٦ - ١٣٧ ص ٨٨ . | المؤمن: آية ٨٠ ص ٦٣ . |
| العنكبوت: آية ٣٤ - ٣٥ ص ٨٩ . | غافر: آية ٦٧ ص ٦٥ . |
| البقرة: آية ٩ ص ٨٩ . | الأنبياء: آية ٥٢ - ٦٧ ص ٧٦ . |
| البقرة: آية ٧٥ ص ٨٩ . | البقرة: آية ١٧٠ - ١٧١ ص ٧٩ . |
| الأعراف: آية ١٦٩ ص ٩٠ . | الأنفال: آية ٢٢ ص ٨٠ . |
| البقرة: آية ٧٦ ص ٩٠ . | الفرقان: آية ٤٤ ص ٨٠ . |
| آل عمران: آية ١١٨ ص ٩١ . | الملك: آية ١٠ ص ٨١ . |

النور: آية ٥٨ - ٦١ ص ٩٥ .

الأنعام: آية ١٥١ ص ٩٥ .

الزمر: آية ٤٣ ص ٩٦ .

الروم: آية ٢٨ ص ٩٧ .

المائدة: آية ٥٧ - ٥٨ ص ٩٢ .

الحشر: آية ١٣ - ١٤ ص ٩٢ .

المائدة: آية ١٠٣ ص ٩٣ .

يونس: آية ٩٩ ص ٩٤ .

الحجرات: آية ٤ ص ٩٤ .

آيات اللب في القرآن

ص: آية ٢٩ ص ١٠٥ .

إبراهيم: آية ٥٢ ص ١٠٥ .

الزمر: آية ٢١ ص ١٠٦ .

غافر: آية ٥٣ - ٥٤ ص ١٠٦ .

يوسف: آية ١١١ ص ١٠٦ .

المائدة: آية ١٠٠ ص ١٠٧ .

البقرة: آية ١٩٧ ص ١٠٧ .

البقرة: آية ١٧٩ ص ١٠٧ .

آل عمران: آية ١٩٠ - ١٩١ ص ١٠٢ ،

١١٠ .

الزمر: آية ١٨ ص ١٠٣ .

آل عمران: آية ٧ ص ١٠٤ .

الزمر: آية ٩ ص ١٠٤ .

البقرة: آية ٦٦٩ ص ١٠٥ ، ٢٦٩ .

الرعد: آية ٩ ص ١٠٥ .

آيات الفكر في القرآن

البقرة: آية ٢٦٣ - ٢٦٦ ص ١١٦ .

الحشر: آية ٢١ ص ١١٧ .

سبأ: آية ٤٦ ص ١١٨ .

الأعراف: آية ١٨٤ ص ١١٨ .

النحل: آية ٤٣ - ٤٤ ص ١١٩ .

الأنعام: آية ٥٠ ص ١١٩ .

الأعراف: آية ١٧٥ - ١٧٦ ص ١٢٠ .

البقرة: آية ٢١٩ ص ١٢١ .

المدثر: آية ١٨ - ١٩ ص ١٢١ .

آل عمران: آية ١٩٠ - ١٩١ ص ١١٠ .

الروم: آية ٨ ص ١١١ .

الزمر: آية ٤٢ ص ١١١ .

الجاثية: آية ٣ ص ١١٢ .

الرعد: آية ٣ ص ١١٢ .

النحل: آية ١٠ - ١١ ص ١١٢ .

النحل: آية ٦٩ ص ١١٣ .

الروم: آية ٢١ ص ١١٣ .

يونس: آية ٢٤ ص ١١٤ .

آيات الحلم في القرآن

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| البقرة: آية ٢٢٥ ص ١٢٤ . | الحج: آية ٥٩ ص ١٢٦ . |
| البقرة: آية ٢٦٣ ص ١٢٤ . | التوبة: آية ١١٤ ص ١٢٦ . |
| التغابن: آية ١٧ ص ١٢٥ . | الصافات: آية ١٠١ ص ١٢٦ . |
| النساء: آية ١٢ ص ١٢٦ . | الطور: آية ٣٢ ص ١٢٧ . |

آيات النهي في القرآن

- | | |
|--------------------|---------------------|
| طه: آية ٥٤ ص ١٢٧ . | طه: آية ١٢٨ ص ١٢٨ . |
|--------------------|---------------------|

آيات الحجر في القرآن

- الفجر: آية ١ - ٥ ص ١٢٨ .

آيات القلب في القرآن

- | | |
|---------------------------|-----------------------------|
| الحج: آية ٤٦ ص ١٨٧ . | التوبة: آية ٦٤ ص ١٩٤ . |
| البقرة: آية ٢٢٥ ص ١٨٩ . | التوبة: آية ٧٥ - ٧٧ ص ١٩٥ . |
| الأحزاب: آية ٥ ص ١٨٩ . | البقرة: آية ٨ - ١٠ ص ١٩٥ . |
| البقرة: آية ٢٨٣ ص ١٩٠ . | المائدة: آية ٥٢ ص ١٩٦ . |
| طه: آية ٧ ص ١٩٠ . | الأنفال: آية ٤٩ ص ١٩٧ . |
| الحجرات: آية ١٤ ص ١٩١ . | الأحزاب: آية ١٢ ص ١٩٨ . |
| البقرة: آية ٢٠٤ ص ١٩١ . | الأحزاب: آية ٦٠ ص ١٩٨ . |
| آل عمران: آية ١٦٧ ص ١٩٣ . | المدثر: آية ٣١ ص ١٩٩ . |
| المائدة: آية ٤١ ص ١٩٣ . | محمد: آية ٢٠ ص ١٩٩ . |
| التوبة: آية ٨ ص ١٩٣ . | محمد: آية ٢٤ ص ١٩٩ . |
| الفتح: آية ١١ ص ١٩٤ . | البقرة: آية ٦ - ٧ ص ٢٠٠ . |

الشورى: آية ٢٤ ص ٢٠١ .
 الأنعام: آية ٤٦ ص ٢٠١ .
 الجاثية: آية ٢٣ ص ٢٠٢ .
 النحل: آية ١٠٨ ص ٢٠٣ .
 البقرة: آية ٨٨ ص ٢٠٤ .
 النساء: آية ١٥٥ ص ٢٠٤ .
 الأعراف: آية ١٠٠ - ١٠١ ص ٢٠٤ .
 الروم: آية ٥٨ - ٥٩ ص ٢٠٥ .
 يونس: آية ٧٤ ص ٢٠٥ .
 محمد: آية ١٦ ص ٢٠٥ .
 التوبة: آية ٨٧ ص ٢٠٦ .
 التوبة: آية ٩٣ ص ٢٠٦ .
 الإسراء: آية ٤٦ ص ٢٠٦ .
 الكهف: آية ٥٧ ص ٢٠٦ .
 محمد: آية ٢٤ ص ٢٠٧ .
 المنافقون: آية ٣ ص ٢٠٧ .
 الأعراف: آية ١٧٩ ص ٢٠٨ .
 غافر: آية ٣٥ ص ٢٠٨ .
 التوبة: آية ١٢٧ ص ٢٠٩ .
 البقرة: آية ١١٨ ص ٢٠٩ .
 الشعراء: آية ١٩٢ - ١٩٥ ص ٢١٠ .
 البقرة: آية ٩٧ ص ٢١٠ .
 ق: آية ٣٧ ص ٢١١ .
 الأحزاب: آية ٤ ص ٢١٢ .
 آل عمران: آية ١٠٢ - ١٠٣ ص ٢١٤ .
 الأنفال: آية ٦٣ ص ٢١٤ .
 الحشر: آية ١٠ ص ٢١٥ .

آل عمران: آية ١٥٩ ص ٢١٥ .
 الحديد: آية ٢٧ ص ٢١٦ .
 البقرة: آية ٧٤ ص ٢١٧ .
 الزمر: آية ٢٢ - ٢٣ ص ٢١٧ .
 الحج: آية ٥٢ - ٥٤ ص ٢١٨ .
 الأنعام: آية ٤٢ - ٤٣ ص ٢١٨ .
 المائدة: آية ١٣ ص ٢١٩ .
 الأنفال: آية ٢ ص ٢١٩ .
 الحج: آية ٣٥ ص ٢١٩ .
 المؤمنون: آية ٦٠ ص ٢٢٠ .
 النور: آية ٣٧ ص ٢٢٠ .
 النازعات: آية ٦ - ٨ ص ٢٢٠ .
 غافر: آية ١٨ ص ٢٢٠ .
 الأحزاب: آية ١٠ ص ٢٢١ .
 الأنفال: آية ١٢ ص ٢٢١ .
 آل عمران: آية ١٥١ ص ٢٢١ .
 الأحزاب: آية ٢٦ ص ٢٢٢ .
 الحشر: آية ٢ ص ٢٢٢ .
 التوبة: آية ١٥ ص ٢٢٢ .
 التوبة: آية ٦٠ ص ٢٢٢ .
 آل عمران: آية ١٥٦ ص ٢٢٣ .
 الزمر: آية ٤٥ ص ٢٢٣ .
 الأنفال: آية ٢٤ ص ٢٢٣ .
 الرعد: آية ٢٨ ص ٢٢٤ .
 الأنفال: آية ١٠ - ١١ ص ٢٢٤ .
 النحل: آية ١٠٦ ص ٢٢٥ .
 الكهف: آية ١٤ ص ٢٢٥ .

- القصص: آية ١٠ ص ٢٢٥ .
 الفتح: آية ١٨ ص ٢٢٥ .
 الفتح: آية ٤ ص ٢٢٦ .
 آل عمران: آية ١٥٤ ص ٢٢٧ .
 الحجرات: آية ٢ - ٤ ص ٢٢٨ .
 ق: آية ٣٢ - ٣٣ ص ٢٣٠ .
 الصافات: آية ٨٤ ص ٢٣٠ .
 الشعراء: آية ٨٨ - ٨٩ ص ٢٣١ .
 الأحزاب: آية ٥٣ ص ٢٣١ .
 الحجرات: آية ٦ ص ٢٣٢ .
 الحجرات: آية ٧ ص ٢٣٢ .
 المجادلة: آية ٢٢ ص ٢٣٣ .
 الحج: آية ٣٢ ص ٢٣٣ .
- التغابن: آية ١١ ص ٢٣٣ .
 التوبة: آية ٤٥ ص ٢٣٤ .
 التوبة: آية ١١٠ ص ٢٣٤ .
 الفتح: آية ١٢ ص ٢٣٥ .
 آل عمران: آية ٧ ص ٢٣٥ .
 الأنبياء: آية ٣ ص ٢٣٦ .
 البقرة: آية ٩٣ ص ٢٣٦ .
 الفتح: آية ٢٦ ص ٢٣٦ .
 الحشر: آية ١٤ ص ٢٣٧ .
 يونس: آية ٨٨ ص ٢٣٧ .
 النساء: آية ٦٣ ص ٢٣٨ .
 الأحزاب: آية ٥١ ص ٢٣٨ .
 البقرة: آية ٢٦٠ ص ٢٣٩ .

آيات الفؤاد في القرآن

- النحل: آية ٧٨ ص ٢٤٠ .
 المؤمنون: آية ٧٨ ص ٢٤٠ .
 الأحقاف: آية ٢٦ ص ٢٤١ .
 الفرقان: آية ٣٢ ص ٢٤١ .
 هود: آية ١٢٠ ص ٢٤١ .
 الإسراء: آية ٣٦ ص ٢٤١ .
- النجم: آية ١١ - ١٢ ص ٢٤٢ .
 إبراهيم: آية ٣٧ ص ٢٤٢ .
 الأنعام: آية ١١٣ ص ٢٤٢ .
 إبراهيم: آية ٤٢ - ٤٣ ص ٢٤٣ .
 الهَمَزَة: آية ٦ - ٧ ص ٢٤٣ .
 الأنعام: آية ١١٠ ص ٢٤٣ .

آيات الصدر في القرآن

- الشرح: آية ١ ص ٢٤٣ .
 الأنعام: آية ١٢٥ ص ٢٤٤ .
- الزمر: آية ٢٢ ص ٢٤٤ .
 طه: آية ٢٥ ص ٢٤٤ .

- الشعراء: آية ١٢ - ١٣ ص ٢٤٤ .
الحجر: آية ٩٧ ص ٢٤٤ .
هود: آية ١٢ ص ٢٤٤ .
النساء: آية ٩٠ ص ٢٤٥ .
الأعراف: آية ٢ ص ٢٤٥ .
النحل: آية ١٠٦ ص ٢٤٥ .
يونس: آية ٥٧ ص ٢٤٥ .
التوبة: آية ١٤ ص ٢٤٥ .
الغنكبوت: آية ٤٩ ص ٢٤٥ .
غافر: آية ١٩ ص ٢٤٦ .
الملك: آية ١٣ ص ٢٤٦ .
آل عمران: آية ٢٩ ص ٢٤٦ .
القصص: آية ٦٩ ص ٢٤٦ .
الحديد: آية ٦ ص ٢٤٦ .
الشورى: آية ٢٤ ص ٢٤٦ .
النمل: آية ٧٤ ص ٢٤٦ .
الغنكبوت: آية ١٠ ص ٢٤٦ .
الأنفال: آية ٤٣ ص ٢٤٦ .
- المائدة: آية ٧ ص ٢٤٦ .
فاطر: آية ٣٨ ص ٢٤٦ .
التغابن: آية ٤ ص ٢٤٦ .
آل عمران: آية ١١٨ ص ٢٤٦ .
آل عمران: آية ١١٩ ص ٢٤٦ .
الأنعام: آية ٤٩ - ٥٠ ص ٢٤٦ .
غافر: آية ٥٦ ص ٢٤٦ .
آل عمران: آية ١٥٤ ص ٢٤٧ .
هود: آية ٥ ص ٢٤٧ .
الأعراف: آية ٤٣ ص ٢٤٧ .
الحجر: آية ٤٧ ص ٢٤٧ .
الناس: آية ٥ ص ٢٤٧ .
العاديات: آية ١٠ ص ٢٤٧ .
غافر: آية ٨٠ ص ٢٤٧ .
الحشر: آية ١٣ ص ٢٤٧ .
الحشر: آية ٩ ص ٢٤٧ .
الزمر: آية ٧ ص ٢٤٨ .

فهرس الأعلام

أ

- | | |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| ابن عباس ١٣٦ ، | إبراهيم (عليه السلام) ٧٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، |
| ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، | ١٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ |
| ١٥٠ ، ٢١٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ١٧٤ - ١٧٦ | ابن أبي حاتم ٧١ ، ١٣٩ ، ٢١٣ |
| ابن عربي ١٤٠ | ابن أبي الدنيا ١٣٦ - ١٣٩ ، ١٤٥ ، |
| ابن عرفة ٣٨ | ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ |
| ابن مالك ١٤٣ | ابن أبي نجيح ٢١٣ |
| ابن المدني ١٣٧ | ابن الأنباري ٢٨ ، ٤٢ |
| ابن معين (يحيى) ١٣٧ ، ١٣٨ | ابن بري ٢٨ |
| ابن منظور ٢٨ ، ٣٧ | ابن تيمية ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ |
| أبو إسحاق الاسفراييني ١٧٩ | ابن جرير ٢١٣ |
| أبو إمامة ١٤٠ | ابن الجوزي ١٤٠ ، ١٤١ |
| أبو بكر القاضي ١٧٩ ، ١٨٠ | ابن حميد ١٧٤ |
| أبو الحسن الأشعري ٢٨ ، ٣٨ ، ٥١ ، | ابن زيد ١٧٧ |
| ٧٢ ، ١٧٩ ، ٢١٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ | ابن سبعين ١٤٠ |
| أبو الحسن الشاذلي ٢٧٤ | ابن سيده ٥٠ |
| أبو داود (سليمان بن الأشعث) ٢٦٢ | ابن سينا ١٦ |

أبو الدرداء (عويمر بن مالك) ٢٥٤

أبو زرعة ١٣٧

أبو ظبيان ١٤٥

أبو العباس القلنسي ١٨٠

أبو عبد الله بن مجاهد ١٨٠

أبو عبيد ٢٣٠

أبو الليث ٢٦٥

أبو مالك (بشر بن غالب) ١٣٦

أبو نعيم الأصبهاني ١٤٠

أبو هريرة ١٤٦ ، ٢٦١

أبي بن خلف ٧١

أحد (جبل قرب المدينة المنورة)

٢٢٦ ، ٢٢١

أحمد بن حنبل ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ،

١٥٧

إخوان الصفا ١٤٠

الأزدي ١٣٦

أسباط ١٧٦

إسماعيل (عليه السلام) ٢٤٢

الأشج أشج عبد القيس ١٤٩

الأعشى بن ميمون ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ،

٣١ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ،

١٤٥

ألكسيس كاريل ٦٨ ، ٦٩ ، ١٨٨

امرؤ القيس ٣٣ ، ٤٥ ، ٥٢

أم موسى ٢٢٥

أهل الكهف ٢٢٥

ب

بجير بن زهير ٤٨

البخاري ٢٣١

بشر ١٩٧

بنو تميم ٢٢٩

بنو قريظة ٢٢١

بنو النضير ٢٢٢

ت

الترمذي الحكيم (محمد بن علي) ٢٧ ،

٣٢ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٦٨

الترمذي (محمد بن عيسى) صاحب

السند ٢١٣

التهانوي (محمد علي الفاروقي) ١٧٧

ج

جابر بن عبد الله ١٤٢

جار الله محمود بن عمر الزمخشري

١٨١

الجارود بن المعلّى ٥٣

الدارقطني (علي بن عمر) ١٣٧
الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن)
٢٥٢

داود بن المحبّر ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
الدولابي ١٣٦

الرازي (أبو حاتم محمد بن إدريس)
١٣٦ ، ١٤٠
الرازي (الفخر الرازي محمد بن عمر)
١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ،
٢٧٠

الرازي (محمد بن أبي بكر) ٢٩
رافع بن خارجة ١٧٤

الزجاج ٥٠ ، ١٧٨
الزركشي ١٤١
الزحشري ٢٧١ ، ٢٧٣
الزهري ١٣٦
زهير ابن أبي سلمى ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٥ ،
٥٢ ، ٤٦

جرير بن عبد الحميد الضبي ١٤٥
جعفر بن أحمد ١٤١

الحارث بن أسامة ١٣٦ ، ١٤٧
الحارث بن أسد المحاسبي ١٧ ، ١٨ ،
٢٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
١٨٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦

الحافظ بن حجر ١٣٦
الحاكم (محمد بن عبد الله) ٧١
الحديبية (مكان قرب مكة) ٢٢٥
حسان بن ثابت ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٨

الحسن البصري ١٥٦
الحسن بن علي (رضي الله عنه) ١٤١ ،
١٥٥ ، ٢١٣

الحسين بن علي (رضي الله عنه) ١٧٥
حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه)
٢٦ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٣

خزاعي بن عبد نهم ٢٥
خصيف ٢١٣
الخطيب البغدادي ١٣٧

س

السدي ١٧٦، ٧١

سعيد بن جبير ١٧٤، ٢١٣

سلمة بن الفضل ١٧٤

سليمان بن عيسى السجزي ١٣٧

سواد بن قارب ٥٣

سيار ١٤١

سيبويه ٢٧

سيد قطب ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٨

ش

شاور بن أردشير ١٧٨

شارل بلا ٣١، ٣٩، ٤٠

الشافعي ١٨٠

شمس الدين الذهبي ١٣٦، ١٣٧

١٣٨، ١٣٩

الشنقيطي ٢٤، ٣٣

الشهرستاني ١٣٨

ص

صفية بنت عبد المطلب ٤٩

صلاح الدين المنجد ١٣٧، ١٤١

ط

الطبري (محمد بن جرير) ٦٣، ٦٤

١٧٤، ١٧٥، ١٧٦

طفيل بن عمرو الدوسي ٥٢

ع

عائشة (رضي الله عنها) ١٤٠، ١٤٣

٢٦٠، ٢٦٢

عاتكة بنت عبد المطلب ٣٦

العاصي بن وائل ٧٠، ٧١

عامر بن الظرب ٣٨، ٣٩

عبد الحليم محمود ١٩، ٧١، ٧٣

١٣٥

عبد الرحيم بن الحسين الحافظ

العراقي ١٤٠، ١٤١، ١٤٢

عبد العزيز بن أبي رجاء ١٣٧

عبد العزيز بن رقيع ١٤٣

عبد الله بن أحمد ١٤١

عبد الله بن حامد ٢٢

عبد الله بن رواجة ٤٨

عبد الله بن الزبيري ٤٨، ٤٩

عبد الله بن عمر ١٤٣، ٢٥٨

عبد الله الغني بن سعيد ١٣٧

عبد قيس بن خفاف ٥٣

عبيد بن الأبرص ٤٦، ٤٧

عثمان بن أبي شيبة ١٤٥

عروة بن الزبير ٧١

العسقلاني ١٣٦

عطاء بن ياسر ١٥٦

عكرمة ٧١، ١٧٤، ٢١٣

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

١٤٥، ١٥١، ١٥٣، ٢٥٩، ٢٦٢

علي بن مسلم ١٤١

علي بن هشام ٣٦

عمار بن ياسر ٢٦، ٢٢٤

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣

٢٢٩، ٢٣١، ٢٥٣، ٢٥٤

عمرو بن الجموح ٤٩

عمرو بن حماد ١٧٦

عمرو بن العاص ١٥٢، ١٥٣

غ

الغزالي (أبو حامد) ١٧، ١٩، ٤٠

١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٦٥

١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠

٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٠

ف

الفارابي ١٦

الفتني الهندي ١٣٦

الفراء ٥٠

فرعون ٧٤، ٩٨، ٢٢٥، ٢٣٧

الفيروزآبادي ٢٩، ٤٢

ق

القاسم ١٧٥

قتادة ٢١٣

القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري)

١٧٨، ١٧٩، ١٨٠

قيس بن عاصم ٣١

ك

كعب الأحبار ٢٦٠

كعب بن زهير ٢٥، ٣٣، ٤٧

كعب بن مالك ٣١، ٣٧

الكندي ٧١ - ٧٣

ل

لبيد بن ربيعة ٣٣

اللحياني ٥٠

لويس معلوف ٣٠

ليث (قبيلة) ٣٧

م

المأمون ١٥٥

ماعز بن مالك الأسلمي ١٤٥

مالك بن دينار ١٤١

مالك بن عوف ١٧٤

مجاهد ٧١، ١٧٦، ٢١٣، ٢٦٥

مجمع بن جارية ١٣٦

محقبة بن نعمان الأزدي ٤٩

محمد بن أبي محمد ١٧٤

محمد بن إسحاق ١٧٤

محمد بن الربيع ١٤٣

محمد بن سعد ١٧٥

محمد بن علي السوري ١٣٧

محمد ناصر الألباني ١٣٦

محمود أبو ريذة ٧١

المرتضى الزبيدي ١٤١

مصطفى محمود ١٨٩

معاوية بن أبي سفيان ١٥٢ ، ١٥٣ ،

١٥٥

معن بن أوس المزني ٣٥

المغيرة بن شعبة ١٥٢

المقريزي ١٣٨ ، ١٥٦

موسى (عليه السلام) ٧٤ ، ١٧٦ ،

٢٣٧ ، ٢٤٤

ميسرة بن عبد ربه ١٣٧

ن

الناطقة الذبياني ٢٤

النسائي ١٣٦

نظام الدين النيسابوري ١٧٨ ، ٢١٢ ،

٢٧٢

النظام ١٣٨

النمرود ٧٤

النووي ١٤٩

و

وابصة بن معبد ٢٥١ ، ٢٥٢



الناري الشبائي

الفهرست

رقم الصفحة

التصدير

٩

الباب الأول

المقدمة

١٥

العقل والقلب في الشعر واللغة

٢٢

الفصل الأول: العقل

٢٤

المرادفات اللغوية: اللب

٣٠

الحلم

٣٢

النهر

٤٠

الحجر، الحجى

٤١

الفصل الثاني: القلب

٤٥

الفؤاد

٥١

الباب الثاني

الفصل الأول: العقل في القرآن

٥٥

العقل والطبيعة

٥٦

الحياة والموت

٥٩

الحياة النباتية

٦٠

العقل وأصل الإنسان

٦٥

الإنسان ومراحل تطوره

٦٦

القصص القرآني

٧٤

الحواس والعقل

٧٨

٨٢	آفاق أخرى لفعل العقل: المنطق العقلي
٨٦	الزهد والمنطق القرآني
٨٩	مواقف مناقضة للعقل
٩٤	أحكام الشريعة والعقل
٩٧	خلاصة
١٠١	الفصل الثاني: الألفاظ المرادفة للفظ العقل
١٠١	اللب
١٠٨	مختصر
١٠٩	الفكر
١٢٢	خلاصة
١٢٤	الحلم
١٢٧	النهي
١٢٨	الحجر
١٢٩	خلاصة
١٣٠	حصيلة معاني العقل، ودوره في القرآن

الباب الثالث

١٣٥	الفصل الأول: العقل في السنة
١٤٠	الاتجاه الفلسفي
١٤٢	الأحاديث الصحيحة والعقل
١٤٦	أحاديث تعرضت للنقد
١٥١	أقوال في العقل
١٥٤	الفصل الثاني: العلماء والعقل

الباب الرابع

١٨٥	الفصل الأول: القلب في القرآن
-----	------------------------------

١٨٦	العقل والقلب
١٨٩	المسؤولية في القلب
١٩٠	إثم القلب
١٩١	الإيمان والإسلام
١٩٢	نفاق القلب
١٩٥	مرض القلب
١٩٩	الطبع على القلوب وأقفالها
٢٠٥	القلب والمعرفة
٢٠٩	منزل الوحي
٢١١	القلب يتذكر
٢١٢	قلب واحد
٢١٤	العواطف مكانها القلب
٢٢٦	امتحان القلب
٢٣٠	صفات القلب الحسنة
٢٣٤	صفات القلب السيئة
٢٣٥	الضغط على القلوب
٢٣٥	يعلم ما في القلوب
٢٣٨	القلب والاستدلال المنطقي
٢٤٠	الألفاظ المرادفة للفظ القلب
٢٤٠	الفؤاد
٢٤٠	الفؤاد والمعرفة
٢٤١	الفؤاد والقرآن
٢٤١	الفؤاد والمسؤولية
٢٤٢	الفؤاد وجبريل
٢٤٢	ميل الفؤاد

٢٤٢	إصغاء الفؤاد للاغراء
٢٤٢	الأفئدة وعذاب الآخرة
٢٤٣	الصدر
٢٤٣	شرح الصدر أو ضيقه
٢٤٥	شفاء الصدور
٢٤٥	الآيات في الصدور
٢٤٦	الله يعلم ما في الصدور
٢٤٧	الصدر وما فيه
٢٤٨	القلب في الصدر

الباب الخامس

٢٥١	الفصل الأول: القلب في السنة
٢٥١	استفتاء القلب
٢٥٣	المعرفة في القلب
٢٥٤	القلب هو الإنسان
٢٥٥	التقوى في القلب
٢٥٦	الإثم في القلب
٢٥٨	النفاق في القلب
٢٥٨	الله في قلوب المؤمنين
٢٥٩	أحوال القلوب
٢٦١	الرؤية بالقلب
٢٦٢	الله مالك القلوب
٢٦٣	خلاصة
٢٦٥	الفصل الثاني: العلماء والقلب
٢٧٥	خاتمة



الناري الشبلي

صدر أيضاً

- مباحث في علوم القرآن الكريم
تأليف الدكتور الشيخ صبحي الصالح
- علوم الحديث ومصطلحه
تأليف الدكتور الشيخ صبحي الصالح
- النظم الإسلامية نشأتها وتطورها (مجلد)
تأليف الدكتور الشيخ صبحي الصالح
- منهل الواردين في شرح رياض الصالحين من كلام سيد
المرسدين
للنوري تحقيق الدكتور الشيخ صبحي الصالح
مجلدان
في مجلد واحد
- دفاع عن الاسلام
للمستشرق فاغليري - تعريب الاستاذ منير البعلبكي
- حياة محمد ورسائله
لمولانا محمد علي - تعريب الاستاذ منير البعلبكي
- الطريق الى الاسلام
للاستاذ محمد اسد - تعريب الاستاذ عفيف البعلبكي
- الاسلام على مفترق الطرق
للاستاذ محمد اسد - تعريب الدكتور عمر فروخ
- منهاج الاسلام في الحكم
للاستاذ محمد اسد
- الشهيد في الاسلام
لسماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد